

محمد فايق

عبد الناصر والثورة الافريقية

إهـــــــداء٢٠٠٨

أسرة المرحوم الأستاذ/ محمد إدريس

جمهورية مصر العربية

عبدالناصر

وَالثــورَة
الافــريقيَّــة

محمد فايق

عبد الناصر

وَالثورَة الافريقيَّة





شارع ليون ـ الحمراء ـ بناية مبشر
ص . ب ١١٣/٦٣٨٤ ، هاتف ٣٥٣٨٨٥
برقياً د الوحدة ، بيروت ، لبنان

مقـــدمة

احتل عبد النـاصر مـركز الصـدارة بين قـادة حركـة التحريـر في عصره ، واستطاع أن يجسد آمال الشعوب المقهورة ويعبـر عن الكثير من آمانيها ، وذلك من خلال معاركه الطويلة ضد سيطرة الاستعمار والامبريالية . وظهرت الناصريـة كفلسفة ثـورة تحددت معـالمها عـلى أرض مصر أولاً بعد معارك مريرة قاوم فيها جمال عبد الناصر الأحلاف وأنهى الاحتلال البريطاني وأمم قناة السويس وحول المجتمع الذي كان يعاني من الاستعمار والاقطاع وسيطرة رأس المال إلى مجتمع انتقلت فيه الثروة إلى مالكهـا الشرعي وهـو الشعب ، وتحررت الارادة المصـرية تحرراً كاملاً .

وأدرك عبد الناصـر منذ البـداية أن مصـر المستقلة لا تستطيـع أن تعيش وحـدها . وآمن بـأن الثورة المصـرية جـزء لا يتجـزأ من ثـورة التحرر الوطني في العالم . فالتحم بحركة التحرر الوطني العـربية التي أصبحت قاعدة انطلاقه الثوري ، كما التحم بحـركة التحـرر الوطني الافـريقية . ثم امتـدت حـركتـه إلى آسيـا وبقيـة العـالم حتى أصبـح عبد الناصر محوراً للحركة الثورية في العالم الثالث .

وأصبـح مفهـوم النـاصـريـة هـو حصيلة الحـركـة في كـل هـذه

المجالات . وسوف نتناول في هذا البحث حركة عبد الناصر في مجال واحد منها ، وهو مجال عملت فيه قريباً من عبد الناصر وعشت أحداثه كلها ، وهو جزء أساسي من فلسفة ثورة ٢٣ يوليو وأقصد به مجال الثورة الافريقية .

وقد استخدم اصطلاح الثورة الافريقية للدلالة على ذلك التغيير الشامل الذي اجتاح افريقيا فغير الكثير من أوضاعها السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية . وقد ظهر هذا التغيير بشكل فجائي وعنيف في أواخر الخمسينات وبداية الستينات حينما ارتفعت أعلام الاستقلال بالجملة ، وبعد أن اندلعت حركات التحرير في جميع أنحاء القارة متخذة من عواصم دولها المستقلة في القاهرة وأكرا وكوناكري ودار السلام وبرازافيه وغيرها قاعدة لانطلاقها ، فأنهار الكثير من الحواجز التي حاول الاستعمار إقامتها منذ وطأت أقدامه أفريقيا لتفصل بين شعوبها مستغلة فروق اللغة والدين والحضارة واللون .

ولم تكن الثورة الافريقية مجرد التقاء لعدد من الثورات الافريقية في مصر وكينيا والجزائر والكونغو وأنجولا وموزمبيق وجنوب أفريقيا وغيرها فحسب ، وإنما كان أخطر جوانب هذه الثورة هو ذلك الاحساس بالانتماء إلى القارة الذي زرعته الحركة الافريقية عميقاً في وجدان الأفارقة في جميع أرجاء القارة فجعلتهم يتغنون بشعارات الوحدة الافريقية بعيداً عن سيطرة الرجل الأوروبي والاستغلال الاستعماري . وأصبح هذا احساس يشكل فكراً متسلطاً يأخذ بالباب الأفارقة في كل مكان .

ورغم أن هذا الاحساس بالانتماء الافريقي لم يخرج عن كونه شعوراً عاطفياً في معظمه ، إلا أنه كان أساساً لازماً للتعبئة الثورية

ولاحتواء المثقفين الأفارقة الذين كانت الثقافة الغربية قد بهرت الكثير منهم فلم يجدوا أمامهم من خلاص سوى الانتماء إلى هذه الحضارات الغربية باعتبارها الطريق الوحيد للقضاء على التخلف والجهل الذي غرقت فيه شعوبهم ، وكان الاستعمار يجد في هؤلاء فرصته لفرض سياسات الاستيعاب « Assimilation» للمثل الفرنسية التي حاولت فرنسا إدخالها في مستعمراتها والسياسات المشابهة في المستعمرات البرتغالية ومناطق الاستيطان في القارة .

وجاء هذا الاحساس بالانتماء ليعطيهم الأمل في المستقبل ويولد فيهم الشعور بالزهو . فكانت محصلة ذلك كله طاقة هائلة ساعدت في بلورة الشخصية الافريقية . واستطاعت أفريقيا أن تفرض وجودها في المجتمع الدولي ، فغيرت الكثير من المفاهيم السائدة في هذا المجتمع بما يعيد لأفريقيا وللافريقيين الكثير من حقوقهم المسلوبة .

وبطبيعة الحال فإن الثورة الافريقية لم تخرج من فراغ ، فلا شك أنه قد كان لها أسبابها وجذورها الممتدة عبر التاريخ ، ولكنها كأي ثورة كانت تحتاج إلى الزعيم أو الزعماء القادرين على قيادة هذه الثورة ورسم طريقها في لحظاتها الحاسمة .

وإذا كنا نسلم بأن الزعماء الذين قادوا ثورة أفريقيا هم جمال عبد الناصر وكينياتا ، ونكروما ، وسيكوتوري ، وبن بيللا ولومومبا وفيلكس مومي وكاوندا وجوشوا نكومو ونيريري ومندلاني واميل كابرال ومحمود حربي وغيرهم فإننا نستطيع بكل الاطمئنان أن نقول أن جمال عبد الناصر قد لعب الدور الأخطر والأعظم بشهادة التاريخ وشهادة هؤلاء أنفسهم .

لقد استطاع عبد الناصر أن يرد كل الثقة والكرامة لشعوب أفريقيا

التي قهرها الاستعمار وأطبق على أنفاسها قروناً طويلة . وزرع عبد الناصر في كل أفريقي ذلك الاحساس بالعزة والكرامة والكبرياء والفخر ، والانتماء إلى تاريخ وحضارات ذات ماض وذات مستقبل . فعندما كشفت مصر عن وجهها الافريقي الصحيح لأول مرة في تاريخها الحديث بعيداً عن فكرة الامبراطورية التي ظلت تملأ عقول زعمائنا الوطنيين حقبة طويلة من الزمن ، وأعلن عبد الناصر انتماء مصر للحركة الافريقية وتحملها عبء حركة التحرير الافريقية ، وأصبح هذا الانتماء جزءاً لا يتجزأ من الشخصية المصرية ، كان عبد الناصر قد أضاف بذلك حضارة مصر العريقة لتصبح رصيداً لأفريقيا كلها بجانب حضاراتها الزنجية ، وهو شيء كانت أفريقيا في مسيس الحاجة إليه وهي ما زالت في مرحلة تتحسس فيها جذورها لتستقي منها ما تدفع به حركتها أمام العالم وفي مواجهة قوى الاستعمار الشرسة .

وبعد حرب السويس فتح عبد الناصر أبواب المستقبل أمام شعوب القارة التي كانت ترزح تحت نير الاستعمار . فبانتصار مصر في معركة تأميم قناة السويس وقضائها على العدوان الثلاثي لم يعد هناك أحد يشك في أن عهد الامبراطوريات قد انتهى كما انتهت سيطرة بريطانيا في مصر . وهز ذلك صورة انجلترا وفرنسا وبلجيكا والبرتغال في أفريقيا هزاً عنيفاً وزلزل امبراطورياتها التي تداعت بعد ذلك في سرعة مذهلة .

ولن نكون مبالغين إذا قلنا أن ثورة يوليو المصرية قد أحدثت من التغيير وتركت من التأثير في أفريقيا ما لا يقل بحال من الأحوال عن ذلك التغيير والتأثير الذي أحدثته وتركته الثورة الفرنسية في أوروبا .

فإذا كانت الثورة الفرنسية قد زرعت مبادىء الحرية والاخاء والمساواة عميقة بين شعوب أوروبا وقضت على الاقطاع وامتيازات

النبـلاء والألقاب ، فـإن الثورة المصـريـة هي التي أعـطت الشعـوب الافريقية القدرة على استخلاص حقوقهـا وفقاً لهـذه المبادىء والمعـاني العظيمة ، والتي كـان تطبيقهـا يقف دائماً خـارج حدود المستعمـرات حيث كان يصطدم هذا التطبيق بمصالح المستعمرين الأوروبيين .

فعندما قامت الثورة الفرنسية كان طبيعياً ألا تنكـر فرنسـا حقوق الانسان التي أعلنتها هذه الثورة على رعاياها في مستعمـراتها . وكـان دانتون على حق عندما قال : « لقد كان الجميع عبيداً في حكم البربون المستبد والآن يجب أن يتحرر الجميع ليصبحوا مواطنين في الجمهورية الفرنسية » ونجح دانتون في استصـدار قانـون ينص على اعتبـار جميع الرجال الذين يعيشون في المستعمرات الفرنسية مواطنين فرنسيين دون تمييز في اللون . وأن يتمتع هؤلاء بجميع الحقوق والمـزايا المنصـوص عنها في الدستور الفرنسي .

ولكن سرعان ما ألغي هذا القـانون في عهـد نابليـون ـ وقبل أن يصبـح له أي آثـار عملية ، بـل أن وثيقة اتهـام دانتون التي أعـدهـا روبسبير احتوت اتهاماً بشأن هذا القانون . فقد اتهم بأنه قدم قانونـاً يؤدي إلى القضاء على الامبراطورية الفرنسية . وأنكرت فرنسا بذلك عـلى الشعوب الافـريقية حق الاستمتـاع بهذه المبـادىء والحقوق التي حـاربت هي نفسها من أجـل فـرضهـا في أوروبـا لتحـريـر شعـوبهـا المقهورة .

ولم يكن هذا موقف فرنسا وحدها وإنما كان موقف دول الاستعمار الأوروبي والـولايات المتحـدة الأمريكيـة . فلم يمنع الاعـلان الشهير للرئيس الأمريكي ويلسون ـ والذي تضمن قواعـد ومعاني جـديدة في حكم الشعوب ـ لم يمنع ذلـك الرئيس ويلسـون نفسه من أن يعتـرف بالحماية البريطانية على مصر في أبريل سنة ١٩١٩ وكان في ذلك صدمة

كبيرة لزعماء الحركة الوطنية في مصر الذين علقوا الآمال الكبيرة على موقف أمريكا بعد إعلان ويلسون .

لقد كانت المواثيق الدولية وحقوق الإنسان بما في ذلك ميثاق الأمم المتحدة كلها تقف عاجزة عن تغيير الأوضاع في أفريقيا والمستعمرات الأخرى رغم ما تحتويه هذه المواثيق من معان إنسانية عظيمة ، وبدأ الأمر وكأنها صدرت من أجل الانسان الأوروبي فقط .

ولكن بقوة الثورة استطاعت أفريقيا واستطاعت الشعوب المستعمرة أن تجعل لهذه المبادىء والمواثيق قيمة حقيقية فكان هذا التغيير الهائل في أفريقيا وفي العالم الثالث أجمع .

وجاءت الثورة المصرية لتكون البداية لهذا التحول العظيم وقوته الدافعة بعد أن استطاع عبد الناصر أن يحرر الارادة المصرية بعيداً عن أي سيطرة أجنبية ، ويجعل من أرض مصر قاعدة للثورة الافريقية ، كما أصبحت من قبل قاعدة للثورة العربية . وهكذا شكل التزام مصر بقضايا التحرر العربي والافريقي قوة إضافية في مقاومة الاستعمار في جميع أجزاء القارة الافريقية حيث كانت تتمثل في هذا الالتزام وحدة النضال ووحدة الهدف . وشعر كل جزء من أفريقيا أن له سنداً قوياً وحليفاً عنيداً . فبرزت الثورات في القارة كما برزت في العالم العربي . واستحق عبد الناصر عن جدارة أن يلقب بمفجر الثورة الافريقية .

وعندما قامت ثورة يوليو لم يكن لمصر اهتمام يذكر أو أي صلات بالحركات الوطنية في أفريقيا ، اللهم إلا بالسودان فقط باعتباره قطراً عربياً في المقام الأول وتطلعاً إلى وحدة وادي النيل ، هذا الشعار الذي رفعه جميع زعماء وحكومات مصر السابقة على ثورة يوليو . ولم يكن لمصر حتى ذلك الوقت أي سياسة أفريقية بالمعنى الصحيح وان كانت

لها سفارة في أديس أبابا عاصمة أثيوبيا ومفوضية في جنوب أفريقيا علاوة على المندوب المصري في المجلس الاستشاري في الصومال الذي كان موضوعاً تحت وصاية الأمم المتحدة .

ولكن كانت لنا بأفريقيا صلات ثقافية قامت مع انتشار الاسلام في القارة وكان في الأزهر الشريف عدد كبير من الطلبة الافريقيين أتوا من جميع أنحاء القارة يدرسون في أروقته بعد أن جذبتهم شهرة الأزهر وانفتاحه على المسلمين في جميع أنحاء العالم .

كانت هذه هي كل الصلة التي تربط مصر بأفريقيا ولا شيء آخر سوى واقع حقيقي هو الوجود الجغرافي لمصر في القارة الافريقية ، وتاريخ بعضه قديم من العهود الفرعونية وان كنا لا نعرف على وجه التحديد مدى هذه العلاقة ، إلا أنه من المؤكد أن ثمة علاقة كانت موجودة بين مصر الفرعونية وأقطار أفريقية كثيرة ، فقد وصل المصريون القدماء إلى بلاد « البنت » وهي ما تعرف حالياً بالصومال كما أنه من المؤكد وصولهم جنوباً إلى ملتقى النيل الأبيض بالنيل الأزرق (موقع الخرطوم الحالي) كما يعتقد أنهم عرفوا شيئاً عن النيل الأزرق وربما كانت لهم صلة بمناطق في غرب أفريقيا[(١)] .

وبعض هذا التاريخ حديث ولكنه لا يصلح ليكون مدخلاً مثالياً للعلاقات الافريقية الجديدة لأنه اعتمد على الفتوحات في عهد محمد

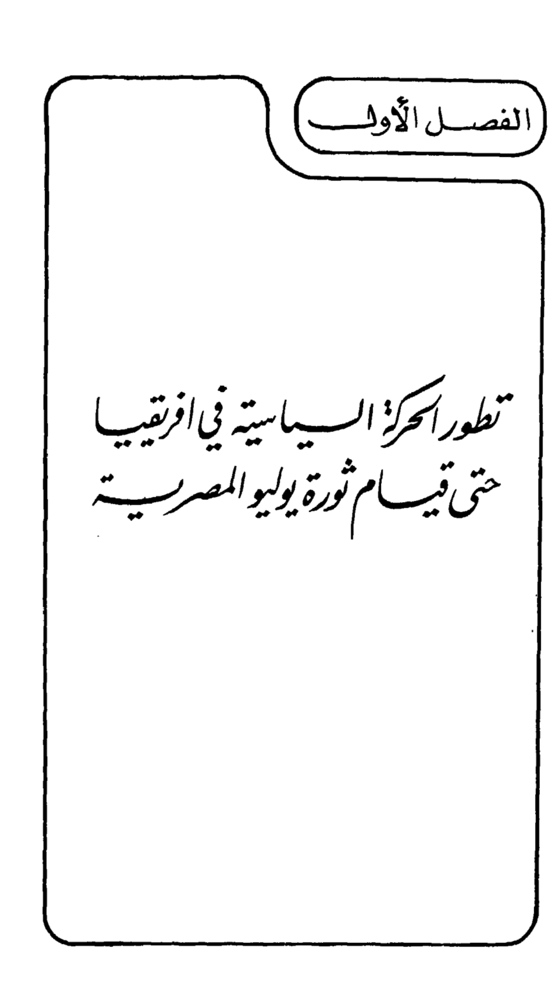
---

(١) لقد بذلت بعض الجهود لايجاد صلة بين الأديان في مصر الفرعونية وبين الطقوس والاعتقادات الموجودة في افريقيا . وقد وجد J. O. Locas أن هناك تشابهاً بين ديانة اليوريا في نيجيريا والديانات المصرية القديمة ويقول أنه يوجد النصف على الأقل من كلمات اليوريا تحتوي على جذور مصرية ولكن لا توجد الحجة القاطعة حتى الآن التي تؤكد هذه الصلة بين الديانات في مصر الفرعونية وبين الطقوس والاعتقادات الموجودة في أفريقيا .

علي واسماعيل باشا . فقد وصلت سيطرة مصر الى شواطىء أفريقيا الشرقية والى منطقة البحيرات الاستوائية ولكن ذلك كله كـان تاريخاً قطع صلته بالحاضر ولم يبق منه في ذلك الوقت سوى وجود أسمى في « السودان المصري الانجليزي » في حين بقيت السلطة والادارة الفعلية هناك في يد الانجليز .

وجاء جمال عبد الناصر ليضع استراتيجية جديدة لسياسة مصر الخارجية في كتابه « فلسفة الثورة » . فحدد هذه السياسة بدوائر ثلاث هي العربية والافريقية والاسلامية . وكان معنى ذلك الاهتمام بالقارة الافريقية التي تقع فيها إحدى هذه الدوائر وتتقاطع فيها أيضاً الدائرتان الأخريان . ففي أفريقيا تسع دول عربية (حالياً) كما يعتبر الدين الاسلامي فيها أوسع الأديان انتشاراً .

واستطاع عبد الناصر بمساعداته الفعالة والايجابية ومواقفه النضالية أن يجعل من مصر محوراً وقاعدة للحركة الافريقية بعد أن كانت بعيدة عنها تماماً . كما استطاع أن ينقل هذه الحركة الافريقية إلى مرحلة الثورة ويضيف إليها أبعاداً جديدة . فبعد أن كانت الحركة الافريقية تسير في اتجاه يحصرها في نطاق ما سمي بأفريقيا السوداء أو أفريقيا جنوب الصحراء الأمر الذي جعلها تبدو في معظمها حركة بين الزنوج ومن أجلهم ، أصبحت ثورة قارية تشمل أفريقيا كلها وتجاوزت الحدود التي تجعل منها مجرد ردود فعل لحركة الاضطهاد العنصري ، وأصبحت ثورة ذات أبعاد سياسية واجتماعية .



الفصل الأول

تطور الحركة السياسية في افريقيا حتى قيام ثورة يوليو المصرية

جاءت صلة أفريقيا الأولى بالعالم الخارجي من خلال تجارة الرقيق التي انتهت في القرن التاسع عشر . وامتد النفوذ الأوروبي إلى جميع أجزاء القارة بعد إخضاعها وتحويلها إلى مستعمرات . ومن هنا تحددت العلاقة بين الرجل الأوروبي والرجل الزنجي سواء في أفريقيا نفسها أو في العالم الغربي بزعم أن العنصر الزنجي عنصر متخلف حضارياً وذهنياً حتى من الناحية البيولوجية وانه وفقاً لهذه المزاعم غير قادر على أن يقوم بالأعمال التي يقوم بها الرجل الأبيض بنفس الكفاءة . وعلى هذا الأساس فلا يجوز له أن يتمتع بنفس الحقوق التي يتمتع بها الرجل الأبيض ، وكانت هذه هي الفلسفة الظالمة التي أقنع بها الرجل الأوروبي نفسه لأسباب اقتصادية في المقام الأول . وقد اشتدت مظاهر هذه التفرقة في الولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص ، حيث استجلبت الأعداد الهائلة من زنوج أفريقيا لتعمير العالم الجديد بالأيدي الرخيصة .

وبعد أن أتيحت فرصة التعليم للعديد من زنوج أمريكا ولمع منهم أدباء وفنانون ، ظهرت بينهم حركة فكرية وأدبية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وكانت هذه الحركة في بدايتها

تعكس العذاب النفسي والظلم الذي يعيش فيه الزنوج نتيجة لتسلط الرجل الأوروبي الذي استولى على أرض أجدادهم وحولهم من أحرار إلى عبيد أرقاء .

ثم تطورت هذه الحركة لتدافع عن الرجل الأسود وتدفع عنه الشعور بالنقص لمجرد كونه أسود ، فظهرت الأشعار التي تتغنى باللون الأسود وقوة الرجل الأسود والتي تقول أن الزنجي هو صورة الله في الأرض .

وكان لا بد لهؤلاء أن يبحثوا لأنفسهم عن حضارة وتاريخ ينتمون إليه . ولكن أحداً من الزنوج لم يكن يعرف موطنه الأصلي على وجه التحديد ، فهم جميعاً يعرفون فقط أنهم أتوا من القارة الافريقية ومن هنا جاء انتماؤهم إلى أفريقيا ككل وليس لبلد محدد .

وأراد هؤلاء المفكرون الأوائل من الزنوج أن يصححوا تلك الصورة الظالمة القاسية التي ترسخت في الأذهان عن أفريقيا لفترة طويلة من الزمن كان الخوف خلالها يملأ نفوس الزنوج أنفسهم من فكرة الارتباط بأفريقيا . ولذلك ظهرت حركة واسعة للتأليف عن تاريخ القارة الافريقية وابراز البطولات الافريقية ودورها ، ومقاومة الاستعمار ، وتاريخ الامبراطوريات الافريقية القديمة ، امبراطوريات غانا ومالي وسونغاي ، وسلطنات زنجبار وسومالا وكلوة ومقديشو . وذلك كله في محاولة لتأكيد الشخصية الزنجية .

ثم امتد اهتمام هذه الحركة إلى أحوال أفريقيا التي يعيش أهلها تحت نير الاستعمار والاضطهاد الذي يتعرض له الافريقيون وخاصة في جنوب أفريقيا حيث تشتد وطأة التفرقة العنصرية . وكان هذا هو الطريق إلى حركة البان أفريكانزم Pan Africanism أو ما اصطلح على تسميتها بالجامعة الافريقية .

وقد تبلورت هذه الحركة لتأخذ شكلاً أكثر تحديداً بعقد سلسلة من المؤتمرات ابتداءً من عام ١٩٠٠ حتى عام ١٩٤٥ شملت العديد من الأفارقة الذين يتعلمون في جامعات أوروبا . وأطلق على هذه المؤتمرات « مؤتمرات الجامعة الافريقية » « Pan African Congress » .

وكان المؤتمر الأول في لندن[1] وانتهى بتوجيه مذكرة إلى ملكة بريطانيا يحتج فيها المؤتمرون على سوء معاملة الأفارقة في جنوب أفريقيا وروديسيا . وعقدت المؤتمرات الثلاثة التالية في عواصم أوروبية والمؤتمر الخامس في نيويورك . واهتمت هذه المؤتمرات الخمسة جميعها بحقوق الوطنيين الافريقيين ولكنها اكتفت بالمطالبة بإشراكهم في الحكم دون المناداة بالاستقلال . وكانت هذه المؤتمرات تحت سيطرة وقيادة المفكرين من زنوج أمريكا وجزر المارتينيك .

بعد قيام الحرب العالمية الثانية انتقل مركز ثقل الحركة الافريقية إلى لندن ، وكان بها كثير من التنظيمات الافريقية التي أقامها الافريقيون الذين يدرسون هناك . وأمكن لبعض الذين اشتركوا في المؤتمرات السابق ذكرها المساهمة في أقامة تنظيمات سياسية مع الأفارقة الموجودين في لندن .

وفي عام ١٩٤٤ اتحدت مجموعة من التنظيمات والجماعات الافريقية مكونة تنظيماً جديداً باسم « Pan African Federation» وكانت هذه المجموعة هي التي وجهت الدعوة للمؤتمر الافريقي

---

(١) دعي لهذا المؤتمر محام من ترنداد هو سليفستر وليامز « Sylvester Williams » وهو أول من تكلم عن الجامعة الافريقية . وقد حضر هذا المؤتمر الدكتور وليام دي بوا « W.Du Bois » الذي رأس جميع المؤتمرات الخمسة اللاحقة بعد ذلك والذي لقب بأبي الجامعة الافريقية .

السادس من سلسلة مؤتمرات الجامعة الافريقية والذي عقد في مانشستر عام ١٩٤٥ برئاسة دكتور وليام دي بوا . وقد برز في هذا المؤتمر عدد من القيادات الافريقية التي تولت زمام الأمور في أفريقيا بعد ذلك من أمثال نكروما وجوموكنياتا .

وقد أثبت هذا المؤتمر أن الحركة الافريقية قد نضجت كثيراً خلال المدة الأخيرة وأصبحت حركة ذات اتجاهات واضحة متبلورة إلى حد كبير ، وأصبحت معاداة الاستعمار والامبريالية هي الخط الرئيسي للحركة الافريقية . ولأول مرة يدعو هذا المؤتمر للاستقلال الوطني باعتباره الحل الوحيد لتحقيق أماني الشعوب الافريقية كما ذهب المؤتمر إلى حد التلويح باستخدام القوة لتحقيق ذلك . كما احتوت قراراته على إدانة لاحتكار رأس المال وإدانة لتسخير الثروة والصناعة من أجل الربح الخاص فقط . ورحب المؤتمر بالديموقراطية الاقتصادية باعتبارها وحدها الديموقراطية الحقيقية . وطالب كذلك بالاستقلال الاقتصادي بجانب الاستقلال السياسي .

ورغم أن المؤتمر لم يأت بذكر كلمة الاشتراكية في قراراته إلا أنه كان من الواضح أن الأفكار الاشتراكية كانت قد بدأت تتسرب إلى عقول قادة الحركة الافريقية . ولا شك أن هذا المؤتمر كان بمثابة قفزة كبيرة حققتها الحركة الافريقية إلا أنها بقيت حتى ذلك الوقت محصورة كحركة سوداء تعنى بحق الرجل الأسود . وعندما تتكلم عن أفريقيا تعني أرض الزنوج أو أفريقيا السوداء جنوب الصحراء . وإن كانت هذه الحركة قد أبدت اهتماماً بشعوب آسيا وبعض قضاياها فلأنها شعوب ملونة تعاني ما يعانيه رجل أفريقيا الأسود .

ويلاحظ غياب الشمال الافريقي عن نشاط هذه المؤتمرات . بل

ان المؤتمر الثاني الذي عقد في باريس كان يضم بخلاف الأعضاء الأصليين أعضاء متآخين « Fraternal Delegates » من الهند والفلبين والمغرب . أي أن المغرب وهو من شمال أفريقيا عومل نفس معاملة الدول الآسيوية غير الافريقية . فقد كانت الحركة الافريقية حتى ذلك الوقت مهتمة بالرجل الأسود تريد أن تعيد له كرامته وتحقق له استقلاله .

وقد برز في حياة الزنوج الأمريكيين دعوة « العودة إلى أفريقيا » باعتبارها حلاً لمشكلة التفرقة العنصرية في أمريكا . ولا أريد الخوض في تفاصيل هذا الموضوع الذي يطول الحديث عنه ، ولكن كل ما يهمنا من أمر هذه الدعوة هو الحديث عن أحد روادها وهو « ماركوس جارفي » باعتباره أحد قادة الحركة الافريقية الذين تأثر بهم كثير من القادة الافريقيين ودعاة الوحدة الافريقية . فقد كانت دعوة جارفي مبنية على نظرية النقاء العنصري Racial Purity ولذلك كان يكره المخلطين ويحمل عليهم وكان يقول : « أعتقد في عنصر أسود نقي كما يعتقد البيض في عنصر أبيض نقي » ورفض استعمال كلمة ملون واستعمل جارفي دائماً كلمة زنجي أو أسود حتى يستبعد العناصر الملونة الأخرى من غير الزنوج .

وقد أعلن جارفي نفسه رئيساً مؤقتاً لجمهورية أفريقيا . وهي جمهورية رعاياها هم الزنوج في جميع أنحاء العالم وكان ذلك عام ١٩٢٠ في نيويورك حيث شكل حكومته المؤقتة . وكان جارفي يقول لن تمضي سنوات معدودة حتى يستعمر الرجل الأسود الزنجي أفريقيا كلها كما يستعمر العنصر الأبيض أوروبا . كما أسس جارفي الكنيسة الارثوذكسية الافريقية وعين بطريركاً أسود لرئاستها واستخدم مسيحاً أسود وعذراء سوداء كشعار لهذه الكنيسة . وكان هدف جارفي إقامة

امبراطورية عنصرية سوداء حدودها الروحية والطبيعية والسياسية « الله وأفريقيا » كما كان يقول دائماً .

وقد لا يتسع المجال هنا للخوض في تفاصيل أكثر عن هذه الحركة التي ثار من حولها جدل كبير . ولكن الأمر الذي يهمنا إيضاحه هو أن فكر جارفي هذا كان أحد التيارات الهامة داخل الحركة الافريقية . ولا يمكن أن نتصور بطبيعة الحال أن مثل هذا الاتجاه كان يمكن أن يقود إلى وحدة كل الشعوب الافريقية فالعرب ليسوا زنوجاً حتى يكونوا من رعايا امبراطورية جارفي المعلنة .

ومن الغريب أن المصري الوحيد الذي تردد اسمه في أي شيء يتعلق بالحركة الافريقية أو حركة الجامعة الافريقية التي ملأت الولايات المتحدة ولندن وباريس لفترة طويلة من الزمن واسمه دوس محمد علي[1] كان على صلة بدعوة جارفي هذه والتي مهما بلغت درجة التعاطف معها فلا يمكن أن ننفي عنها صفة العنصرية .

وإذا انتقلنا إلى ميدان الفكر والأدب الذي كان ازدهاره أكثر ما يكون في باريس سنجد نفس الاتجاه الذي كان يحصر الحركة الافريقية داخل أفريقيا السوداء ويجعلها أسيرة لرد فعل الاضطهاد العنصري ويبقيها حركة بين الزنوج ومن أجلهم .

ففي نفس الوقت الذي انتقل فيه نشاط الحركة الافريقية السياسي من الولايات المتحدة الأمريكية الى لندن ، أصبحت باريس

(١) قال جورج بادمور في كتابه « Pan Africanism or Communism » ان جارفي عندما ذهب إلى لندن لأول مرة قضى عدة سنوات يعمل مع مصري من أصل سوداني هو دوس محمد علي الذي كان محرراً بأحدى المجلات المعادية للامبريالية وكان محمد علي من مؤيدي سعد زغلول زعيم الرفض ولكن من الواضح أن دوس محمد علي هذا لم يباشر نشاطه المتعلق بهذه الحركة باسم حزب الوفد .

مركزاً لحركة الأدب والفكر الافريقي حيث ظهرت فلسفة أو حركة جديدة عرفت باسم « الزنوجة » Negretude والتي تعاون كل من ايميه سيزار Aime Cesar من جزر المارتينيك وليوبولد سينغور « رئيس جمهورية السنغال بعد ذلك » في بلورتها . وكما هو واضح من اسم هذه الحركة فهي تهتم بالأصل الزنجي وتدور فلسفتها كلها حول الرجل الأسود الزنجي تريد أن تحقق له ذاته وتعيد له ثقته بنفسه . وهي من أجل ذلك تريد اكتشاف الجذور الأصيلة الزنجية مجردة من تأثيرات الثقافة الغربية ، تدعو للبحث عن عادات الزنوج وتقاليدهم المفقودة ، وهي ترى إمكانية الوصول إلى ذلك من خلال الفن والأدب الافريقي ، فهو القادر على توضيح النفس السوداء وإظهارها . . وهكذا يمكن للزنجي أن يواجه عالماً يجد فيه ذاته وله فيه دوره المميز .

ورغم أن هذه الحركة الفكرية التي نبتت في جزر المارتينيك ونضجت في باريس كان لها مساهمتها وأثرها البعيد في تدعيم الدعوة للوحدة الافريقية عن طريق تأكيد الشخصية الافريقية وإيجاد وحدة الفكر ، إلا أن ذلك أيضاً كان محصوراً بين الزنوج فقط وبذلك فإن الوحدة التي كان يمكن أن تؤدي إليها مثل هذه الحركة هي وحدة أفريقيا السوداء .

وحتى هذه الدعوة للوحدة قد أصابها الضرر من الآثار الجانبية التي خلفتها هذه الحركة نفسها ـ حركة الزنوجة ـ لأنها وإن كانت تهتم بالزنوجة بصفة عامة ، فإنها لم تصادف النجاح المنشود إلا بين الزنوج الناطقين بالفرنسية فقط والذين تأثروا بالثقافة الفرنسية . وعندما انتقلت إلى القارة الافريقية كان تأثيرها مقصوراً على دول الفرانكوفون الناطقة بالفرنسية فقط وكان ذلك من بين العوامل التي ساعدت في ظهور تقسيم جديد في أفريقيا بين ما سمي بدول الانجلوفون (الناطقة

بالانجليزيـة) ودول الفرانكـوفون . وهـو تقسيم عانت منـه الوحـدة الافريقية أشد معاناة .

وحتى نكـروما عنـدما بـدأ في منـاقشـة فكـرة إنشـاء « اتحـاد الجمهـوريات الافـريقية الاشتـراكية » مـع بعض أصدقـائه في لنـدن عام ١٩٤٦ لم يشرك معه تنظيمات أو أي قيادات من الشمال الافريقي رغم أن الحركة الوطنية في هـذه المنطقـة كانت متقـدمة عنهـا في جميع منـاطق أفريقيـا الأخرى . وانتهى نكـروما إلى إنشـاء « السكرتـاريـة الوطنية لغرب أفريقيا » في لندن عام ١٩٤٦ لتكون نواة لدعوته للوحدة الافـريقية وبقي نشـاطه الآخـر محصـوراً في أفـريقيـا السـوداء إلى أن استقلت غانا .

وقد عملت الدول الاستعمارية من ناحيتها دائماً على تدعيم فكرة الفصل بين أفريقيا العربية وأفريقيا السوداء واعتبار الصحراء الفاصل العازل بينهما . وقد ظهر ذلك جلياً في التقسيمات الاقليمية وخـطوط المواصلات التي أقامتها هذه الدول لتربط مستعمراتها ، كما ظهرت في مناهج التعليم والمؤلفات الغربية عن أفريقيا .

وهكذا نرى أن الحركة الافريقية استمرت في مجملها مقصورة على أفـريقيا السـوداء وان الوحـدة الافريقيـة كـانت تعني وحـدة الاقـطار السوداء إلى أن قامت ثورة يوليو المصرية وجاء عبـد النـاصـر ليعلن في كتابه فلسفة الثورة « . . إننا لا نستطيع بأية حال أن نقف بمعزل عن الصراع الدامي المخيف الذي يدور اليوم في أفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتي مليون من الافريقيين . وسوف تظل شعوب القارة تتـطلع إلينا نحن الـذين نحرس البـاب الشمالي للقـارة الذين نعتبـر صلتها بالعالم الخارجي كله . لن نستطيع بحال من الأحوال أن نتخلى عن مسؤ ولياتنا في المعاونة بكل ما نستطيع عـلى نشر النـور والحضارة

حتى أعماق الغابة العذراء ، إن القارة المظلمة الآن مسرح لفوران عجيب مثير ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نقف أمام الذي يجري في أفريقيا ونتصور أنه لا يمسنا ولا يعنينا » .

وكانت هذه نقطة تحول في تاريخ السياسة الخارجية المصرية واستراتيجيتها وبداية للاهتمام بالقارة الافريقية على أساس جديد هو وحدة النضال من أجل تحرير أفريقيا كلها . لقد كان هذا هو المدخل الصحيح لأفريقيا الذي جاء متمشياً مع روح العصر وتطور الحركة الافريقية نفسها . فقد وضع عبد الناصر يده على مشكلة أفريقيا وحدد بوضوح موقف مصر التي أصبحت منذ ذلك الوقت طرفاً إلى جانب القوى الوطنية الافريقية في كل صراع جرى بعد ذلك وكان الاستعمار طرفاً فيه ضد هذه القوى .

وقدمت مصر كل مساعدة ممكنة لحركات التحرير والقوى الوطنية في أفريقيا ، وهذا ما سوف نتعرض له تفصيلاً فيما بعد ـ حتى أصبحت القاهرة القاعدة الأساسية لتحرير القارة ، فسقطت التقسيمات المصطنعة التي أريد لها أن تفصل بين أفريقيا العربية شمال الصحراء وما سمي بأفريقيا السوداء جنوب الصحراء . فالصحراء في حقيقة الأمر لم تكن في يوم من الأيام عازلاً كما أراد لها الاستعمار ، بل كانت دائماً معبراً اتصل من خلالها العرب بغرب أفريقيا وعن طريقها دخل الاسلام إلى هذه الأقطار .

ويجدر بنا الاشارة في هذا المكان إلى أنه من غير الممكن وضع حدود فاصلة بين العرب الأفارقة وبقية سكان القارة ، فقد انتشر العرب في القارة كلها شرقها وغربها وتداخلت القبائل العربية في القبائل الافريقية وتزاوج العرب والافريقيون ، وأحدث العرب تأثيراً كبيراً في حياة كثير من الشعوب الافريقية فامتزجت الحضارة الاسلامية

العربية بالحضارة الافريقية القديمة وظهر ذلك جلياً في أوسع اللغات الافريقية انتشاراً مثل السواحيلي في الشرق والهوسا في غرب أفريقيا . وربما كان هذا هو الفارق الكبير بين هذه الحضارات والحضارة الأوروبية التي أريد لها أن تكون حضارة طاردة في أفريقيا أي أنها تتطلب من الافريقي أن يترك عاداته وأسلوبه في الحياة ليعتنق عادات وسلوكاً جديداً حتى يصبح رجلاً « متمدناً » كما كانت تتطلب بعض السياسات الاستعمارية كسياسة الاستيعاب **Assimilation** الفرنسية وهي أيضاً نفس الشروط التي كان يتطلبها الاستعمار البرتغالي ليحصل المواطن الافريقي على الحقوق السياسية الكاملة .

ويهمنا أن نؤكد هنا أيضاً أن الثورة المصرية عندما اتجهت بمصر أفريقيا لم تكن بذلك تختلق وضعاً جديداً أو تدخل شيئاً غريباً عن الشخصية المصرية وإنما كان ذلك بمثابة اكتشاف لشخصية مصر الحقيقية أو كشفاً عن وجهها الافريقي الذي هو حقيقة بحكم الواقع وان احتجب أو تاهت ملامحه فترة من الزمن .

الفصل الثاني

عبد الناصر وحركة التحرير الافريقية

* بداية في السودان
* التزام مصر بمسؤولياتها الدولية في الصومال
* مصر تؤيد حركة الماوماو في كينيا
* الاذاعة الافريقية الموجهة من القاهرة
* الثورة الجزائرية وتصفية الامبراطورية الفرنسية
* عبد الناصر والتضامن الافريقي الآسيوي
* المكاتب السياسية لحركات التحرير الافريقية في القاهرة
* الرابطة الافريقية
* المساعدات المصرية لحركات التحرير

التقت الحركات الوطنية في العالم العربي مع الثورة المصرية وتجاوبت مع فكرها وحركتها في سرعة مذهلة ، الأمر الذي دعم مصر في مواجهة تحديات الاستعمار . ولا شك أن ذلك كان من الأمور التي شجعت عبد الناصر ليعجل بمد نشاطه إلى أفريقيا والاتصال بحركات التحرير فيها .

إلا أن الوضع في أفريقيا كان مختلفاً كثيراً عن الوضع في الوطن العربي ، فمجرد الاتصال بالحركات الوطنية في أفريقيا كان في البداية أمراً بالغ الصعوبة . كما أن المعلومات المتوفرة عن هذه الحركات كانت قليلة جداً ، وقبضة الاستعمار القوية تقيم الحواجز بيننا وبين شعوب هذه المنطقة حتى أنه لم يكن يسمح بسهولة بإضافة القاهرة على جوازات السفر الافريقية . كما كان أي مصري يجد صعوبة كبيرة في مجرد دخول هذه المستعمرات . ولذلك كان لا بد لنا من التحايل لدخول هذه الأقاليم لاستكمال الدراسات الميدانية والاتصال بالحركات الوطنية التي لم تكن هي بدورها تعلم الكثير عما يدور في مصر .

ومن أجل إقامة الاتصال مع الحركات الوطنية كنا نتصيد الزعماء

المسلمين من أفريقيا عندما يذهبون للحج والقادة السياسيين عندما يذهبون إلى عواصم الدول الاستعمارية نفسها . واستفدنا بمعلومات الآلاف من الدارسين الأفارقة في الأزهر الذين ساعدونا كثيراً في الاتصال بالزعماء الوطنيين في بلادهم .

وسرعان ما تبدل الحال بعد أن توطدت علاقتنا بالعديد من الحركات الوطنية في أفريقيا وذاع صيت القاهرة كقاعدة للتحرير وخاصة بعد حرب السويس . وأصبح الأفارقة هم الذين يتحايلون للوصول إلى القاهرة والاتصال بها ، رغم تشدد سلطات الاستعمار ومحاولتها وقف هذه الاتصالات أو تقييدها .

وقد قدمت ثورة يوليو نموذجاً جديداً للتحرير في أفريقيا ، فلم تكن الحركة الوطنية في أفريقيا تعرف حتى ذلك الوقت طريقاً للاستقلال سوى طريق التطور الدستوري . وهو الطريق الذي أدى إلى استقلال الهند من قبل والذي تأثرت به الحركة الوطنية في أفريقيا ، وخاصة في مناطق الاستعمار الانجليزي حيث كان للهند صلات كبيرة من خلال الجاليات الهندية الموجودة في هذه المناطق ، ولتأثر كثير من زعماء الحركة الوطنية بفلسفة المهاتما غاندي الذي بدأ حياته السياسية في جنوب أفريقيا .

وكان الجديد الذي جاءت به ثورة يوليو هو أسلوب استخدام القوة في الضغط على الانجليز لإجلاء قواتهم عن مصر وذلك بتنظيم المقاومة المسلحة ضد الوجود البريطاني في منطقة القنال .

واستطاع عبد الناصر أن يبهر الأفارقة ويجذب أنظارهم إلى القاهرة بعد النجاح الذي حققته هذه السياسة بجلاء القوات الانجليزية عن هذا الموقع الاستراتيجي الهام وفشل العدوان الثلاثي

الذي اعتبر بحق نقطة تحول أساسية في تاريخ نضال الشعوب بل أن الكثيرين يعتبرون ذلك هو النهاية الحقيقية للاستعمار التقليدي .

وكان خروج عبد الناصر من هذه المعركة منتصراً بعد أن أمم قناة السويس يعني الكثير بالنسبة للحركات الوطنية الافريقية التي كانت ترى الشركات الأجنبية والاحتكارات الرأسمالية وهي تستولي على مقدرات وثروات بلادها .

وقد خرج عبد الناصر من معركة السويس أكثر تهيؤاً للقيام بدور جديد في أفريقيا . فقد فتح له هذا الانتصار أبواب الاتصال بحركات التحرير الافريقية التي رأت في عبد الناصر المثل والحليف القوي والعنيد . وأصبح الأفارقة هم الذين يتحايلون للوصول إلى القاهرة والاتصال بقادتها .

ثم بدأ عبد الناصر يدخل إلى قلب الحركة الافريقية ، وذلك من خلال مواقف عديدة . وتبني القضايا الافريقية مستمراً في تحديه لقوى الاستعمار والامبريالية فاستطاع أن يجمع حوله قوى الثورة في أفريقيا .

وسنعرض بعض هذه المواقف التي فتحت الطريق أمام جمال عبد الناصر وأمام مصر إلى قلب القارة الافريقية .

بداية في السودان :

كان للسياسة التي اتبعتها الثورة المصرية حيال السودان أثرها الكبير في فتح مجال العمل الافريقي أمام مصر . فقد قامت هذه السياسة على أساس إنهاء احتلال السودان أولاً ، والدعوة لوحدة وادي

النيل ، ولكن من خلال الاعتـراف بحق الشعب السوداني في تقـرير مصيره .

وقـد استقل السـودان في ينايـر سنـة ١٩٥٦ بعـد جـلاء قـوات الاحتلال وأصبح بذلك ثاني دولة أفـريقية ـ بعـد مصر ـ تحصـل على استقلالها منذ القرن التاسع عشر وذلك بفضل اتفاقية ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ التي عقدتها مصر مع بريطانيا ، بعد أن أصر جمال عبد الناصر على أن تبدأ المفاوضات بشأن مستقبل السودان قبل التفاوض على جلاء قوات الاحتلال عن أرض مصر .

وقد خرج عبد الناصر عن الطريق الـذي سار فيـه جميع الـزعماء الوطنيين والحكومات السابقة في مصر في المطالبة بسيادة على السودان أو حق ضمـه إلى الأرض المصريـة كما كـانت تـطالب معـظم الأحـزاب المصرية قبل الثورة . بل ان الملك فاروق كان قد ذهب إلى حد إعلان نفسه ملكاً عـلى مصر والسـودان . فقد فـاجأ عبـد النـاصـر الانجليز أنفسهم عندما وافق على إجراء استفتاء عام في السودان من أجل تقرير المصير بعد تهيئـة الجو الحـر المحايـد . وكان ذلـك أمراً يصعب عـلى الانجليز رفضه بعد أن كانوا هم أنفسهم يطالبون به كمناورة للرد على شعارات وحدة وادي النيل التي رفعتها مصر ، ولاعتقادهم أن النظام الجديد لن يقبل بغير ذلك بعد أن سبق أن أعلنت مصـر أن السودان جزء لا يتجزأ من أراضيها ، وذلك في العهد السابق على الثورة .

وتم الاتفاق على فتـرة انتقال مـدتها ٣ سنوات يتم فيها تصفيـة الادارة الثنـائية وأن يكـون للحاكم العـام أثنـاء هـذه الفتـرة السلطة الدستورية العليا تعاونه لجنـة خماسيـة فيها عضـوان سودانيـان وعضو باكستاني وآخر مصري علاوة على العضو الانجليزي . وتقـرّر تـأليف

جمعية تأسيسية منتخبة لتقرير مصير السودان على أساس أحد الاختيارين :

(أ) ارتباط السودان بمصر على أية صورة .

(ب) أو الاستقلال التام ـ أي الانفصال عن مصر .

كما تقرر أن تنسحب القوات العسكرية المصرية البريطانية من السودان فوراً عندما يعلن البرلمان السوداني عن رغبته في الشروع في اتخاذ التدابير الخاصة بتقرير المصير .

ولا شك أن هذه كانت خطوة جريئة وواعية في نفس الوقت من جمال عبد الناصر . فهي جريئة لأن الرأي العام المصري الذي ردد شعار وحدة وادي النيل لفترة طويلة من الزمن كان ينتظر من قادة الثورة العسكريين أن يكونوا أكثر تشدداً من الملك الذي أعلن ضم الأراضي السودانية الى مملكته .

وكانت هذه الخطوة واعية لأن عبد الناصر بموافقته على أن يكون لشعب السودان الحق في تقرير مصيره ، أثبت أنه يفكر ويتصرف بروح العصر . فقد أراد عبد الناصر لأي رابطة تقوم مع السودان أن تكون منبثقة عن رغبة شعبية وليست استناداً إلى حقوق مكتسبة من التاريخ أو حق الفتح كما كان يطالب البعض . كما رأى عبد الناصر أنه مهما كان اختيار الشعب السوداني فإن هذه الاتفاقية تضمن تصفية الوجود البريطاني في السودان ، وان هذا هو ما كان يريده في المقام الأول . فبقاء القوات البريطانية في القطر الشقيق يهدد أمن وسلامة مصر ولن يكون لجلاء هذه القوات عن مصر معنى حقيقي إذا كانت باقية في السودان .

ورغم أن مصر عملت طوال سنوات فترة الانتقال الثلاث على

محاولة إقناع الشعب السوداني للارتباط بمصر وتحقيق وحدة وادي النيل ، إلا أنها لم تتردد في تأييد استقلال السودان ومباركته عندما أدركت أن هذه هي رغبة الأغلبية العظمى للشعب السوداني . فعندما أبلغت حكومة الأزهري في عام ١٩٥٥ حكومتي مصر وانجلترا برغبة الجمعية التأسيسية في سحب جيش الاحتلال لإجراء الاستفتاء المنصوص عليه في جو حر محايد ، سارعت مصر على الفور بسحب قواتها تاركة أسلحتها الثقيلة هدية لجيش السودان ، واضطر الجيش الانجليزي للرحيل هو الآخر منهياً بذلك احتلاله للسودان . وعندما أعلنت حكومة الأزهري قيام الجمهورية السودانية في ١٩ ديسمبر سنة ١٩٥٥ وتم تشكيل مجلس قيادة لرئاسة الدولة ، دون انتظار لإجراء الاستفتاء المنصوص عليه ، لم تطالب مصر بإتمام هذا الاستفتاء وسارعت بالاعتراف بالجمهورية المستقلة الجديدة التي أعلن استقلالها في أول يناير سنة ١٩٥٦ . وكانت مصر أول دولة اعترفت بالسودان .

والحقيقة أن مصر لم تصر على إجراء الاستفتاء المنصوص عليه في الاتفاقية ، لأنها كانت قد أدركت بما لا يقبل الشك أن نتيجته لن تكون في صالح الارتباط بمصر . فقد كان الحزب الوطني بزعامة الأزهري ـ وهو محور الدعوة للوحدة بين القطرين ـ قد تخلى هو الآخر عن هذه الدعوة ووقف مع الاستقلال . ولذلك أراد عبد الناصر أن يكسب مشاعر الجماهير السودانية وهي تحتفل باستقلالها .

وهكذا فإن مصر وإن كانت قد خرجت من السودان دون أن تحقق الوحدة التي كانت تنشدها إلا أنها كانت قد فتحت أمامها مجال العمل في أفريقيا كلها ، بالتزامها وإخلاصها للمبادىء الأساسية التي قامت عليها سياستها الافريقية بعد ذلك ، وهي تصفية الاستعمار وحق تقرير المصير .

التزام مصر بمسؤوليتها الدولية في الصومال :

كان الصومال من أول البلاد التي اهتم بها عبد الناصر والتزمت مصر بمساعدة الحركة الوطنية بها . ولم يكن ذلك فقط من أجل موقع الصومال الاستراتيجي الهام في القرن الافريقي وفي مواجهة ميناء عدن ، ولا من أجل التكوين الانثروبولوجي للشعب الصومالي الذي يعتبر ـ شأنه في ذلك شأن الشعب الموريتاني ـ همزة الوصل بين عرب أفريقيا وزنوجها ، ولكن كان السبب الأساسي هو مسؤولية مصر الدولية في الصومال حيث كانت تشترك في عضوية المجلس الاستشاري التابع للأمم المتحدة في الصومال .

فقد كان الصومال من الأقاليم الموضوعة تحت وصاية الأمم المتحدة والادارة الايطالية وكانت الأمم المتحدة قد أنشأت هيئة تابعة لها هي « المجلس الاستشاري » منذ عام ١٩٥٠ مكونة من ثلاث دول هي مصر وكولومبيا والفلبين بقصد الاشراف على الادارة في الصومال والتأكد من قيادة البلاد نحو الاستقلال خلال فترة تنتهي في عام ١٩٦٠ ، وكان وجود مصر في هذا المجلس يعتبر شكلياً قبل قيام ثورة يوليو ، فلم يكن لديها القدرة ولا الرغبة في الاصطدام بالقوى الاستعمارية من أجل القوى الوطنية في الصومال .

وتغير وضع مصر في الصومال بعد الثورة المصرية حيث قررت أن تتحمل مسؤولياتها الدولية كاملة مستفيدة من تواجد مندوبها في المجلس الاستشاري هناك فتبنّت وجهة النظر الوطنية وتولت الدفاع عنها وقدمت المشورة السياسية والخبرة القانونية للأحزاب والحركات الوطنية هناك وساعدتها في مقاومة المناورات التي تهدف إلى تأخير تسليم

السلطة للوطنيين ، كما قامت بمقاومة خطط الادارة الايطالية التي كانت تحاول طمس الملامح العربية للصومال .

وكان الصومال في ذلك الوقت يشهد صراعاً عنيفاً بين العديد من القوى الاستعمارية والأجنبية التي أتاحت لها الظروف التواجد في الصومال والاهتمام ـ بحكم مصالحها واطماعها في المنطقة ـ بمستقبل هذا القطر . وكانت هذه القوى رغم تضارب مصالحها تشكل خطراً على الاستقلال الحقيقي للاقليم .

وكان الايطاليون يمثلون أخطر هذه القوى الاستعمارية ، فهم يملكون سلطة الادارة ، كما كانوا يسيطرون عن طريق الشركات الايطالية سيطرة كاملة على اقتصاد الاقليم ، ويملكون معظم الأراضي الخصبة ، ولا يريدون تغيير هذه الأوضاع ، ويخططون لكي تبقى اقتصاديات الاقليم معتمدة على الاقتصاد الايطالي وتحت سيطرة الاحتكارات الايطالية .

وكانت الادارة الايطالية تتباطأ أيضاً في اتخاذ الخطوات اللازمة لتسليم السلطة للصوماليين كما هو مفروض ، مثل إشراكهم في الادارة والتدرج في التمثيل النيابي . وكان هذا التباطؤ يهدف إلى تأجيل موعد الاستقلال . وكان الايطاليون يعملون أيضاً على القضاء على الملامح العربية للاقليم وذلك بإهمال تعليم اللغة العربية وإحضار بعثة تبشيرية كاثوليكية عملت على نشر وتعليم اللغة الايطالية في الصومال . ثم عملت على قيام دعوة من أجل إحياء اللغة الصومالية وكتابتها بالحروف اللاتينية ، كل ذلك من أجل ابعاد الأجيال الصومالية عن مصادر الثقافة العربية وانتزاع أهم الجذور التي يمكن أن تربطهم بالعالم العربي .

أما القوة الاستعمارية الثانية فهي بـريطانيـا التي كانت في ذلـك الوقت تستعمر جزءاً من الأراضي الصومالية وهو ما عرف « بالصومال الانجليـزي » كما كـان نفوذهـا متغلغلاً في الاقليم عن طـريق بعض الشركات التي قامت عندما احتلت بريـطانيا الصـومال الايـطالي عام ١٩٤٢ عقب هزيمتها للايطاليـين أثناء الحـرب العالميـة الثانيـة إلى أن سلمت لهم الادارة مـرة أخـرى عـام ١٩٥٠ بنـاء عـلى قـرار الأمم المتحدة .

وكانت بريطانيا تسعى لإدخال الصومال بعد الاستقلال في رابطة الكـومنولث البـريطانيـة ، وكانت من أجـل ذلـك لا تمـانـع في منـح الاستقلال لإقليم هرجيسة الخاضع لها (الصومال الانجليـزي) على أن يتحد إقليما الصومال في دولة مستقلة واحدة مع بقاء نفوذها بطبيعة الحال في الدولة الجديدة .

وكانت فكرة الاتحاد هذه في حد ذاتها تجد تأييداً شعبياً ساحقاً في الاقليمين . ولكن إيطاليا كانت تعارضه بشدة وكذلك فرنسا الموجودة في إقليم جيبوتي . وكانت بريطانيا بهذا الموقف من الاتحاد تحاول إقامة الجسور بينها وبين حزب الأغلبية في الصومال وهو حزب وحدة الشباب الصومالي .

أما الخطر الثالث الذي واجهه الصومال فكان أثيوبيا التي كـانت تسعى إلى ضم الاقليم إليها بصفتها « الوطن الأم » كما كانت تدعي ، ذلك بعد أن كانت قد نجحت في ضم جـزء من الصومـال هو إقليم الأوجـادين . وكانت الـولايات المتحـدة الأمريكيـة تقف وراء نشـاط أثيوبيا وتدعمه حيث كانت في ذلك الوقت تتخذ من أثيوبيا قاعدة لها وأداة لتنفيذ سياستها الافريقية وخاصة في هذه المنطقة الاسلامية والتي

كان يحلو لأثيوبيا أن تصف نفسها فيها بأنها جزيرة مسيحية تحيط بها شعوب إسلامية من كل جهة .

ورغم تعارض أهداف هذه القوى الأجنبية الاستعمارية في الصومال ، إلا أنها جميعها كانت متفقة على ضرورة القضاء على الملامح العربية الصومالية . كما كانت تتفق في حماسها لإيجاد علاقة اقتصادية بين الصومال وإسرائيل التي كانت قد أقامت مجزراً آلياً في جيبوتي وأنشأت شركات في أثيوبيا أهمها شركة انكودا التي كانت تسعى لأن يمتد نشاطها إلى الصومال تمهيداً لإقامة علاقات سياسية مع إسرائيل بمجرد استقلاله .

وقد ساعد تعدد الأحزاب الصومالية (وصل عددها إلى ١٩ حزباً في وقت من الأوقات) على أن يكون لكل من هذه القوى الأجنبية المهتمة بشؤون الصومال ، الحزب أو الأحزاب المؤيدة لها . فكانت إيطاليا تعتمد على حزب المؤتمر الصومالي والحزب الديموقراطي أما أثيوبيا فكان لها حزب شباب الصومال الأحرار .

ووسط هذا الصراع العنيف لهذه القوى التي كانت تتآمر على مصالح الشعب الصومالي جاءت مصر بعد الثورة لتلعب دوراً تاريخياً في مساندة القوى الوطنية في الصومال في نضالها من أجل الاستقلال الحقيقي والاحتفاظ بمقومات الشخصية الصومالية بجذورها العربية الافريقية الاسلامية . واستندت مصر في نشاطها إلى وضعها القانوني في المجلس الاستشاري الذي كان يعطيها حق محاسبة الادارة الايطالية عن طريق الأمم المتحدة كما أعطاها ذلك حق الوجود في مقديشو والاتصال بكافة الهيئات والتنظيمات السياسية في الصومال وتقديم المساعدة لها .

وتبنت مصر وجهة نظر الأغلبية الساحقة في الصومال التي كانت تـريد الاستقـلال الكامـل ووحدة جميـع الأراضي الصومـالية . وهـو ما ترمز له النجمة الخماسيـة التي تتوسط العلم الصـومالي إشـارة إلى الصومالات الخمسة في ذلك الوقت (الايطالي والانجليزي والفرنسي والاثيوبي والكيني) كما كانت هذه الأغلبية تطالب باللغة العربية لغـة رسمية للبلاد ، فالشعب الصومالي شعب مسلم يعرف معظمه اللغـة العربية .

وقد قدمت مصر مساعدات كثيرة للصومال في هذا المجال وذلك بإمداد المدارس العربية التي كانت تفتحها الجمعيات والأحزاب الوطنية بالمدرسـين المصريـين والكتب العربيـة . كما أعـطت الكثير من المنـح الدراسية في المدارس والمعاهد والجامعات المصرية لأبناء الصومال كـما فتح الأزهر أبوابه لاعداد هائلة من الصوماليين وأرسل بعثة أزهرية إلى الصومال كان أعضاؤ ها يخطبون في الجوامع بجانب رسالتهم التعليمية وكان لهؤلاء أثر عظيم في تعبئة الشعور الوطني هناك وتوجيهه لمقاومـة الاستعمار .

وفي الوقت الذي توطدت فيه العلاقة بين مصر وحزب الأغلبية في الصومال « حـزب وحدة الشبـاب الصومـالي » نتيجة تبنيهـا للقضايـا الرئيسية التي تضمنها برنامج هذا الحزب ، لم تهمل مصر بقية الأحزاب والتنظيمات والزعماء الدينيين وحتى تجـار الماشيـة الذين كـانوا يمثلون مركزاً هاماً من مراكز التأثير الشعبي . فقد عملت مصر عـلى استيراد جزء كبير من احتياجاتها من الماشية من الصومـال ، الأمر الـذي ربط مصالح هؤلاء التجار بالقاهرة وجعلهم يترددون عليها كثيراً .

وبمرور الوقت تعاظم نفوذ مصر في مقديشو لوقوفها باستمرار مع القوى الوطنية ولاقتناع الغالبية العظمى للشعب الصومالي بأنها الدولة

الوحيدة بين القوى المتصارعة في الصومال التي قبلت الدخول في هذا الصراع دون أن تكون لها أطماع ذاتية وخاصة بعد أن وضحت سياسة عبد الناصر المناهضة للاستعمار . وأصبح المندوب المصري في مقديشو مصدراً مستمراً لإزعاج القوى الاستعمارية وخاصة الادارة الايطالية التي يملك المندوب محاسبتها باسم الأمم المتحدة بحكم وجوده في المجلس الاستشاري .

وفي مارس سنة ١٩٥٧ اغتيل المندوب المصري كمال الدين صلاح وكان من أكفأ العناصر الدبلوماسية وجاء ذلك على يد أحد الصوماليين . ورغم أن التحقيق لم يصل إلى نتيجة حاسمة فإن أصابع الاتهام كلها كانت تشير إلى الادارة الايطالية التي كانت تريد تصفية الوجود المصري بعد أن كانت قد ضاقت بنشاط المندوب المصري هناك .

وقد كلفت عقب هذا الحادث بالسفر إلى مقديشو لدراسة الحالة هناك ومتابعة التحقيق في مقتل المندوب المصري . وأقمت في دار المندوب وقمت باتصالات واسعة مع جميع العناصر الوطنية هناك متعمداً إظهار حجم هذه الاتصالات أمام الادارة الايطالية . كما قمت بنشاط واسع بين الجماعات الدينية والتقيت بالجموع الصومالية في الجوامع والجمعيات وأماكن التجمع . وكان الغرض من ذلك هو تأكيد دور مصر وإظهار إصرارها على المضي في تحمل مسؤ وليتها التاريخية كاملة . ولم يمض على وجودي في مقديشو أكثر من بضعة أيام حتى أبلغت الادارة الايطالية القنصل المصري هناك بأنني أصبحت شخصية غير مرغوب فيها وطلبت أن أغادر مقديشو في ظرف ٤٨ ساعة .

وانتشر الخبر في جميع أنحاء المدينة فتوافد على محل إقامتي أعداد

كبيرة من الوطنيين الصوماليين والسياسيين من أصدقاء مصر ومن المؤمنين بأهمية الدور المصري في الصومال ووقوفه في مواجهة الادارة الاستعمارية ، وكانوا جميعاً في أشد حالات السخط على الادارة الايطالية ولكنهم يترقبون ما سوف تسفر عنه هذه المواجهة .

أما في القاهرة فقد استدعي السفير الايطالي إلى وزارة الخارجية بناء على تعليمات الرئيس جمال عبد الناصر ، وأخطره السيد عبد الفتاح حسن نائب وزير الخارجية وقتئذٍ أن السفير الايطالي نفسه سوف يعتبر شخصية غير مرغوب فيها وسيكون عليه مغادرة القاهرة فوراً إذا لم ترجع الادارة الايطالية في مقديشو عن قرارها الخاص بإبعادي . واضطرت الادارة الايطالية إلى التراجع عن قرارها في ذلك الحين وبقيت في مقديشو لفترة أخرى ومارست نشاطاً أوسع . وكان هذا بطبيعة الحال تعزيزاً لموقفنا هناك أمام الوطنيين الذين عرفوا أن مصر تستطيع أن تقف أمام النفوذ الايطالي .

وبعد عودتي إلى القاهرة كان قرار عبد الناصر بتدعيم البعثة التعليمية المصرية في الصومال ، وزيادة أفراد القنصلية المصرية في مقديشو ، كما عين مندوباً جديداً هو الدكتور محمد حسن الزيات . واستمرت مساعدة مصر للقوى الوطنية في الصومال بعد أن تضاعف حجمها . كما استأنف المندوب المصري الجديد نشاطه بنفس الحماس والاخلاص الذي بدأه سلفه إلى أن استقل الصومال في الموعد الذي سبق أن حددته الأمم المتحدة وهو عام ١٩٦٠ .

وقد فشلت كل الجهود التي بذلت لإيجاد علاقة تجارية أو اقتصادية بين الصومال وإسرائيل . كما فشلت جهود بريطانيا في إدخال الدولة الجديدة في رابطة الكمنولث البريطاني رغم خروج الانجليز من إقليم هرجيسه الذي انضمّ إلى الدولة الجديدة وأصبح جزءاً منها .

وقد وجهت الادارة الايطالية الدعوة لإسرائيل لحضور الاحتفال بالاستقلال ، ولكنها اضطرت إلى إلغاء هذه الدعوة بعد احتجاجات كثيرة من الهيئات والتنظيمات والأحزاب الصومالية كانت تنذر بتطورات خطيرة رأت الادارة الايطالية تجنبها .

وقد امتدت العلاقات القوية بين مصر والصومال إلى ما بعد الاستقلال وهذا ما سوف نعود إليه في مكان آخر . ومما لا شك فيه أن المساعدات التي قدمتها مصر للصومال خلال فترة ما قبل الاستقلال ومواقفها مع القوى الوطنية هناك قد جعلت لمصر رصيداً هائلاً في الصومال لا يمكن إدراكه إلا لمن تهيأت له الفرصة لزيارة هذا البلد الشقيق ، ولمس مدى تحمس الشعب الصومالي للصداقة المصرية الصومالية وتقديره لثورة يوليو المصرية وارتباطه الوجداني بها .

ورغم أن انضمام الصومال بعد ذلك إلى الجامعة العربية قد جاء دون شك تتويجاً لهذه العلاقة الخاصة التي قامت بين مصر والصومال منذ الثورة المصرية ، إلا أنه يجدر الاشارة هنا إلى أن عبد الناصر لم يحاول جر الصومال إلى الانضمام إلى الجامعة العربية بل أنه في حديثه مع الزعماء الصوماليين كان دائماً ينصح بتأجيل هذا الموضوع حتى تنضج وتكتمل الفكرة داخلياً وحتى تتهيأ لها الظروف المناسبة أفريقيا . فقد كان يرى أنه من الضروري للصومال أن يدعم علاقته بدول شرق أفريقيا أولاً وخاصة تنزانيا وكينيا قبل اتخاذ مثل هذه الخطوة لأن الصومال كان يعيش في شبه عزلة سياسية فرضت عليه . فقد ورث الصومال المستقل مشاكل حادة مع جيرانه أثيوبيا وكينيا نتيجة أوضاع سابقة خلقتها السلطات الاستعمارية قبل رحيلها ، وكان ذلك هو السبب في عدم اندماج الصومال بالقدر الكافي مع دول شرق أفريقيا . وكان عبد الناصر يعتقد أن انتماء الصومال إلى الجامعة العربية قبل أن

يـدعم علاقتـه بدول شـرق أفريقيـا قد يـزيد التنـاقض الموجـود بين الصومال وهذه الدول ويزيد من متاعبه مع الدول المجاورة .

مصر تؤيد حركة الماوماو في كينيا :

كانت كينيا في مقدمة الأقطار التي استطاعت الثـورة المصريـة أن تتصل بالحركة الوطنية فيها وتؤيدها وتدعمها وتقيم أوثق الصلات مع زعمائها وعلى رأسهم جومو كينياتا .

فقد بدأت ثورة الماو مـاو بعد ثـلاثة أشهـر فقط من قيام الثـورة المصرية عندما أعلن الانجليز حالة الطوارىء في كينيا في أكتوبـر سنة ١٩٥٢ . وقامت حركة الماو ماو بين قبـائل الكيكـويو والمسـاي الذين طردهم المستعمر الانجليزي من أرضهم ليعيشوا في أحيـاء قذرة عـلى هامش المدن يعانون من البطالة والحرمان من أي حق في حياة كريمة .

وقد حاول الأوروبيون تصوير هذه الثـورة على أنها حـركة دينيـة وانها حـركة ارتـداد إلى التوحش تتـطلب منهم البقاء في كينيـا لإعادة الافريقيين وقيادتهم إلى حياة التمدين .

وكان هذا كله أبعد ما يكون عن الحقيقة ، فأصل المشكلة يرجع إلى وقت إنشاء الانجليز للخط الحديدي بين ممبسة عـلى ساحـل كينيا وكمبالا في أوغندا مارا بنيروبي عـاصمة كينيـا . وكان هـذا الخط يمر بأخصب الأراضي في كينيا وهي ما عرف بـالأراضي العاليـة « High Lands » والتي كان يسكنها قبائل الكيكويو والمساي وهي قبائل شديدة البأس عرفت بقدرتها الفائقة على القتال .

وقـد قام الحـاكم الانجليزي في ذلـك الـوقت (سـير شـارلـوت اليوت) بدعوة عدد من العـائلات الانجليـزية الغنيـة الارستقراطيـة

وأغراهم بالاقامة في كينيا وتملك هذه الأراضي العالية . وكان هدفه الأساسي حماية الخط الحديدي من تخريب القبائل المعادية . ثم أصدر أمراً بطرد القبائل الافريقية من هذه المناطق ثم أعلن أن كينيا أصبحت بلاد الرجل الأبيض .

وكان الافريقيون المطرودون من هذه الأرض يذهبون للإقامة في مناطق خصصت للافريقيين خارج هذه الأراضي أشبه بالمستودعات البشرية . وأصبح هؤلاء الذين لم يجدوا أماكن في هذه المناطق المزدحمة جداً ، عبيداً في الأرض التي يمتلكها البيض ، وأصبح هناك حوالي ربع مليون من هؤلاء العبيد . وكان يسمح لهم بزراعة ما يقتاتون به فقط مقابل تسخيرهم هم وعائلاتهم للعمل في أرض الملاك البيض . وكان عقد العمل لهؤلاء يحرر لمدة من سنة إلى خمس سنوات وإذا بيعت الأرض ينتقل عقد العمل إلى المالك الجديد ومن يهرب منهم يمكن اعتقاله وسجنه . ولزيادة سلطان أصحاب العمل على مستخدميهم كان مفروضاً على كل أفريقي بحكم القانون أن يحمل تصريح عمل . وكان هذا كله مناقضاً لعهود أخذتها بريطانيا على نفسها لضمان حقوق الافريقيين وجعل مصلحتهم هي المصلحة العليا .

وفي عام ١٩٥٠ قام زعماء اتحاد كينيا الافريقي الذي كان يرأسه جومو كينياتا بحملة لجمع توقيع مليون شخص أفريقي لعرض قضيتهم على البرلمان الانجليزي . ثم أرسلوا مندوبين اثنين عنهم يحملان هذه التوقيعات . ولكن لم يغير ذلك شيئاً من سياسة بريطانيا في جعل كينيا منطقة استيطان للرجل الأوروبي على غرار جنوب أفريقيا .

ومن أجل ذلك قامت حركة الماو ماو وكانت أساساً من أجل الأرض . وقبض على جومو كينياتا ومعه عشرون آخرون في أكتوبر

سنة ١٩٥٢ ، وقدموا إلى المحاكمة التي استمرت تسعين يوماً حكم عليه بعدها بالسجن سبع سنوات مع الأشغال الشاقة . وبعد شهرين من الحكم تم حل اتحاد كينيا الافريقي بحجة أن تنظيم الماو ماو استخدم هذا الاتحاد كغطاء لتنفيذ عمليات العنف والقتل التي قام بها ضد البيض .

واستغل الانجليز هذه الأحداث وشنوا حملة إرهابية كان هدفها المضي في تحويل كينيا بالفعل إلى بلد الرجل الأبيض على غرار جنوب أفريقيا وتبني سياسة مماثلة ، واستغلت السلطات قانون الطوارىء الذي كان قد صدر في سبتمبر لتصبح عمليات القمع هذه عمليات حربية وصفها الانجليز أنفسهم وقتها بأنها أكبر حرب استعمارية في أفريقيا منذ حرب البوير . تجمع أكثر من ثلاثين ألفا من القوات البريطانية لمساعدة البوليس المحلي في كينيا ، وأصبحت هذه القوات في حالة حرب بالفعل مع ما أطلق عليه الأفريقيون « جيش الكيكويو لتحرير الأرض » واستخدم الانجليز المدفعية والطيران في ضرب عناصر الماوماو في الجبال التي تحصنوا بها وذلك لطردهم من هذه المناطق باعتبارها محرمة عليهم .

عمليات القمع والابادة :

وقد وصل إجمالي الخسائر المعلنة في ٢٧ يناير ١٩٥٥ من واقع الاحصائيات الانجليزية ٧٨٠٠ قتيل من أفراد الماوماو ، ٧٩١ حكم عليهم بالاعدام ونفذ فيهم الحكم . وهذه الخسائر لا تشمل خسائر القذف بالطائرات والمدفعية . كما كان هناك ٧٠٠٠ أفريقي في معسكرات الاعتقال والسجون . وتم طرد ٦٠٠,٠٠٠ من أفراد الكيكويو من أرضهم وتم تحطيم ١٥٠,٠٠٠ كوخ من أكواخهم .

كانت عمليات القمع والقتل والابادة التي تقوم بها السلطات البريطانية ضد ثوار الماوماو تجسيداً لذلك الصراع الذي ذكره عبد الناصر في كتابه « فلسفة الثورة » والذي قال فيه : « اننا لن نستطيع بحال من الأحوال حتى لو أردنا أن نقف بمعزل عن الصراع الدامي الذي يدور في أعماق أفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتي مليون من الافريقيين » .

وتبنت مصر قضية الوطنيين في كينيا ، فقامت بحملة إعلامية ودبلوماسية مركزة ضد هذه الأعمال الوحشية . وخصصت إذاعة موجهة باللغة السواحيلية باسم « صوت أفريقيا » إلى شعب كينيا وشعوب المنطقة الناطقة بهذه اللغة هاجمت فيها الاستعمار البريطاني بعنف شديد وحملته مسؤولية كل أعمال العنف والابادة ، وكشفت عن مخطط بريطانيا لجعل كينيا وطناً للرجل الأبيض . وقد بدأت هذه الاذاعة كإذاعة سرية في أول الأمر. وكان مقرها في إحدى الثكنات بمنشية البكري ، وتتبع رئاسة الجمهورية مباشرة . ثم انتقلت بعد ذلك إلى الاذاعات الموجهة بالاذاعة المصرية ولكن تحت إشراف الشؤون الافريقية برئاسة الجمهورية .

وكانت تصلنا منذ البداية أخبار دقيقة عن أعمال القمع والتفرقة التي يقوم بها الانجليز في كينيا . ـ كانت تحصل عليها المخابرات المصرية ـ . الأمر الذي جعل من إذاعة صوت أفريقيا شيئاً حياً بالغ التأثير . فقد كانت هذه هي أول إذاعة باللغة السواحيلية تصدر من أفريقيا ، وتتبنى قضايا الأفارقة وتتكلم باسمهم وتهاجم الاستعمار والتفرقة العنصرية وتدعو إلى الثورة الشاملة باسم أفريقيا وشعوبها . واستطاعت هذه الاذاعة أن تقدم العديد من الأناشيد الحماسية باللغة السواحيلية ، بعد أن وضعت في ألحان جيدة يؤديها ويؤلف كلماتها

بعض الطلبة الكينيين الموجودين في القاهرة ، كانت قد اكتشفت فيهم هذه الموهبة .

وجعلت مصر من قضية الماوماو وقضية الافراج عن جومو كينياتا قضية أفريقيا كلها . وجعلت الافراج عنه مطلباً على مستوى القارة الافريقية كلها . وربما كانت هذه أول قضية أفريقية تأخذ هذا الطابع على مستوى القارة ، وكان الفضل في ذلك لمصر .

وأدت بطبيعة الحال هذه الحملة وهذا التأييد إلى توثيق الصلة مع الحركة الوطنية في كينيا . . وكانت القاهرة أول عاصمة تفتح أبوابها للزعماء الكينيين الوطنيين ، وتمدهم بكل المساعدات الممكنة لتنشيط حركتهم في داخل كينيا ، وكذلك توصيل صوتهم إلى العالم الخارجي والمحافل الدولية ، في الوقت الذي كان الانجليز يحرمون أي نشاط سياسي في كينيا .

وبعد أن سمح بقيام الأحزاب السياسية في كينيا ، كانت القاهرة أول مكان خارج كينيا تفتح فيه هذه الأحزاب مكاتب دائمة لها ، وكانت الأحزاب الكينية التي فتحت لها مكاتب في القاهرة هي : حزب الاتحاد الوطني الافريقي الكيني « K. A. N. U. » وحزب الاتحاد الديموقراطي الكيني « K. A. D . U . » وكانت هذه المكاتب تعمل كحلقة اتصال بين تنظيماتها في الداخل وبين القاهرة . كما اعتبرت أيضاً نافذة هذه التنظيمات على العالم الخارجي .

وقد تردد على القاهرة خلال هذه الفترة معظم زعماء كينيا المعروفين ، من أمثال أوجنجاأودنجاونجاالا ، وتوم مبويا وجيمس جيشور وجوزيف مورمبي وغيرهم كثيرون . وكان عبد الناصر يلتقي بهؤلاء الزعماء كلما حضروا إلى القاهرة .

الاذاعات الافريقية الموجهة من القاهرة :

لقد صادفت الاذاعة الموجهة باللغة السواحيلية إلى كينيا نجاحاً كبيراً وكان تأثيرها عظيماً في داخل كينيا ، واذكر أنه في أول لقاء لي مع جومو كينياتا وكان ذلك بعد خروجه من السجن بأسابيع قليلة ـ قال ان هذه الاذاعة لعبت دوراً خطيراً في كينيا وانه كان يستمع وهو في سجنه إليها وكان يستدعي حراسه ليستمعوا معه إلى صوت أفريقيا من القاهرة وانها كانت تعطيه في كل مرة يستمع إليها شحنة معنوية كبيرة كما كان يندهش لدقة الأخبار والسرعة التي تنتقل بها هذه الأخبار . وكانت هذه أول إذاعة توجهها القاهرة إلى أفريقيا بلغة أهلها ـ إذا استثنينا الاذاعات التي كان يوجهها راديو القاهرة من قبل إلى جنوب السودان باللهجات الأربع الرئيسية هناك .

وقد وجهت القاهرة بعد ذلك العديد من الاذاعات باللغات واللهجات الافريقية على غرار الاذاعة السواحيلية . فكانت تذيع إلى غرب أفريقيا بلغات الهوسا واليوربا والبامبرا والولوف ، وإلى وسط أفريقيا بلغات النيانجا والشونا والسندبيلي واللنجالا ، وإلى جنوب أفريقيا بلغة الزولو وإلى شرق أفريقيا بالصومالية والسواحيلية والتجرينية وغيرها من لغات ولهجات أفريقية كثيرة علاوة على اللغات المستخدمة رسمياً في مناطق أفريقيا وهي الانجليزية والفرنسية والبرتغالية والاسبانية والعربية . وكان وراء إنشاء كل إذاعة من هذه الاذاعات قصة ترتبط بتأييد حركة جديدة أو ثورة جديدة ومساعدات مصرية تمتد إلى المجالات الأخرى خلاف هذا المجال الاعلامي وفي حالات معينة كانت تخصص الاذاعة الموجهة أو جزء منها لتذيع باسم حركة أو تنظيم . حدث ذلك أثناء ثورة الكونغو كما حدث بالنسبة

لروديسيا الجنوبية بعد إعلان الاستقلال من جانب النظام العنصري هناك ، وكذلك بالنسبة لموزمبيق فقد أعطيت إذاعة لحزب فريليمو (الحزب الحاكم حالياً) وذلك بعد أن وصلت الثورة هناك إلى مرحلة متقدمة بقيادة هذا التنظيم .

وكانت هذه الاذاعات بالاضافة إلى معالجتها للموضوعات التي تخص كل إقليم تنقل إلى شعوب أفريقيا أخبار الثورات والحركات الوطنية المختلفة في جميع أنحاء القارة من الجزائر إلى كينيا إلى روديسيا وانجولا وجنوب أفريقيا باعتبار أن ذلك يدخل كله في نطاق الثورة الافريقية الشاملة ضد الاستعمار والتبعية كما كانت تنقل بطبيعة الحال صورة لما يدور على أرض مصر وأخبارها وسياستها .

وقد استطاعت هذه الاذاعات بجانب مساهمتها الايجابية في الثورة الافريقية أن تنقل إلى مستمعيها في كل أنحاء القارة الافريقية الاحساس بأن مصر هي بحق جزء من القارة الافريقية ان لم تكن قد أصبحت بالفعل قلبها النابض وقاعدة التحرير فيها .

الثورة الجزائرية وتصفية الامبراطورية الفرنسية :

لقد كان لوقوف الثورة المصرية بجانب ثورة الجزائر والمساعدة والتأييد الكامل الذي أعطاه عبد الناصر لهذه الثورة أثره الكبير في جذب حركات تحرير أفريقية جديدة إلى القاهرة بعد أن اتخذت الثورة الجزائرية من القاهرة قاعدة أساسية لكي تنطلق منها .

ومما لا شك فيه أن نجاح الثورة الجزائرية كان عاملاً أساسياً في تصفية الاستعمار الفرنسي من أفريقيا . فعندما قامت هذه الثورة عام ١٩٥٤ كانت الجزائر بنص الدستور الفرنسي جزءاً من الأراضي الفرنسية فيما وراء البحار وكان للجزائر أهمية خاصة لدى فرنسا أولاً

لكثرة عدد الأوروبيين المستوطنين (حوالي مليون وربع) أصبح خمس أسداسهم من مواليد الجزائر نفسها لا يتصورون وطناً آخر لهم غيرها . وثانياً لقربها من فرنسا وثروتها الضخمة التي يمتلك معظمها المستوطنون الأوروبيون ، هذا بالاضافة إلى عامل خاص جعل فرنسا تستميت في محاولة الاحتفاظ بالجزائر كأرض فرنسية ألا وهو الطريقة المهينة التي خرج بها الجيش الفرنسي من الهند الصينية بعد هزيمة « ديان بيان فو » وحرص فرنسا على ألا تفقد هيبتها في أفريقيا كما فقدتها في آسيا .

كانت الجزائر نموذجاً للاستعمار الاستيطاني في أفريقيا ولا يفوقها في ارتفاع نسبة الأوروبيين إلى السكان الأصليين سوى جنوب أفريقيا (النسبة في جنوب أفريقيا ١ :٣ وكانت في الجزائر ١ : ٨) وكان الافريقيون ينظرون إلى هذا النوع من الاستعمار على أنه أبشع أنواع الاستعمار وأكثرها شراسة في مقاومة الحركات الوطنية والتحررية . فقد كانت التجربة مماثلة في المجازر التي واجهتها حركة الماوماو في كينيا . وكانت نماذج هذا الاستعمار الاستيطاني موجودة في روديسيا وجنوب أفريقيا وجنوب غرب أفريقيا بالاضافة إلى كينيا . لذلك كان للثورة الجزائرية معنى وأهمية خاصة لدى الوطنيين الافريقيين في هذه الأقاليم بالاضافة إلى كل المستعمرات الفرنسية والبرتغالية في أفريقيا حيث كانت كل من فرنسا والبرتغال تعتبرها امتداداً لأراضيها فيما وراء البحار وكانت الثورة الجزائرية بالنسبة لهؤلاء جميعاً هي ثورة على هذه الأوضاع جميعها : ثورة على الاستعمار الاستيطاني وثورة على فكرة امتداد الدولة الاستعمارية إلى ما وراء البحار .

وعندما تصاعدت المقاومة الجزائرية ووصل عدد القوات الفرنسية في الجزائر إلى ٤٠٠,٠٠٠ وهو أكبر عدد من القوات اشتركت به فرنسا في حرب استعمارية ، ظهرت الأصوات المؤثرة داخل فرنسا نفسها

تنادي بضرورة تطوير نظام الحكم في المستعمرات الفرنسية وتهيئتها للحكم الذاتي قبل أن تندلع فيها الثورة على غرار ما حدث في الجزائر .

وأرادت الحكومة الفرنسية التي كان يرأسها وقتئذٍ جي موليه أن تسبق الأحداث فأعدت في عام ١٩٥٦ دستوراً جديداً عرف باسم « Loi-Cadre » يسمح بتشكيل حكومات أفريقية في المستعمرات الفرنسية ولكن مع وجود حاكم عام فرنسي تعينه باريس في كل اقليم . وكان هذا تطوراً هاماً في المستعمرات الفرنسية نحو الحكم الذاتي . وبدأ تطبيق هذا القانون في أقاليم أفريقيا الغربية وأفريقيا الفرنسية الاستوائية في أوائل عام ١٩٥٧ .

أما في الجزائر فقد ترتب على هذا القانون نتائج خطيرة . ففي ١٣ مايو سنة ١٩٥٨ قام المستوطنون الأوروبيون في الجزائر بإضراب عام احتجاجاً على هذا القانون الذي اعتبروه هزيمة سياسية لهم وديان بيان فو جديدة لفرنسا لأن القانون كان يقسم الجزائر إلى مناطق ، وبشكل يوحي أن هناك فكرة لتقسيم الجزائر ، وصحب هذا الاضراب تمرد الجيش الفرنسي هناك . وكادت تشتعل الحرب الأهلية في فرنسا نفسها بسبب هذه الأحداث التي أدت في النهاية إلى سقوط الجمهورية الفرنسية الرابعة .

وأتى ديجول إلى الحكم في يونيو سنة ١٩٥٨ وكان يريد أن يضمن استقرار الأوضاع في المستعمرات الافريقية حتى تستطيع فرنسا تركيز جهودها لمواجهة الموقف في الجزائر .

وتقدم ديجول بمشروع دستور جديد يقوم بموجبه اتحاد فيدرالي بين فرنسا وبين مستعمراتها (أفريقيا الغربية وأفريقيا الفرنسية الاستوائية) التي سوف تعطى حق إدارة شؤونها الداخلية . ويقضي المشروع بأن

يطرح هذا الدستور للاستفتاء الشعبي في المستعمرات ، فإذا كانت النتيجة بالايجاب يدخل الاقليم في عضوية ما سمي بالمجتمع الفرنسي ويصبح عضواً في اتحاد فيدرالي مع فرنسا ، أما إذا كان التصويت بلا فيعتبر الاقليم بصفة أوتوماتيكية في حكم المنفصل عن المجتمع الفرنسي ويمكنه الاستقلال فوراً ولكن « عليه أن يتحمل تبعة ذلك » وقد جاء هذا النص على لسان ديجول نفسه وهو يدعو لمشروعه الجديد للمجتمع الفرانكو أفريقي .

وقد أثارت هذه الفقرة الأخيرة غضب سيكوتوري واعتبرها ماسة بكرامة شعبه لما تحمله من معنى التهديد من جانب فرنسا للاقليم الذي يختار الاستقلال . وأعلن سيكوتوري رفضه لدستور ديجول وكان ذلك في حضور ديجول نفسه في كوناكري عندما التفت سيكوتوري إلى جماهيره وقال كلمته المشهورة : « نحن نفضل الفقر مع الحرية على الثراء مع العبودية » .

وأجري الاستفتاء على دستور ديجول في ٢٨ سبتمبر ١٩٥٨ وجاءت النتيجة بالموافقة في جميع المستعمرات الفرنسية فيما عدا غينيا التي صوتت ضد الدستور .

وقد كانت الجزائر التي يسيطر عليها المستوطنون الأوروبيون من بين من وافقوا على دستور ديجول . وقد جاء رد جبهة التحرير الجزائرية على ذلك بأن أعلنت « الحكومة المؤقتة لجمهورية الجزائر » برئاسة فرحات عباس . واتخذت من القاهرة مقراً لها واعترفت بها مصر على الفور .

وأعلن استقلال غينيا في ١٢ أكتوبر ١٩٥٨ واعتبر ديجول موقف سيكوتوري تحدياً له ولفرنسا وكان مصمماً على أن يجعل منه ومن غينيا

أمثولة لكل من تحدثه نفسه بعد ذلك بالتفكير في الاستقلال والخروج عن المجتمع الفرنسي الذي سيقام على هذا الدستور . وباشر ديجول جميع أنواع الضغوط الاقتصادية والسياسية ضد غينيا وسيكوتوري ، ولكن محاولاته باءت كلها بالفشل وأصبح استقلال غينيا بفضل تصميم سيكوتوري وقدرة شعب غينيا على المقاومة والصمود ، وللمساعدات والتأييد الذي حصلت عليه غينيا من الدول التقدمية . وكان هذا مولد دولة ثورية تقدمية جديدة في أفريقيا . وكان من الطبيعي أن تنشأ علاقة متينة وخاصة بين مصر وبين غينيا الثورية وأن تتوطد العلاقة بين عبد الناصر وسيكوتوري وهذا ما سوف نتعرض له في غير هذا المكان .

لم تنجح خطة ديجول في إنشاء الاتحاد الفيدرالي بين فرنسا ومستعمراتها فلم يجتمع المجلس التنفيذي للاتحاد سوى سبع مرات في المدة من فبراير ١٩٥٩ إلى مارس ١٩٦٠ . كما لم يجتمع برلمان الاتحاد إلا مرتين : الأولى عند إنشائه والثانية في يونيو سنة ١٩٦٠ لإنهاء الاتحاد . واضطر ديجول إلى تعديل الدستور ليسمح باستقلال دولتين كانتا قد تقدمتا رسمياً بطلب الاستقلال وهما مدغشقر واتحاد مالي (الذي كان قد تكون من الاتحاد بين السنغال والسودان الفرنسي) وحصلت الدولتان على استقلالهما في يونيو ١٩٦٠ . ثم استقلت دول الوفاق الأربعة (داهومي ـ النيجر ـ فولتا العليا وساحل العاج) في شهر أغسطس وانتهى الأمر باستقلال جميع أقاليم أفريقيا الفرنسية الغربية وأفريقيا الاستوائية ، وتقدمت فرنسا للأمم المتحدة في سبتمبر سنة ١٩٦٠ تطلب بنفسها العضوية لاثني عشرة دولة أفريقية .

وقد ذهب بعض الأفارقة إلى حد وصف ديجول بأنه محرر أفريقيا . ولكن الحقيقة أن السبب الرئيسي في تحول سياسة ديجول الافريقية هو

تطور الحرب في الجزائر واقتناعه بأن فرنسا غير قادرة على إنهاء هذه الحرب عسكرياً وأنه لا سبيل لإنقاذ فرنسا من هذا النزيف إلا باستقلال الجزائر ، كما أدرك أن إنكار الاستقلال على الافريقيين بعد نجاح سيكوتوري في تحقيق استقلال غينيا سوف يورط فرنسا في حرب جديدة مماثلة لحرب الجزائر حيث كانت حركات التحرير والتنظيمات المعارضة لفرنسا في الأقاليم الفرنسية الأخرى قد بدأت تتجمع في غينيا وغانا خاصة من النيجر وساحل العاج وبدأت تتلقى التدريبات العسكرية وتجمع السلاح استعداداً للمقاومة . ورحبت القاهرة هي الأخرى بهذا الاتجاه واستضافت العديد من زعماء الحركات الوطنية المعارضة في المناطق الفرنسية استعداداً لفتح جبهة جديدة ضد فرنسا تخفف من ضغطها على الجزائر ، ومن هنا جاء التحول في سياسة ديجول لإنقاذ فرنسا وإنقاذ ما تبقى لها من هيبة .

وهكذا فقد لعبت الثورة الجزائرية دوراً خطيراً في تصفية الامبراطورية الفرنسية والقضاء على فكرة امتداد الأراضي الفرنسية في أفريقيا وقد أدى ذلك إلى فتح أبواب الاتصال بيننا وبين حركات التحرير والتنظيمات الثورية في أفريقيا الفرنسية التي لجأ كثير من زعمائها إلى القاهرة للحصول على تأييد جمال عبد الناصر بعد أن عرف دور مصر في مساعدة الثورة الجزائرية ومن أمثال هؤلاء الدكتور فيلكس موميه زعيم حزب اتحاد شعب الكاميرون والزعيم الصومالي محمود حربي وجيبو بكاري زعيم سوابا SWABA في النيجر وغيرهم كثيرون من التنظيمات السياسية والزعماء الدينيين .

وقد استطاعت الثورة الجزائرية منذ البداية أن تقدم نفسها كثورة أفريقية بجانب كونها ثورة إسلامية عربية . وكانت صلتها وثيقة دائماً بالتنظيمات الوطنية في أفريقيا الفرنسية ، الأمر الذي ساهم إيجابياً في

القضاء على ما تبقى من فكرة الفصل بين أفريقيا العربية وأفريقيا السوداء . وقد أقامت حكومة موليه في يناير ١٩٥٧ منظمة فرنسية تختص بإدارة استغلال الصحراء الافريقية باسم المنظمة المشتركة للأقاليم الصحراوية « Organisation Commune de Regions Sahariennes O . C . R . S . » .

وتشمل الصحراء الجزائرية بالكامل وأجزاء صحراوية أخرى من كل من موريتانيا والسودان الفرنسي (مالي حاليا) والنيجر وتشاد . وكان هذا بمثابة إقامة حاجز مادي بين الجزائر في الشمال الافريقي وبين جيرانها في أفريقيا السوداء . ولكن الثورة الجزائرية قاومت هذه الفكرة وأفشلتها كما قاومت هذه الفكرة أيضاً بعض التنظيمات الافريقية الأخرى مثل حزب سوابا « Swaba» بزعامة جيبو بكاري في النيجر وباستقلال هذه الدول الافريقية بأجزائها الصحراوية واستقلال الجزائر بصحرائها كاملة عادت الصحراء تربط بين الجزائر وجيرانها الافريقيين .

عبد الناصر والتضامن الافريقي الآسيوي :

كان مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥ بداية لظهور الدول الافريقية على مسرح السياسة الدولية واتخاذها دوراً إيجابياً بجانب الدول الآسيوية في القضايا العالمية ، فقد تضمن إعلان باندونج الأسس السياسية الفلسفية التي تتمكن بها الدول من العيش مع بعضها في وئام وسلام وإقامة العلاقات العالمية على أساس التعاون على مستوى واحد ليس فيه استغلال اقتصادي أو سيطرة سياسية كما اهتم المؤتمر أيضاً بقضايا التحرر والاستقلال وحق تقرير المصر لكافة شعوب العالم التي عليها أن تعمل على التحرير من السيطرة الاستعمارية والقضاء على العلاقات

الـرأسية القـديمة التي كـانت تتحكم بها مجمـوعة قليلة من الـدول في التوجيه العالمي وفي مستقبل البشرية .

وقد تكونت على أثر مؤتمر باندونج المجموعة الافريقية الآسيـوية في الأمم المتحدة التي أصبحت أكبر مجمـوعة من مجمـوعاتها وبذلـك ظهرت قدرة جديدة لدول أفريقيا في التأثير العالمي ، واستخدمت هذه القـدرة في خدمـة القضايـا الافريقيـة المعروضـة عـلى الأمم المتحـدة والخاصة بتصفية الاستعمار والتفـرقة العنصـرية وقضـايا التحـرر على اختلاف أشكالها .

ولم يحضر باندونج من قارة أفريقيا سوى أربع دول فقط هي مصر وأثيوبيا وليبريا وليبيا بالاضـافة إلى وفـدين حضرا بصفـة مراقبـين هما ساحل الذهب (غانا حالياً) والسودان حيث لم يكونا قد حصلا عـلى استقلالهما بعد . وكان جمال عبد الناصر هو الزعيم الافريقي الذي شد الانتباه في هذا المؤتمر واعتبر الممثل الحقيقي لأفريقيا الجديدة ، أفريقيا الثورة .

ورغم أنه لم يحضر مؤتمر بانـدونج سـوى هذا العـدد القليل من الـدول الافريقيـة إلا أن تجاوب الحـركة الافـريقيـة لفكـرة التضـامن الافريقي الآسيوي كان عظيماً . فقد اعترفـت جميع الدول الافريقيـة التي استقلت بعد ذلك بالمبادىء المعلنة في بانـدونج وأعلنت تمسكهـا بهذه المبادىء . وقد ظهر ذلك جلياً في الاعلان الذي صـدر عن أول مؤتمر للدول الافريقية المستقلة في أكرا في أبريل سنة ١٩٥٨ .

وقد أعقب مؤتمر باندونج مؤتمر آخر عقد في القاهرة في أواخر عام ١٩٥٧ جاء مكملاً له وهو مؤتمر التضامن للشعوب الافريقية الآسيوية الذي ضم عدداً كبيراً من حركـات التحريـر والأحزاب والتنـظيمات السياسية المختلفة في كل من القارتين . وقد بلغ عدد الأقطار الافريقية

التي مثلت في المؤتمر ١٩ قطراً وتولّت مصر مسؤولية الاتصال بالتنظيمات الافريقية المختلفة لحضور هذا المؤتمر . فقد كانت القاهرة قد أصبحت العاصمة السياسية لحركات الاستقلال في القارة والقاعدة الأساسية لتحرير أفريقيا . وكان هذا هو السبب الذي من أجله اختيرت القاهرة مكاناً لانعقاد هذا المؤتمر كما كان أيضاً هو السبب في اختيارها لتكون مقراً للسكرتارية الدائمة لمؤتمر التضامن للشعوب الافريقية الآسيوية .

وهكذا أصبحت القاهرة نقطة الالتقاء بين آسيا وأفريقيا ليس فقط بسبب موقعها الجغرافي ولكن أيضاً بفضل واقعها السياسي ونشاطها الواسع في المجالين الآسيوي والافريقي .

المكاتب السياسية لحركات التحرير الافريقية في القاهرة :

عندما اتسعت دائرة الاتصال بحركات التحرير والحركات الوطنية الافريقية وامتلأت العاصمة المصرية بوفود وممثلي هذه الحركات شجعتهم القاهرة على فتح مكاتب سياسية دائمة على غرار المكاتب التي كانت قد فتحتها جبهة التحرير الجزائرية أثناء الثورة في القاهرة وفي أماكن أخرى بعد ذلك . وتكفلت الدولة بتكاليف الانفاق على هذه المكاتب .

وكان الهدف من فتح هذه المكاتب هو جعلها حلقة الاتصال الدائمة والسريعة بيننا وبين حركات التحرير . كما تتلقى المساعدات المصرية في مختلف الميادين بما فيها المنح الدراسية واستجلاب الطلاب المؤهلين لها . وكانت تقوم هذه المكاتب أيضاً بالدعوة لقضاياها الوطنية بما في ذلك إمداد الاذاعات الموجهة من القاهرة بالمعلومات والاخبار المؤثرة . وعملت هذه المكاتب كنافذة على العالم الخارجي

لحركاتها حيث يسهل الاتصال من القاهرة بأي دولة أو جهة في العالم وتلقي مساعداتها . كما يسهل عمل المؤتمرات الصحفية والاتصال بأجهزة الاعلام العالمية .

وكانت القاهرة بذلك هي أول عاصمة في العالم يتجمع فيها مثل هذا العدد من ممثلي حركات التحرير والحركات الوطنية التي جاءت من جميع أنحاء القارة ومن جميع مناطق الاستعمار في أفريقيا . وكان طبيعياً أن تقوم صلات وتبادل للآراء والخبرة بين هذه الحركات بعضها البعض الأمر الذي لم يكن موجوداً على هذا المستوى من قبل .

وكان بعض هذه المكاتب يمثل تنظيمات سياسية معترفاً بها في بلادها وتمارس نشاطها هناك كالأحزاب السياسية التي كانت موجودة في كثير من المستعمرات الانجليزية مثل كينيا وزنزبار التي كانت أول مكاتب تفتح في القاهرة . وكان البعض الآخر يمثل تنظيمات لا تعترف بها السلطة الاستعمارية ولكنها تمارس نشاطها في الداخل بشكل غير شرعي ويعيش زعماؤ ها كلاجئين سياسيين في الخارج مثل اتحاد شعب الكاميرون (.U . P . C) قبل استقلال الكاميرون ، وحزب المؤتمر الوطني الافريقي ، وحزب مؤتمر ألبان أفريكان (.P. A .C) من جنوب أفريقيا . كما كانت بعض هذه المكاتب تمثل ثورة مسلحة مثل الحركة الشعبية لتحرير أنجولا .M. P. L. A وجبهة تحرير موزمبيق . F. R. E. L. I. M. O.

وكانت هذه المكاتب تمثل أيضاً اتجاهات سياسية وعقائدية مختلفة بعضها ماركسي مثل اتحاد شعب الكاميرون والحركة الشعبية لتحرير انجولا وبعضها يؤمن بالنظم الليبرالية مثل الأحزاب التي كانت في أوغندا وزنزبار قبل الاستقلال .

وكان كثيراً مـا يتواجـد في القاهـرة مكاتب سيـاسية متعـددة من الاقليم الواحد . فكان يوجد على سبيـل المثال مكتب لحـزب الاتحاد الـوطني الافريقي .K.A.N. U ومكتب آخـر لحزب الاتحـاد الـوطني الديموقـراطي .K. A. D. U وكلاهمـا من كينيا وكـذلك حـزب اتحاد شعب أفـريقيا لـزمبابـوي .Z. A. P. U والاتحاد الـوطني الافـريقي لزمبابوي .Z. A. N. U وكلاهما من روديسيا (زمبابوي) .

منهج في التعامل :

ولكن هذه التنظيمات التي فتحت لها القاهرة أبوابها كانت جميعها تشتـرك في أنها تنظيمـات وطنيـة ذات فـاعليـة في بـلادهـا وتنـاهض الاستعمـار وتعمل من أجـل الاستقلال الـوطني . وكـانت هـذه هي الشروط لقبول أي حركة وطنية ومساندتها بغض النـظر عن برنـامجها وأسلوبها لتحقيق ذلك . وكـان مجرد اعتـراف القاهـرة بتنظيم حـركة أفريقية ما ووجود مكتب لهذه الحركة في القاهرة يفتح لها مجال التعامل مـع الدول التقـدميـة الأخـرى لأن في ذلـك الـدليـل عـلى جـديتهـا ووطنيتها .

وقـد التزمت القـاهرة في جميـع مراحـل تعاملهـا مـع الحـركـات والتنظيمات الوطنية في أفريقيا بعدم التدخل في شؤونها الداخلية بأي حال من الأحوال أو محاولة فرض أشخاص أو أبعاد آخرين ، ولذلك احتفظنا بعلاقات طيبة مع جميع هذه التنـظيمات . فقـد كان الهـدف الأساسي في هذه المرحلة هو مقاومة الاستعمـار التقليدي وتصفيتـه . وكان المتبع هو وقف نشاط هذه المكاتب بمجـرد حصول الـدولة عـلى استقـلالها . فـإذا كان النـظام الحاكم هو صاحب التمثيل في المكتب السيـاسي الموجـود من قبل في القـاهرة ، كـان يستبدل هـذا التمثيل

بسفارة الدولة الجديدة كما حدث في كثير من الحالات مثل زامبيا وزنزبار . أما إذا كان المكتب الموجود في القاهرة يمثل تنظيماً آخر فيوقف نشاطه فوراً مع الاحتفاظ بحق أعضائه في البقاء في القاهرة كلاجئين سياسيين إذا كانت عودتهم تشكل خطورة على حياتهم ولكن بشرط وقف نشاطهم السياسي تماماً .

وفتحت القاهرة أبوابها للاجئين من الزعماء السياسيين الافريقيين من المناطق المستعمرة ووفرت لهم كل وسائل العمل ضد الاستعمار .

وهكذا تجمعت خيوط الثورة الافريقية في القاهرة التي أصبحت السند الأول والقاعدة الأساسية لهذه الثورة .

الرابطة الافريقية :

أنشئت الرابطة الافريقية في أواخر عام ١٩٥٥ على هيئة جمعية لها نشاط سياسي وثقافي يتلخص فيما يلي :

أولاً : تقديم كل التسهيلات الممكنة للمكاتب السياسية التابعة لحركات التحرير والحركات الوطنية الافريقية من توفير المكان المناسب لهذه المكاتب إلى توفير الاتصال بأجهزة الدولة وتوفير وسائل الطباعة والنشر اللازمة لتقوم هذه المكاتب بمهمتها الاعلامية ، كما تقوم الرابطة بتجهيز وإعداد اللازم لعقد المؤتمرات الصحفية باستقبال الوفود والمبعوثين الأفارقة التابعين لحركات التحرير في أي وقت وتقوم بترتيب اللازم لإقامتهم ومقابلة المسؤولين ، وتوفر الرابطة الخبراء والمستشارين في مجالات السياسة والقانون لهذه المكاتب وتقدم لها الأبحاث اللازمة والمفيدة لقضايا بلادها وذلك في حالة طلبها . وتخصص المكان المناسب لإقامة الندوات والاجتماعات الخاصة بها .

وقد احتوى مبنى الرابطة عدداً كبيراً من المكاتب السياسية بقدر

ما سمح به المكان وعندما زاد عدد المكاتب عن إمكانيات المبنى الذي تشغله الرابطة كانت تؤجر للمكاتب الجديدة أماكن خارج المبنى ولكن قريباً منها بقدر الامكان .

وكانت المكاتب السياسية مجتمعة تصدر نشرة باسم مجلة الرابطة الافريقية تحررها هذه المكاتب بمعرفتها وتعكس نضال شعوبها وتشرح قضاياها .

وقد ساهمت الرابطة مساهمة إيجابية في أن تتعارف هذه الحركات فيما بينها وتبادل الخبرة والمعرفة والمعلومات وأن تعيش في مناخ شورى معاد للاستعمار . وكانت هذه العلاقة بين الرابطة الافريقية والمكاتب السياسية الافريقية هي السبب الرئيسي في ذيوع صيت هذه الرابطة وشهرتها العالمية .

ثانياً : وكان الهدف الثاني هو نشر الوعي الافريقي بين المصريين وخلق المجال المناسب ليتعارف المثقفون المصريون والأفارقة من أعضاء المكاتب السياسية ومن الشباب الافريقي الذين يدرسون في القاهرة ومحاولة حل مشاكل هؤلاء الشباب وتثقيفهم سياسياً في هذا المناخ الثوري .

وكانت الرابطة تقيم الندوات الثقافية وتدعو إليها الشباب من الافريقيين ومن المصريين وقد جذبت الرابطة عدداً من أساتذة الجامعة من المهتمين بالشؤون الافريقية وبعض شباب الجامعات من المصريين الذين تحمسوا للنشاط الافريقي وكرسوا له الكثير من وقتهم وجهدهم .

وفي هذا المجال لا يفوتني أن أذكر الجهد المخلص الذي بذله المرحوم عبد العزيز اسحق الذي رأس تحرير المجلة التي أصدرتها

الرابطة الافريقية باسم « نهضة أفريقيا » وكانت تصدر شهرياً بقصد تنمية الوعي الافريقي ونشر البحوث التي تهم أفريقيا ولكنها توقفت بعد فترة لضيق الامكانيات المادية ، كما ساهم عبد العزيز اسحق في الكثير من نشاط الرابطة .

ورغم أن إمكانيات الرابطة الافريقية المحدودة كانت دائماً تقف عقبة في سبيل تحقيق هذه الأهداف الكبيرة في مجال الثقافة ، إلا أنها أفادت كثيراً في إيجاد صلة ممتازة مع الشباب الافريقي الموجود في جامعات ومعاهد ومدارس القاهرة . كما أفرزت الرابطة الافريقية عدداً من المصريين الجامعيين المهتمين بالشؤون الافريقية والذين برزوا في الدراسات الافريقية النظرية والميدانية . وقد تميز من هؤلاء عدد من الشبان الذين عملوا كمساعدين لي في مكتب الشؤون الافريقية .

المساعدات المصرية لحركات التحرير :

في مجال المساعدات العسكرية كانت مصر أول دولة في العالم تفتح أبوابها لتدريب حركات التحرير الافريقية عسكرياً . حدث ذلك بالنسبة لحركات التحرير من روديسيا وأنجولا وموزمبيق وجنوب أفريقيا ، وهي المناطق التي كان الاستعمار فيها يرفض التطور الدستوري وأصبح من المسلم به أن أي تطور لصالح الوطنيين لن يكون إلا باستخدام القوة . وكان التدريب يتم في مدرسة الصاعقة التابعة للقوات المسلحة وهو نفس التدريب والأسلوب الذي سبق اتباعه مع مجموعات الفدائيين الجزائريين في بداية الثورة الجزائرية .

وفتحت الكلية الحربية المصرية أبوابها أيضاً لاستيعاب أعداد من الافريقيين المؤهلين سنوياً وكان يتم اختيارهم بمعرفة الحركات الافريقية ليكونوا نواة الجيوش الوطنية بعد الاستقلال . حيث كانت

الدول الاستعمارية في معظم مستعمراتها تقصر وجود الوطنيين في الجيش على رتب الصف والعساكر فقط أما الضباط فكانوا دائماً من الأوروبيين . وعندما قامت ثورة الصومال كان عدد كبير من أعضاء مجلس قيادة الثورة من بين الضباط الصوماليين الذين تخرجوا من الكلية الحربية المصرية بهذه الطريقة وكانوا قد دخلوا الجيش بمجرد استقلال الصومال .

أما من ناحية السلاح فقد كان مكتب الشؤون الافريقية برئاسة الجمهورية قد تسلم مخازن السلاح الذي كان يستخدم ضد القاعدة البريطانية وذلك بمجرد توقيع اتفاقية الجلاء . وبعد تسليح الجيش المصري بأسلحة روسية أصبح لدينا فائض كبير من الأسلحة الانجليزية القديمة كانت مناسبة لتسليح حركات التحرير حتى لا يعرف مصدرها وهي في أيدي الافريقيين ، وكانت مصر بذلك هي أول دولة أيضاً توفر السلاح لحركات التحرير الافريقية وتتولى نقله بطرق مختلفة .

فبالنسبة لروديسيا الجنوبية (زمبابوي) على سبيل المثال كان الزعيم المعروف جوشوا نكومو يتسلم الأسلحة والمفرقعات وينقلها هو وأتباعه في هيئة طرود إما جواً أو بحراً إلى دار السلام وحيث كان مكتب الشؤون الافريقية يؤمن وصولها إلى الداخل بالاتفاق مع معاوني الرئيس نيريري . ومن دار السلام كان نكومو وأتباعه يتولون تهريبها عبر الحدود إلى داخل روديسيا . وكانت هذه هي أول الشحنات من المفرقعات والأسلحة التي تدخل روديسيا بهذا الكم وتستخدم في حركة المقاومة .

وفي عام ١٩٦٣ بعد دخول نكومو مباشرة إلى داخل روديسيا (حيث اعتقل واستمر اعتقاله أحد عشر عاماً بعد ذلك) تم الاتفاق

مع حزب اتحاد الشعب الافريقي الزمبابوي Z. A. P. U. على أن تقوم الطائرات المصرية بإسقاط كميات كبيرة من الأسلحة والمواد الناسفة في مناطق يتفق عليها في روديسيا استعداداً لتوسيع نطاق حركة المقاومة . وقد تم هذا الاتفاق في مقابلة تمت بين الرئيس جمال عبد الناصر والأب سيثولي باعتباره نائباً لنكومو . وكانت الخطة هي الاستفادة بطائراتنا الموجودة في اليمن لتنفيذ ذلك .

ورغم أن هذه العملية لم تتم بسبب انشقاق سيثولي عن حزب نكومو وتكوينه حزباً جديداً باسم الاتحاد الوطني الافريقي لزمبابوي Z. A. N. U. إلا أنها توضح إلى أي مدى كان عبد الناصر على استعداد لتأييد حركات التحرير وخاصة في مناطق الاستعمار الاستيطاني التي لا يمكن تحريرها إلا بالقوة .

وقد ظلت مصر في البداية هي المصدر الوحيد لتسليح وتدريب حركات التحرير الافريقية إلى أن عرفت هذه الحركات طريق الاتصال بدول الكتلة الشرقية واعتادت عليه ثم استقلت الجزائر وبدأت تساهم هي الأخرى في هذا الاتجاه وبعد إنشاء لجنة التنسيق التابعة لمنظمة الوحدة الافريقية واتخاذ دار السلام مقراً لهذه اللجنة فتح الرئيس جوليوس نيريري بلاده لتكون قاعدة أساسية لحركات التحرير . فأقيمت معسكرات التدريب للافريقيين وتدفقت الأسلحة على دار السلام ولحساب حركات التحرير من دول الكتلة الشرقية وأماكن كثيرة أخرى . ولا شك أن اسم الرئيس نيريري سوف يرتبط دائماً بتاريخ حركة التحرير الافريقية لموقفه هذا وتأييده ومساندته المستمرة لحركات التحرير وخاصة في موزمبيق المتاخمة لتنزانيا .

ولم تقتصر المساعدات المصرية لحركات التحرير على النواحي العسكرية فقط بل تعدتها إلى مجالات كثيرة أخرى ، ففي مجال العمل

الدبلوماسي تبنت مصر قضايا التحرر وتصفية الاستعمار وتقرير المصير في الأمم المتحدة . وهي في ذلك لم تكن وحدها بطبيعة الحال ، فقد كانت هناك دول أخرى مثل الهند ودول الكتلة الشرقية وغيرها تهتم بنفس القضايا ولكن مصر كانت الأقدر في عرضها بحكم صلتها بهذه الحركات الموجودة بالفعل في القاهرة . واتبعت مصر تقليداً جديداً ، فكانت تدعو حركات التحرير لإرسال مندوبين عنها للتواجد في نيويورك أثناء دورة انعقاد الأمم المتحدة في كل عام وتتكفل بنفقات سفرهم وإقامتهم وتساعدهم حتى تتمكن هذه الحركات من الدعوة لقضاياها سواء لدى الوفود المختلفة أو بالظهور أمام اللجنة الرابعة (لجنة الوصاية) كمقدمي عرائض Petitioners وكان تواجد ممثلي هذه الحركات في الأمم المتحدة وظهورهم بهذه الطريقة يعطي الكثير من الحيوية لمناقشات الأمم المتحدة عند نظر القضايا الافريقية الخاصة بهم ، كما كان يضفي أهمية خاصة على وفد مصر لأن وجود هؤلاء المندوبين قريبين من الوفد المصري ـ الذي كان يقدم لهم المساعدة القانونية والفنية ليهيىء لهم الاتصالات بالوفود الأخرى جعل مصر قادرة على التعبير بصدق عن أماني الشعوب الافريقية وقضاياها .

واستمرت مصر هي الدولة الافريقية الوحيدة في الأمم المتحدة التي تثير المتاعب للدول الاستعمارية من أجل القضايا الافريقية إلى أن استقلت غانا وبعدها غينيا ومالي ثم انضمت المجموعات الافريقية الأخرى . ولكن بقيت مساهمة مصر في هذا المجال في المقدمة دائماً بحكم الخبرة الطويلة في الأمم المتحدة .

ولقد وقفت مصر بجانب جميع الثورات الافريقية التي قامت ضد الاستعمار منذ عام ١٩٥٢ ابتداء من ثورة الماو ماو في كينيا ثم ثورة الجزائر عام ١٩٥٤ ثم ثورة الكاميرون في عام ١٩٥٦ عندما قام اتحاد

شعب الكاميرون U. P. C. بإشعال الثورة مطالباً بتوحيد أجزاء الكاميرون الموجودة تحت الاستعمار الانجليزي وتلك الموضوعة تحت وصاية الأمم المتحدة والادارة الفرنسية وذلك بهدف إيجاد دولة كاميرونية واحدة مستقلة . وكانت مصر هي أول دولة من غير دول الكتلة الشرقية تقف مع هذه الثورة وتؤيدها . وأصبحت القاهرة مقراً لزعماء هذه الحركة المنفيين أمثال دكتور فيلكس موميه الذي تولى رئاسة الحركة عام ١٩٥٨ بعد وفاة زعيمها أم نيوبي في أحد عمليات المقاومة ، واستمر تأييد مصر لهذه الحركة إلى أن استقل الكاميرون في أول يناير سنة ١٩٦٠ .

ثم وقفت مصر مع ثورة الكونغو في عام ١٩٦٠ ثم ثورات انجولا وموزمبيق وغينيا بيساو . ووقفت مصر دائماً مع نضال شعب روديسيا (زمبابوي) بل انها قطعت علاقاتها مع بريطانيا في ديسمبر سنة ١٩٦٥ احتجاجاً على موقفها بعد إعلان الحكومة العنصرية في روديسيا للاستقلال من جانب واحد ورفض بريطانيا التدخل لسحق هذا التمرد ، فاعتبرت بذلك متخلية عن مسؤولياتها أمام الأمم المتحدة في العالم كله ، هذه المسؤوليات التي تحتم عليها ضرورة تسليم السلطة لأهلها الشرعيين وإعطاء الحكم للأغلبية الساحقة من سكان الاقليم وهي من الأفارقة السود . وكان هذا قراراً اتخذته منظمة الوحدة الافريقية بحضور ٣٨ دولة افريقية ولكنه لم ينفذ إلا من تسع دول أفريقية فقط كانت مصر من بينها .

كما أيدت مصر حركات التحرير في جنوب أفريقيا وجنوب غرب أفريقيا وجزر القمر وكومورو وكل مكان في أفريقيا . ويمكن القول بكل اطمئنان أنه لم يحدث أن قامت حركة ثورية تحررية في أفريقيا بعد عام ١٩٥٢ ألا وكان لها اتصال بالقاهرة وأيدها عبد الناصر ووقف معها .

الفصل الثالث

مساعدات جمال عبد الناصر للدول الافريقية حديثة الاستقلال

أهداف المساعدات المصرية للدول الافريقية :

* مقاومة النشاط الاسرائيلي في أفريقيا
* فتح مجال التعاون الاقتصادي مع الدول الافريقية .

نماذج من المساعدات المصرية إلى الدول الافريقية :

* عبد الناصر ينهي ضغط الشركات الايطالية في الصومال.
* تقديم الخبرة الفنية لافريقيا .
* تقديم القروض إلى الدول الأفريقية .
* قرض إلى غينيا .
* قرض إلى جمهورية مالي .
* قروض لم تنفذ .

عبد الناصر يقضي على سياسة احتكار السلاح في أفريقيا :

* مصر تسلح وتدرب جيش مالي .
* وجيش الصومال .
* جومو كينياتا يطلب المساعدة العسكرية من جمال عبد الناصر .
* موقف مع أوغندا .
* مساعدات عسكرية أخرى .

أهداف المساعدات المصرية للدول الافريقية :

وقف جمال عبد الناصر مع كل الدول الافريقية التي كانت تناضل من أجل تحرير إرادتها والخروج من دائرة السيطرة الاستعمارية كما وقف من قبل مع كل حركة تحرير أفريقية تناضل من أجل استقلال بلادها . وكان ذلك إيماناً منه بحق الشعوب في تقرير مصيرها وتدعيم استقلالها وإيماناً بوحدة النضال في مواجهة الاستعمار الجديد الذي يريد الانتقاص من استقلال الدول الجديدة .

وكان عبد الناصر يشعر بمسؤولية خاصة حيال الدول الافريقية حديثة الاستقلال ، فمصر التي اشتركت وساهمت مساهمة إيجابية في إنهاء الاستعمار التقليدي كانت تريد الاستفادة برياح التغيير المتعاظمة التي تهب على القارة قبل أن تهدأ هذه الرياح ويبطل مفعولها باستقلال تكبله اتفاقات وارتباطات غير متكافئة مع دول الاستعمار القديمة . فكان عبد الناصر يريد لأكبر عدد من الدول الافريقية أن تستكمل استقلالها وإرادتها لأنه يرى في ذلك تأميناً وتعزيزاً لاستقلال مصر .

كما كان يشعر عبد الناصر بمسؤولية خاصة حيال تدعيم سياسة عدم الانحياز في أفريقيا باعتباره أحد أقطاب هذه السياسة ، الأمر

الذي كان يفرض عليه مساعدة الدول الافريقية في معاركها للتحرر من السيطرة الأجنبية وحتى تكون قادرة على الوقوف في صف الدول غير المنحازة .

بهذا المفهوم قدمت مصر مساعداتها إلى الكثير من الدول الافريقية حديثة الاستقلال والتي سنتعرض لبعضها فيما بعد . ولكن يهمنا قبل ذلك إيضاح أن موقف عبد الناصر المبدئي والصريح من الاستعمار الجديد في أفريقيا كانت له أيضاً دوافعه القومية والمحلية المرتبطة باستراتيجية وأهداف السياسة المصرية وهي :

١ ـ مقاومة النشاط الاسرائيلي في أفريقيا .

٢ ـ فتح مجال التعاون الاقتصادي مع دول القارة الافريقية .

مقاومة النشاط الاسرائيلي في أفريقيا :

كان عبد الناصر يعطي أهمية خاصة لمقاومة النفوذ والنشاط الاسرائيلي في أفريقيا وذلك لاستكمال حلقات الحصار الاقتصادي الذي فرضته عليها الدول العربية .

وقد كان الوجود الاسرائيلي في أي دولة من الدول الافريقية مرهوناً دائماً بالتواجد الاستعماري فيها ويتناسب كما تناسبا طردياً مع مدى السيطرة الاستعمارية والامبريالية على هذه الدولة ، واستخدمت اسرائيل كأداة من أدوات الاستعمار في أفريقيا ولكنها استفادت هي أيضاً من وضعها كدولة صغيرة جديدة لا تثير شكوك الدول الافريقية حديثة الاستقلال لتحقيق أهدافها الذاتية .

وكانت اسرائيل تحاول بكل ثقلها خلق مصالح وعلاقات تجارية مع المستعمرات الافريقية قبل الاستقلال مستفيدة من الوجود

الاستعماري وشركات الاحتكار الغربية والنفوذ اليهودي المتغلغل فيها وذلك بقصد كسر الحصار الاقتصادي الذي فرضته عليها الدول العربية وأيضاً لضمان اعتراف الدول الافريقية بمجرد استقلالها بإسرائيل . وكانت مشكلة الاعتراف هذه من المشكلات التي تؤرق إسرائيل كثيراً في ذلك الوقت لوجود عدد كبير من دول العالم لم يكن قد اعترف بها . ومن أجل ذلك أقامت إسرائيل قنصليات عديدة في المستعمرات الافريقية حتى تتحول إلى سفارات بمجرد الاستقلال . هذا في الوقت الذي لم تكن تسمح فيه السلطات الاستعمارية للمصريين بمجرد زيارة هذه الأقاليم .

واذكر أنه عندما كانت بريطانيا تسعى لعودة العلاقات مع مصر والتي كانت قد قطعت بعد حرب السويس ، طلبنا إقامة قنصليات مصرية في بعض العواصم الافريقية مثل نيروبي أسوة بما هو متبع مع إسرائيل ولكن الانجليز رفضوا متحججين بعذر سخيف إذ قالوا ان هذه القنصليات فخرية ولا يسمح بها إلا لرعايا بريطانيا ، فالقنصل الاسرائيلي في نيروبي يهودي ولكنه يحمل الجنسية البريطانية ونظراً لعدم وجود مصريين يحملون الجنسية البريطانية في هذه المناطق فلا يمكنهم الاستجابة لهذا الطلب . والحقيقة أن سبب التفرقة هو أن إسرائيل كانت تعمل لحساب الاستعمار وأداة له وتتفق مصالحها مع مصالحه في الوقت الذي كانت فيه مصر تقف بكل قوة مع الحركات الوطنية وحركات التحرير وتقدم لها المساعدات .

ونلاحظ أن جميع الدول الافريقية التي دخلت في صدام حقيقي مع الاستعمار وقاومت الاستعمار الجديد من أجل تحقيق استقلالها الكامل كانت تنتهي عادة إلى تصفية النفوذ الاسرائيلي وذلك لأن الصدام مع القوى الاستعمارية ومقاومة ضغوطها كان يكشف موقف

اسرائيل باعتبارها أداة من أدوات الاستعمار والامبريالية . وقد حدث ذلك في مالي وغينيا والكونغو برازافيل وبورندي وغيرها . وعلى عكس ذلك كان يستفحل نفوذها في الدول التي يتمكن منها الاستعمار وتسيطر عليها الامبريالية . فقد كانت قواعد ارتكاز إسرائيل الرئيسية في أفريقيا هي ليبريا وأثيوبيا حيث كان النفوذ الأمريكي متعاظماً . وفي ساحل العاج أيضاً التي كانت دائماً من أكثر الدول الافريقية ارتباطاً بفرنسا ونفس الأمر كذلك في مناطق الاستيطان الأوروبي مثل جنوب أفريقيا وروديسيا .

وقد كانت اسرائيل تقدم للدول الافريقية القروض والخبرة الفنية وتدرب بعض جيوش هذه الدول وتبيعها السلاح . وكان ذلك كله يتم عادة في إطار السياسة الاستعمارية بل وفي كثير من الأحيان من خلال الدول الاستعمارية نفسها .

ولست هنا بصدد الحديث عن تفاصيل مقاومة النشاط الاسرائيلي في القارة فقد لا يتسع المجال لذلك . ولكن كل ما أردت الاشارة إليه هو الارتباط الوثيق بين النفوذ الاستعماري والامبريالي في الدول الافريقية والوجود الاسرائيلي فيها . ولذلك كان عبد الناصر يرى أن مقاومة النفوذ الاسرائيلي في أفريقيا أساسه مقاومة السيطرة الاستعمارية على دول أفريقيا أو ما سمي بالاستعمار الجديد . وبالتالي كان يرى ضرورة تقديم المساعدة لهذه الدول في حدود ما تقدمه اسرائيل على الأقل حتى نستطيع مطالبة هذه الدول وقف تعاملها مع إسرائيل .

فتح مجال التعاون الاقتصادي مع الدول الافريقية :

كانت مصر تريد أن تفتح مجال التعامل الاقتصادي أمامها في أفريقيا وخاصة في المجال التجاري . فقد عملت الثورة المصرية على

تحرير اقتصادها من السيطرة البريطانية التي كانت موجودة عندما قامت الثورة وكان ذلك بسعيها الـدائم لتكون تجـارتها مـع العالم الخـارجي موزعة توزيعاً متساوياً على مجالات ثلاثة ، فيكون ثلث تجارتها مع دول الكتلة الشرقية وثلثها مع الدول الغربية والثلث الأخير مع دول العالم الثالث ، وكان عبد الناصـر يعتقد أن هـذا التوزيـع ضروري ليحفظ للاقتصاد المصري أمنه وحريته في التعامل ويجعله قادراً على مواجهة أي ضغوط طارئة مهما كان مصدرها .

وفي مجال دول العالم الثالث سوف نجد أن أفريقيا هي أنسب هذه الدول بالنسبة لمصر في مجال التبادل التجاري ، وذلك أولاً لموقع مصر الجغرافي منها وثانياً باعتبار أفريقيا مورداً لكثير من المواد الخام الـلازمة للصنـاعة المصـرية ، وثـالثاً لأنها أنسب الأسـواق لتصريف منتجـاتنا الصناعية التي يصعب تصريفها في مجتمعات الرفاهية . وكانت مصر في بداية الستينات قد بدأت خطتها الطموحة للتصنيـع وكان مـأمولاً أن يصبـح لدينـا فائض كبـير للتصديـر في المستقبل إذا استمـرت التنمية الصناعية بمعدلها العالي . ولكن الاحتكارات الأوروبية وسيطرتها على تجارة الدول الافريقية واحتكارها للمحاصيل الرئيسية في العـديد من البلاد الافريقية كان يقف عقبة في سبيل التبـادل التجاري بيننـا وبين دول أفريقيا .

واذكر أن الرئيس كينيث كاوندا رئيس جمهورية زامبيا قد حضر إلى القاهرة قبـل استقلال بـلاده بفترة قصيـرة . وطلب كاونـدا من جمال عبد الناصر أن يرسل وفداً على مستوى عال إلى زامبيا بعد الاستقلال مباشرة .

وبحثنا مع الرئيس كاوندا ما يمكن تحقيقه من تعاون بين البلدين ويمكن إعلانه أثناء زيارة الوفد لزامبيا ، ووجدنا أننا في مصر نستـورد

سنوياً ـ في ذلك الوقت كمية من النحاس الخام تحتاجها صناعاتنا المختلفة بما قيمته ٦ مليون جنيه استرليني . وكان النحاس الذي نستورده هو نحاس زامبيا ونشتريه من أسواق لندن . وقال الرئيس كاوندا أنه بعد الاستقلال ستحصل حكومة زامبيا على حصة من إنتاج النحاس واننا نستطيع شراء ما يلزمنا من النحاس الخام من زامبيا مباشرة كبداية للتعاون الاقتصادي بين البلدين .

وبعد وصول البعثة المصرية إلى لوساكا العاصمة وبعد أن أعددنا البروتوكولات التي تنظم هذا التبادل ظهرت لنا عقبات وقيود اثارها أحد الخبراء الانجليز في وفد زامبيا اتضح أنه المسؤول الأول في وزارة التجارة عن تنظيم هذه الاتفاقات وكان اعتراضه مبنياً على أن هناك اتفاقات مع بعض الشركات تمنع زامبيا من التصرف على هذا النحو في حصتها من النحاس .

ولم يتم الاتفاق الذي كنا قد أعددنا له ، وكان الأمر محرجاً للرئيس كاوندا ولكننا أكدنا له أننا نفهم طبيعة هذه الصعوبات وسوف ننتظر حتى يصبح هذا ممكناً .

لم يكن قد مر على استقلال زامبيا سوى أسابيع قليلة ، وكان وجود هذا الخبير الانجليزي بسلطاته الواسعة ، والاتفاقات غير العادلة التي تحرم حكومة زامبيا من التصرف في حصتها من النحاس ، ونفوذ الشركات الأجنبية التي تتحكم في أسعار النحاس وتحقق أرباحاً خيالية في عملات النقل والتأمين كلها أشكال من الاستعمار الجديد ، وعندما أمم الرئيس كاوندا بعد ذلك ٥١ ٪ من أسهم شركات تعدين النحاس في زامبيا ، كان من الطبيعي أن يؤيد عبد الناصر هذا الاجراء ويقف بجانب كاوندا وشعب زامبيا في نضاله من أجل تحرير اقتصاده .

وإذا كان عبد الناصر قد اهتم بتصفية الاستعمار الجديد في

أفريقيا ودعا دائماً إلى مقاومة سيطرة الدول الاستعمارية والشركات والاحتكارات الرأسمالية حتى تؤول الثروة في البلاد إلى أصحابها الحقيقيين ، إلا أنه كان يرى ضرورة الدراسة والاعداد الجيد لكل المعارك الوطنية التي تؤثر على الاقتصاد القومي حتى لا يحدث الخلل أو الانهيار الاقتصادي فتنتكس الحركة الوطنية .

واذكر أن الرئيس كاوندا في إحدى زياراته إلى القاهرة قبل الاستقلال طلب أن يدرس عملية تأميم قناة السويس وأبعادها القانونية والمشاكل الاقتصادية والسياسية التي قابلتها مصر من جراء هذه العملية وكيف تغلبت عليها . ولم يفصح كاوندا عن سبب هذه الدراسة ، ولكن كان معروفاً أن زامبيا بها شركات النحاس الضخمة التي تمتلك الثروة في بلاده والتي يتغلغل فيها نفوذ جنوب أفريقيا ، كما كان معروفاً أن الفنيين والمديرين في هذه الشركات ومناجم النحاس التابعة لها جميعهم من الأوروبيين الأجانب والمستوطنين .

وقد أعدت الدراسة التي طلبها كاوندا ورتبت له عدة لقاءات مع بعض أساتذة الاقتصاد والقانون ومدير معهد التخطيط ثم قابل السيد علي صبري رئيس الوزراء وقتئذٍ لاستكمال الحديث حول تأميم قناة السويس . وأخيراً توجهنا سوياً للقاء عبد الناصر الذي قال لكاوندا : « إذا كان لي أن أنصح فأعتقد أنه من الخطأ أن تقدم على عمليات التأميم الآن وخاصة لمناجم النحاس . فيجب أن يتوفر لديك الفنيون والخبراء الوطنيون اللازمون لتشغيل المشروعات المؤممة أو على الأقل يكون لهم القدرة على السيطرة الفنية والادارية حتى يتمكنوا من تشغيلها بنفس الكفاءة . ومن الواضح أن هذا يحتاج إلى بعض الوقت وإلى أن يتم ذلك أعتقد أنه من المفيد أن تكون علاقتك طيبة قدر الامكان ببريطانيا (وهي الدولة التي كانت تستعمر زامبيا قبل

الاستقلال) فسوف تحتاج إلى مساعدتها الفنية والاقتصادية حتى تتمكن من ترتيب البيت الداخلي ومقاومة نفوذ وأطماع جنوب أفريقيا وإلى أن تتمكن من إقامة الجسور بينك وبين دول أخرى في العالم كله » .

ولم يخف كاوندا دهشته في أن يسمع هذه النصيحة من الرجل الذي كان الانجليز يعتبرونه عدوهم الأول . ولكن عبد الناصر كان يريد لكاوندا أن ـ يستعد جيداً قبل أن يقدم على عملية التأميم حتى لا يتأثر إنتاج النحاس . وكان ذلك قبل استقلال زامبيا بشهور قليلة . وفي عام ١٩٦٨ ذكرني الرئيس كاوندا بهذا الحديث عندما التقيت به في أديس أبابا أثناء مؤتمر القمة الافريقي وكان كاوندا قد أعلن لتوه عن تأميم ٥١ ٪ من أسهم النحاس في زامبيا .

وقد كانت الدول الافريقية تدرك دائماً أن زيادة التعاون الاقتصادي فيما بينها هو أمر ضروري للتقليل من مدى اعتمادها على دول الاستعمار وبالتالي لمساعدتها على تحرير اقتصادها . ولذلك نصت جميع المواثيق الافريقية على أهمية هذا التعاون وأفردت له أبواباً كاملة ، ورغم ذلك فإن تحقيق هذا التعاون كان دائماً يصطدم بصعوبات كثيرة منها ما هو متعلق بطبيعة الاقتصاد الافريقي نفسه حيث أن معظم الدول الافريقية تصدر الخامات وتستورد السلع الاستهلاكية ، وبعض هذه الصعوبات يتعلق بأوضاع فرضها الاستعمار من قبل باحتكار الشركات الأوروبية والدول الرأسمالية لموارد الثروة في أفريقيا . وكذلك خطوط اتصال الدول الأفريقية بالعالم الخارجي كلها تسير في اتجاه رأسي أي بين الموانىء والعواصم الأفريقية والموانىء والعواصم الأوروبية سواء كان ذلك في خطوط المواصلات السلكية أو الملاحة والخطوط الجوية وكلها تربط أفريقيا بأوروبا أما الخطوط الجانبية أو الأفقية التي تربط الدول الافريقية ببعضها فهي قليلة جداً ونادرة .

وقد اصطدمت مصر بكل هذه الصعوبات عندما بدأت في الاتجار مع الدول الافريقية . فكانت على سبيل المثال تضطر إلى أن تمرر جميع تجارتها مع دول غرب أفريقيا بالموانىء الأوروبية أولاً ومنها يعاد الشحن ثانية إلى موانىء غرب أفريقيا أو الموانىء المصرية فكانت بـذلك تـزداد تكلفة النقل عـلاوة على الـوقت الضائـع . واستمرت المشكلة إلى أن وصلت تجـارتنا مـع هذه الـدول إلى الحجم الذي أصبـح معه تـأجير مراكب خاصة وتسييرها في مواعيد محددة تتناسب مع احتياجاتنـا أمراً اقتصادياً . هذا ما اتجهت إليه شركة النصر للتصدير والاستيـراد وهي الشركة الحكومية التي كانت تختص بالتجارة مع أفريقيا .

وقد واجهت السلع المصرية صعوبات عديدة في بداية نزولها إلى الأسواق الافريقية لأسباب كثيرة منها القوانين التي تعطي سلعاً أخرى أفضليـات جمركيـة مثل تلك التي كـانت تتمتع بهـا سلع دول رابـطة الكومنولث البـريطاني وكـذلك البضـائع الفـرنسية في دول المجمـوعة الفرنسية .

ومن الصعوبات التي واجهتها السلع المصرية كذلك عدم معـرفة الصناعة المصرية في بداية تعاملها بالذوق الافريقي ، فمثلاً الأقمشـة المنقوشة التي يقبل عليها الافريقيون لها طبيعة معينة كأن تكون وحدة النقش كبيرة الحجم .

وعندما أرسلنا عينات منها للمصانع المصرية للعمل على منوالها ، وجد أنه لا بد من تغيير أجزاء من وحدات الطباعـة في المصانـع حتى تتمكن من إنتـاج هذا النـوع من النقش كـذلـك بعض الألـوان التي يفضلها الافريقي ويستخدمها بكثرة غريبة مثل اللون الأزرق الزاهي وبدرجة زرقة معينة ـ كانت تحتاج إلى خبرة خاصة في الصباغة لم تكن معروفة في مصر في البداية .

وعندما فكرنا في استيراد بذرة زيت النخيل الموجودة بكثرة في مناطق أفريقيا الاستوائية وجدنا أنه لا توجد لدينا العصارات المناسبة لعصر هذه البذرة التي تحتاج إلى ضغط أعلى بكثير من ذلك المستخدم في عصر بذرة القطن أو الخروع وخلافها من البذور والحبوب التي يتم عصرها في مصر . وكان من الضروري تجهيز العصارات المناسبة واعدادها قبل أن نبدأ في استيراد بذرة زيت النخيل من الدول الافريقية . وكانت هناك صعوبات كثيرة أخرى ظهرت كلما فتحنا ميداناً جديداً للتعامل مع هذه الدول .

وهكذا كانت البداية صعبة كما هو الحال عند التعامل مع أسواق جديدة فالأمر يحتاج إلى دراسة عملية وصلة دائمة بهذه الأسواق حتى يمكن أن يجد هذا التعامل طريقه الى الاستمرار بعد ذلك .

وقد أمكن تحقيق نجاح كبير في هذا المجال وكان لشركة النصر للاستيراد والتصدير جهود ممتازة في هذا المجال واستطاعت هذه الشركة أن تفتح فروعاً في معظم عواصم القارة ومكنها هذا الانتشار علاوة على وجود فروعها في أماكن كثيرة من العالم ، أن تدخل في عمليات التسويق لمحاصيل الدول الافريقية نفسها سواء عن طريق عمليات ثلاثية أو مباشرة إلى دول أخرى . ولا شك أن هذا النشاط كان يخلق قنوات جديدة أيضاً أمام الاقتصاد الوطني في الدول الافريقية بعيداً عن ضغوط الشركات الأوروبية المعروفة .

ولتسهيل عمليات التبادل التجاري بيننا وبين الدول الافريقية قامت مصر بعقد العديد من الاتفاقات التجارية مع دول أفريقية كثيرة . وكانت معظم هذه الاتفاقات تتضمن اتفاقات للدفع بحد مديونية معين يتناسب حجمه مع حجم التعامل المنتظر أو المستهدف مع هذه الدول . وقد عقدت مثل هذه الاتفاقات مع غانا وغينيا ومالي

وحكومة الاقليم الشمالي في نيجيريا الفيدرالية أيام حكم أحمدبيللو وكذلك مع النيجر والكاميرون وتنزانيا والصومال .

نماذج من المساعدات المصرية إلى الدول الافريقية :

لقد كانت المساعدات التي قدمها جمال عبد الناصر للدول الافريقية محدودة من ناحية قيمتها المادية بحكم قدرة مصر المحدودة في هذا المجال خاصة وانها كانت تحتاج هي نفسها للقروض والمساعدات اللازمة لخطتها الطموحة للتنمية . ورغم ذلك فقد كان لهذه المساعدات تأثير بالغ الخطورة في كثير من الحالات حيث أنها كانت عادة ما تأخذ شكل الانقاذ لمساعدة الدولة الافريقية على الخروج من أزمة خطيرة أو تكسر احتكاراً أو حصاراً فرضته عليها الدول الاستعمارية أو شركاتها .

ويبدو أن جمال عبد الناصر كان متأثراً في هذا الأسلوب بالمساعدات التي قدمتها له بعض دول العالم الثالث عقب حرب السويس عام ١٩٥٦ وخاصة الهند التي فتحت لمصر حساباً بالعملة الصعبة عندما جمدت بريطانيا وأمريكا أرصدتها في الخارج . ورغم صغر هذه المبالغ إلا أنها أنقذت مصر في ذلك الوقت من كل الأزمات الاقتصادية التي كان يمكن حدوثها نتيجة عجزها عن استيراد احتياجاتها الضرورية بعد تجميد أرصدتها في الخارج .

وسوف نعرض فيما يلي نماذج من هذه المساعدات التي قدمها عبد الناصر إلى بعض الدول الافريقية المستقلة .

عبد الناصر ينهي ضغط الشركات الايطالية في الصومال :

عندما تولى عبد الرشيد الشرماركي رئاسة الوزراء في الصومال انتهج سياسة أكثر تحررية . وبدأ ينضم إلى مجموعة الدول التحررية في

كثير من المواقف الافريقية الأساسية مثل أزمة الكونغو وتأييد حركات التحرير كما اتجه إلى تدعيم علاقته بمصر وانعكس هذا التحول في سياسته على الصومال وعلى علاقة عبد الرشيد بإيطاليا والشركات الايطالية التي كانت تحتكر تسويق محصول الموز وهو المحصول الرئيسي للصومال .

ويبدو أن هذه الشركات كانت تنفذ خطة القصد منها الضغط على رئيس الوزراء لحمله على ترك هذه السياسة الجديدة . فامتنعت عن شراء الموز الصومالي وتركت أسعاره تهبط هبوطاً شديداً كان يهدد بكارثة لا يتحملها اقتصاد الصومال الضعيف . وكان هذا أسلوباً معروفاً واجهه كثير من الحكومات الافريقية حديثة الاستقلال . وشرح عبد الرشيد مشكلته أمام جمال عبد الناصر في مباحثات دارت بينهما أثناء زيارة رسمية للقاهرة تمت في ذلك الوقت . ورد عبد الناصر قائلاً أن مصر سوف تدخل مشترية لمحصول الصومال من الموز الذي سوف تطرحه للاستهلاك المحلي داخل أسواقنا . وأننا سنقوم في نفس الوقت بتصدير معظم محصولنا من الموز المصري فلدينا القنوات والقدرة على تحقيق ذلك .

وجاء هذا العرض مفاجأة لعبد الرشيد نفسه الذي وجد فيه إنقاذاً للاقتصاد الصومالي ومخرجاً من هذه الأزمة دون أن يضطر إلى الخضوع لضغط الشركات أو تعديل سياسة اختارها . وبعد أن عبر عبد الرشيد عن امتنانه لهذا الموقف المصري الحاسم استطرد عبد الناصر قائلاً انه مع التزامه بما قال فإنه يعتقد أننا قد لا نحتاج إلى إتمام هذه الصفقة . حيث أن مجرد الاعلان عنها سوف يجعل الشركات الايطالية تعدل عن موقفها هذا ، فهي بكل تأكيد لا تريد أن تخسر السوق الصومالية وسوف تعود غالباً لشراء الموز الصومالي .

وقد تحققت نبوءة عبد الناصر ، فما أن أعلن عن هذا الاتفاق حتى اندفعت الشركات الايطالية تريد شراء المحصول كله وألحت على حكومة الصومال حتى تلغي الصفقة المصرية ، وألغيت بالفعل هذه الصفقة التي لم تكن في حاجة إليها بعد أن أصبحت حكومة عبد الرشيد في موقف أقوى أمام هذه الشركات ومن هم وراءها والعجيب أن سعر الموز الصومالي ارتفع ذاك العام عن أعوام كثيرة سابقة .

تقديم الخبرة الفنية لأفريقيا :

تختلف مصر عن معظم الدول النامية في العالم بوجود جيش هائل من الخبراء والفنيين وخريجي الجامعات في مختلف المجالات على عكس معظم الدول النامية الأخرى ومنها الدول الافريقية التي كان الاستعمار يتركها عند الاستقلال دون أن يكون لديها الكوادر الفنية من الوطنيين لتسيير الحياة حتى يستمر اعتمادها على خبراء الدولة المستعمرة . وقد مكننا هذا الوضع من تلبية الكثير من احتياجات الدول الافريقية من الخبراء والفنيين وقت الضرورة . فقد لجأت كثير من الدول الاستعمارية إلى سحب خبرائها وفنييها من بعض الدول الافريقية حديثة الاستقلال كوسيلة للضغط على الحكومة الجديدة كمحاولة لفرض سياسات معينة ، وفي هذه الحالات كانت مصر دائماً جاهزة لإرسال خبرائها فوراً لإنقاذ الموقف .

وقد حدث ذلك على سبيل المثال في غينيا الاستوائية بعد الاستقلال مباشرة عندما حدث خلاف بين الحكومة الجديدة واسبانيا التي كانت تحتل الاقليم قبل الاستقلال . وسحبت اسبانيا جميع أطبائها ولم يكن في غينيا الاستوائية أطباء غيرهم كما سحبت خبراءها من بعض المجالات الأخرى .

وعرض رئيس جمهورية غينيا الاستوائية هذه المشكلة التي تتعرض لها بلاده وذلك في مؤتمر القمة الافريقي في اديس ابا عام ١٩٦٨ والذي كان يحضره لأول مرة بعد استقلال بلاده مباشرة . وسألت رئيس الجمهورية عن عدد الأطباء الاسبان الذين سحبتهم اسبانيا ـ وكنت وقتئذٍ أرأس وفد مصر في المؤتمر ـ فأجاب بأنهم أربعة وأن هناك مثل هذا العدد من الخبراء الآخرين ، وأعلنت على الفور أن مصر سوف ترسل الأطباء والخبراء في حدود هذه الأعداد إلى غينيا الاستوائية لسد الفراغ الناتج عن خروج الاسبان ، ووصل الخبراء المصريون بالفعل بعد أيام قليلة وكانت هذه بداية لعلاقة فنية مع حكومة غينيا الاستوائية .

حدث أيضاً أثناء الحرب الأهلية في نيجيريا أن أرسلنا حوالي ٣٠٠ طبيب مصري إلى نيجيريا للعمل بعقود مع الحكومة النيجيرية بعد أن تركها عدد من الخبراء الأوروبيين أثناء هذه الحرب . وحدث نفس الشيء بالنسبة لبلاد كثيرة منها غينيا والكونغو برازافيل وغيرها . ويجدر بنا الاشارة إلى الجهد الذي حققه المدرسون المصريون في الصومال قبل الاستقلال وبعده للابقاء على صلة الشعب الصومالي بجذوره العربية والتي حاول الاستعمار أن يقتلها بشتى الطرق . ولكن انتشار المدرسين المصريين في جميع أنحاء الصومال حتى القرى الصغيرة كان من العوامل الأساسية التي وصلت الصومال بجذوره العربية وانتهت بارتباط هذا القطر الشقيق بالعالم العربي .

ويجانب الفائدة الكبيرة التي حققتها المساعدات المصرية لبعض الدول في هذا الميدان ، فقد فتحت هذه المساعدات مجالات واسعة للعمل في أفريقيا أمام الخبراء والفنيين وخريجي الجامعات المصرية . حيث لوحظ أنه ما من مرة أوفدت فيها الحكومة المصرية عدداً من

خبرائها إلى دولة أفريقية حتى نفاجأ بعد شهور قليلة بأعداد كبيرة من المصريين وقد تواجدوا في هذه الدولة بعقود شخصية سواء مباشرة مع حكومة هذه الدولة أو أجهزتها أو من خلال الأمم المتحدة التي تمد الدول الافريقية بالخبراء والفنيين . فمثلاً عندما قمنا بحصر الرعايا المصريين في الكونغو لترحيلهم كإجراء وقائي عقب احتجاز تشومبي في القاهرة أثناء مؤتمر القمة لعدم الانحياز الذي عقد في القاهرة عام ١٩٦٤ وجدنا أن عددهم قد وصل إلى المائة فرد علاوة على عائلاتهم . وبخلاف الموظفين الذين أوفدتهم القاهرة وأجهزتها مثل أعضاء السفارة والمكاتب التجارية وشركة النصر للتصدير والاستيراد كان هؤلاء قد حصلوا على وظائفهم وأعمالهم هناك خلال فترة وجيزة رغم حالة عدم الاستقرار التي كانت تسود الكونغو .

وأعتقد أن الفرصة ما زالت كبيرة أمام خبرائنا وفنيينا للعمل في الدول الافريقية التي هي في أشد الحاجة لهذه الخبرة وخصوصاً في البلدان التي تسمح مواردها بتنفيذ برامج طموحة للتنمية .

ومما لا شك فيه أن الخبراء المصريين باعتبارهم أفريقيين يكونون أكثر إخلاصاً وولاء لمصالح الدول الافريقية من الخبراء الأوروبيين الذين عادة ما يكون ولاؤهم الأول للهيئات والشركات الأوروبية المرتبطة بمصالح الدول التي ينتمون إليها والتي تتناقض عادة في مصالحها مع المصالح الحقيقية للدولة الافريقية وخاصة إذا كانت من الدول الحريصة على تحقيق استقلالها الاقتصادي والمحافظة على هذا الاستقلال .

تقديم القروض إلى الدول الافريقية :

قدمت مصر القروض لبعض الدول الافريقية التي تعرضت لضغوط اقتصادية نتيجة مواقفها من الاستعمار ، وقد أراد عبد الناصر

من وراء ذلـك أيضاً أن يثبت للدول الافـريقيـة أن مصـر قـادرة هي الأخرى على حماية أصدقائها الذين رفضوا التعامل مع إسرائيل . وكان لا بد لنا من دخول هذا الميدان بعد أن كانت قد طرقته قبلنا اسرائيل التي كانت تمنح القروض للدول الافريقيـة كوسيلة للتسلل ثم تعمـل على تسميم العلاقة بين هذه الدول وبين مصر والعرب جميعاً .

ومن الأسباب التي شجعت عبد الناصر على اتباع هذا الأسلوب في المساعدة أن معظم القروض التي كانت تطلب من مصر كانت تنفذ في أعمال البناء والتشييـد سواء في إنشـاء طرق أو منشـآت أو تطهـير موانىء وكلها من الأعمال التي كانت لشـركاتنـا القدرة والـطاقة عـلى القيام بها . كما كان هناك اعتقاد بإمكانية توسع هذه الشـركات بعـد ذلك في هذا المجال الذي يمكن أن يحقق لهـا عائـداً كبيراً وسـريعاً في الدول الافريقية الأخرى الأكثر ثراء والتي تستطيع الـدفع بـالعملات الحرة .

قرض غينيا :

كان من بين القروض التي قدمتها مصر إلى أفريقيا قـرضاً قيمتـه عشرة ملايين من الجنيهات إلى جمهورية غينيـا وذلك بمـوجب اتفاقيـة أبـرمت بين البلدين تقـوم مصر بمقتضـاها بتنفيـذ بعض المشروعـات الانشائية وتطهير ميناء كوناكري في حدود هذا القـرض الذي تسـدده غينيا بفائدة ٢,٥ ٪ على سبـع سنوات . ولكن غينيـا لم تستخدم من هذا القرض إلا ما يزيد قليلاً عن نصفه فقط استخدم معظمه في تطهير مينـاء كونـاكري وقـامت بهذه المهمـة هيئة قنـاة السـويس بخبـرائهـا وبالكراكات والمعدات التي تمتلكها هذه الهيئة .

وقد جاء هذا القرض في أعقاب ميثاق الدار البيضاء الـذي كان

يجمع مصر بغينيا وثلاث دول أخريات هي مالي وغانا والمغرب . وكانت غينيا وقتها تتعرض لضغط اقتصادي تمارسه فرنسا منذ أعلنت غينيا استقلالها حيث كان ديجول مصمماً على إسقاط حكم سيكوتوري بأي ثمن لتكون غينيا أمثولة أمام أي دولة في المجموعة الفرنسية تفكر في الخروج عما سمي بالمجتمع الفرنسي .

فبمجرد استقلال غينيا أعلنت الحكومة الفرنسية عن عزمها على سحب جميع المستخدمين المدنيين الفرنسيين في ظرف شهرين اثنين ، وأوقفت جميع المساعدات المالية . وكذلك أوقفت الاستثمارات الفرنسية في غينيا وحاولت التأثير أيضاً على كثير من هيئات الاستثمار الأجنبية لتحذو حذوها وامتنعت عن الاعتراف بالدولة الجديدة حتى بعد أن اعترفت بها عشرون دولة أخرى منها بريطانيا .

وسحبت فرنسا وحدات الجيش من غينيا بما فيها أطباء الجيش الذين كانوا يتولون الخدمة الطبية في المجال المدني أيضاً وسحبوا معهم جميع الامدادات الطبية . كما سحبت فرنسا قوة البوليس بعد تحطيم ثكناتها ، وقطعت المنح الدراسية عن جميع الطلبة الغينيين في باريس وداكار .

لهذا كله كان تدعيم موقف سيكوتوري ومساعدته في مقاومة جميع أنواع الضغوط التي تمارسها ضده فرنسا أمراً ضرورياً لتدعيم الثورة الافريقية . ولم تكن مصر وحدها في تقديم المساعدة لغينيا وإنما وقفت معها دول أخرى كان أهمها غانا التي قدمت لها عشرة ملايين من الجنيهات وضعها الرئيس الراحل كوامي نكروما بالعملة الصعبة تحت تصرف الحكومة الغينية وأعلن في ٢٣ يوليو عن قيام اتحاد بين غينيا وغانا . كما قدم الاتحاد السوفيتي ودول الكتلة الشرقية مساعداتهم في مجالات مختلفة حتى استطاع سيكوتوري أن يجعل استقلال غينيا

حقيقة . وكان في ذلك القضاء الكامل على فكرة ديجول في إنشاء المجتمع الفرنسي .

قرض إلى جمهورية مالي :

تعرضت مالي لظروف سياسية قريبة من تلك التي تعرضت لها غينيا . فقد كانت مالي أول دولة بعد غينيا تطلب الخروج من « المجتمع الفرنسي » الذي أسسه ديجول وان كان زعيمها موديبو كيتا قد حرص على ألا يتحدى ديجول بالأسلوب الذي اتبعه سيكوتوري عند الاستقلال . ولكنه لم يستطع أن يتجنب المواجهة مع فرنسا بعد ذلك عندما خرجت مالي عن دائرة الفرنك الفرنسي ، الأمر الذي جعلها تتعرض لضغوط اقتصادية عنيفة .

وقد سار موديبو كيتا في نفس الطريق الذي اتبعه سيكوتوري ونكروما وجمال عبد الناصر في سياستهم الافريقية التحريرية وارتبط بميثاق الدار البيضاء الذي كان يضم الدول الراديكالية في أفريقيا .

وعقدت اتفاقية بين مصر ومالي تحصل الأخيرة بموجبها على قرض في حدود ستة ملايين من الجنيهات تنفذ في إقامة فندق عالمي في مدينة بماكو (العاصمة) وفي رصف طريق . وقد أبدى جمال عبد الناصر تحفظاً أمام الرئيس كيتا قبل الاتفاق على هذا القرض ، حيث كان يفضل أن ينفذ القرض في مشروعات إنتاجية يمكن من عائدها تسديده . ولكن موديبو كيتا أوضح أهمية الفندق بالنسبة لمالي حيث كانت معظم الدول الافريقية حديثة الاستقلال تعتبر أن وجود فندق عالمي في عاصمتها أمراً ضرورياً لتأكيد سيادتها واستقلالها . فهو ضروري لعقد المؤتمرات التي يحضرها الرؤساء ووزراء الخارجية وكذلك استضافة رجال الأعمال والوفود الكبيرة . وقد كانت مدينة

بماكو تفتقر إلى أي مكان مناسب لمثل هذا النشاط .

وكذلك كان إنشاء الطريق ضرورياً من وجهة نظر الرئيس كيتا لأن فرنسا أهملت البنية الأساسية في مالي ومنها شبكة الطرق اللازمة لنقل المحاصيل الزراعية .

وقد نفذ هذا القرض بالكامل وشيد المهندسون المصريون الفندق العالمي الذي تكلف حوالي ٣,٥ مليون جنيه كما شيدت الشركات المصرية الطريق المتفق عليه . وقد أطيح بحكم موديبو كيتا أثناء بناء الفندق وتوقف العمل فترة لعدم توفر العملة المحلية لدى حكومة مالي للصرف على أجور العمال الماليين والأعمال المحلية وخوفاً من أن ترتفع تكلفة المشروع أكثر من اللازم نتيجة توقف العمل لفترة طويلة ، تم الاتفاق مع الحكومة الجديدة على أن تقدم مصر لمالي سلعاً استهلاكية من الانتاج المصري بقيمة ما يلزم المشروع من النقد المحلي وذلك خصماً من القرض على أن تقوم حكومة مالي بتصريف هذه السلع عن طريق المجمعات والجمعيات الاستهلاكية التي تديرها الدولة وتستخدم حصيلة بيع هذه السلع في الانفاق المحلي لاستكمال مشروع الفندق .

وبناء على هذا الاتفاق أغرقت أسواق مالي المنتجات الاستهلاكية المصرية من معلبات وثلاجات وأثاثات معدنية وماكينات خياطة ودراجات وأجهزة تكييف هواء وغيرها من الانتاج المصري الذي اهتمت حكومة مالي بتسويقه .

وبعد الانتهاء من تنفيذ هذا الاتفاق الأخير استمرت السلع المصرية في رواجها واستفادت شركة النصر للاستيراد والتصدير بهذا الوضع المميز الذي حصلت عليه السلعة المصرية بعد أن تعود عليها المستهلك في مالي .

وهكـذا كانت القـروض التي تمنحها مصـر بجانب مـا تحققه من أهداف سياسية تفتح أسواقاً وفرصاً جديدة أمام الانتاج المصري .

قروض لم تنفذ :

وقد تم الاتفاق مع دول أفريقية أخرى على تقديم قروض بنفس الشروط في ظروف مماثلة أيضاً . فقد اتفق على سبيل المثال على تقديم قرض بثلاثة ملايين من الجنيهات إلى الكونغو (برازافيل) وكان ذلك بعد الاطاحة بحكم الأب يولو الرجعي وتحـول الكونغـو إلى مجموعـة الدول الثورية التي تؤ يد حركات التحرير . وقرضاً آخر بأربعة ملايين جنيه إلى الصومال . ولكن لم ينفذ شيء من هذين القرضين لعجز حكـومتي الكونغـو والصومـال عن توفـير النقد المحـلي اللازم لتنفيـذ المشـروعـات التي نصت عليهـا هـذه القـروض وهي مشكلة عـادة مـا تصطدم بهـا معظم الـدول حديثـة الاستقلال والتي لا تجـد لديهـا المدخرات الكافية التي تسمح لها باستخدام القروض المتاحة .

واتفقت القاهرة على قرض آخر بنصف مليون جنيه لحكومة زنزبار يستخـدم في إقامـة فندق سيـاحي صغير . وقبـل أن يوضـع مشروع القرض في صيغته النهائية قامت الثورة في زنـزبار ، تلك الثـورة التي أدت إلى الاتحاد مع تنجانيقا وقيام جمهورية تنزانيا ولم ينفذ هذا القرض أيضاً لتغير الظروف وتغير أولويات التنمية لدى الحكومة الجديدة .

وهكـذا نجـد أن المبـالـغ التي وضعتهـا مصـر لإقـراض الـدول الافريقية كانت مبالغ صغيرة ولكن تأثيرها كان عظيماً وكان يعكس إلى حد بعيد معنى التضامن الحقيقي .

عبد الناصر يقضي على سياسة احتكار السلاح في أفريقيا :

عندما تعرضت مصر في بـداية الثـورة لغارات إسـرائيل الجـوية

المركزة على قطاع غزة خرجت تبحث عن السلاح من أجل أمنها وأمن مواطنيها ، ولكنها وجدت جميع الأبواب مغلقة في وجهها ، فرفضت انجلترا ورفضت أمريكا وفشلت مصر في الحصول على ما تريده من سلاح لترد به عدوان اسرائيل فقد امتنعت جميع الدول الغربية التي كانت تحتكر هذه التجارة وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية عن بيع مصر السلاح . وكانت هذه هي إحدى وسائل الضغط التي استخدمتها أمريكا وحلفاؤ ها لفرض سياسة الأحلاف على النظام الجديد في مصر .

وفاجأ جمال عبد الناصر العالم بحصوله على صفقة الأسلحة التشيكية عام ١٩٥٥ . فقد كانت هذه هي المرة الأولى في تاريخ العالم التي تحصل فيها دولة من خارج الكتلة الشرقية على أسلحة سوفيتية الصنع . وهكذا كان جمال عبد الناصر أول من كسر احتكار السلاح في العالم وفتح بذلك الطريق أمام دول العالم الثالث التي تناضل من أجل استكمال استقلالها أو الدفاع عنه .

ولم يكتف عبد الناصر بذلك ولكنه ساهم مساهمة إيجابية وعملية في تسليح الدول الافريقية بهدف كسر احتكار الدول الاستعمارية لتجارة السلاح .

فقد كانت أعباء الدفاع من أول الأعباء التي تواجه الدول الافريقية حديثة الاستقلال ، فهي مهمة كانت تتولاها قبل الاستقلال مباشرة الدول الأوروبية المستعمرة والتي كانت تقوم بعمليات التدريب والتسليح ، ولكنها لم تكن تستخدم إلا الضباط الأوروبيين ، وعند الاستقلال نجدها تترك جيشاً دون قيادة وطنية حيث لا يوجد عادة ضابط واحد من الافريقيين الذين يقتصر وجودهم على رتب الصف والعساكر فقط . وكان هذا ما حدث على سبيل المثال في الكونغو

(زائير حالياً) الذي كان جميع ضباطه من البلجيك وكان ذلك سبباً من الأسباب التي أدت إلى تمرد الجيش في الأيام الأولى للاستقلال .

وهكذا أريد للدول الافريقية حديثة الاستقلال أن تكون غير قادرة على الاعتماد على نفسها في المجال العسكري فهي تحتاج إلى دولة الاستعمار التي تمدها بالسلاح والتدريب في كلياتها ومدارسها العسكرية وأحياناً بالضباط الأوروبيين ، أو على الأقل القيادات العليا من الضباط ، فقد استمرت غانا على سبيل المثال ولعدة سنوات بعد الاستقلال معتمدة على الضباط الانجليز في القيادات العليا للجيش الغاني ، وقد سبب لها ذلك الكثير من المشاكل .

وقد استفادت الدول الاستعمارية التي تحتكر موارد السلاح من هذه الأوضاع واستخدمتها كوسيلة لاستمرار سيطرتها ومباشرة الضغط على الدول الحديثة وقت اللزوم . وكانت الدول الاستعمارية إذا امتنعت عن تقديم السلاح والتدريب فلا تقبل دولة غربية أخرى أن تحل محلها .

أما الالتجاء إلى الاتحاد السوفيتي أو دول الكتلة الشرقية ـ حتى بعد أن فتحت مصر الطريق إلى ذلك ـ فقد كان في البداية أمراً محفوفاً بكثير من المخاطر التي لا تقوى على مواجهتها دولة حديثة الاستقلال ما زالت تجارتها واقتصادها في قبضة الشركات والاحتكارات الغربية .

ومن هنا جاءت أهمية الدور الذي لعبه جمال عبد الناصر في إمداد الدول الافريقية بالسلاح ومساعدتها على كسر احتكار تجارته وإبطال مفعول هذا الاحتكار كأداة من أدوات الاستعمار الجديد ، وقد استطاع عبد الناصر أن يحقق ذلك أولاً لوجود كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة الانجليزية الصنع لم تعد مصر في حاجة إليها بعد تحول الجيش المصري إلى الأسلحة السوفيتية الصنع . وكذلك توفر

المدارس العسكرية والمدرسين القادرين على التدريب على هذه الأسلحة ، وثانياً أصبح في إمكانه توفير الأسلحة الروسية لأي دولة أفريقية تريد ذلك دون أن تكون هذه الدولة مضطرة إلى التعامل مباشرة مع دول الكتلة الشرقية بعد أن أصبح جيش مصر قادراً على توفير الخبرة والتدريب بواسطة خبراء مصريين حيث كان قد اكتمل تدريبهم على الأسلحة الروسية .

وكان عبد الناصر من واقع تجربته يرى أن من حق أي دولة أن تحصل على السلاح الذي يحقق أمنها وأمن مواطنيها ولذلك لم يتردد في مساعدة العديد من الدول الافريقية التي فرض عليها حظر السلاح وهي تناضل من أجل تحقيق استقلالها وتحرير إرادتها .

مصر تسلح وتدرب جيش مالي :

التقى جمال عبد الناصر بالرئيس موديبو كيتا لأول مرة في يناير سنة ١٩٦١ في الدار البيضاء في أثناء انعقاد مؤتمر القمة الافريقي الذي صدر عنه ميثاق الدار البيضاء وقد أعجب كل من الزعيمين بشخصية الآخر وتوطدت بينهما الصداقة بسرعة .

وفي هذا اللقاء سأل عبد الناصر الرئيس موديبو كيتا عن السبب الذي من أجله ترك دول العالم واتجه إلى إسرائيل لتسلح الجيش المالي وتدربه .

فإسرائيل ذيل الامبريالية وأداة لها في الوقت الذي أصبحت فيه مالي في مقدمة الدول التي تحارب وترفض التبعية .

وقال كيتا أن لذلك قصة : فعندما خرجت مالي من المجتمع الفرنسي امتنعت فرنسا عن تسليح الجيش المالي فاتجه كيتا إلى دول

كثيرة يطلب شراء السلاح ولكن دون جدوى ، وكان طبيعياً أن يلجأ إلى كـل من انجلترا وأمـريكـا ، فكـانت ردودهمـا واحـدة إذ أبـدتـا استعدادهما لمساعدة مالي في الحصول على السلاح الذي تريـده ولكن عن طريق اسرائيـل التي يمكنها أن تقـدم السلاح والتـدريب للجيش المالي . وهكذا لم يجد كيتا ـ كـما قال ـ مصـدراً واحداً لتسليـح جيشه سوى اسرائيل .

وقال موديبو كيتا أنه في البداية لم يفهم الحكمة وراء ذلك ، ولكنه سرعان ما عرف الحقيقة . فعندما بدأت عمليـة التسليح كـان السفير الاسرائيلي يتردد عليه كثيراً وكان كيتا يهتم به باعتباره سفير الدولة التي تقدم له السلاح ، وكان السفير الاسرائيلي دائم الحديث عن الطريقة التي قاوم بها اليهود الاستعمار البريطاني أثناء الاحتلال واستـطاع من خلال ذلك أن يترك في نفسه انطباعاً بأن إسرائيل كدولة صغيرة ـ تريد حقاً أن تعيش في سلام كما أنه اقتنع بأنها دولـة تقف ضد الاستعمـار الأمر الذي جعله يطمئن إلى السفير الاسـرائيلي ، إلى أن اكتشف أن هذا السفير يعمل في مالي بتنسيق كامل مع سفراء أمريكا وفرنسا . فقد حدث أن صارح كيتا السفير الاسرائيلي بنيته في اتخاذ بعض الاجراءات ضد مصالـح فرنسـا في بلاده ولم يمض وقت قصـير حتى كان السفـير الفرنسي قد أحيط علماً بكـل أطراف الحـديث . ولسوء حظ السفـير الاسرائيلي أن كيتا لم يكن قد فاتح أحداً بذلك سواه . ثم تأكد له بعد ذلك من أحداث أخرى أن إسرائيل تعمل في مالي لحساب الدول التي تحار ب نظامه .

وهنا عرض عليـه عبد النـاصر أن تقـوم مصر بتسليـح وتدريب الجيش المالي كما قدم له باسم مصر هدية من الأسلحة الصغيرة سوفيتية الصنع تكفي لألف مقاتل ، وكان هذا العدد هو قوام الجيش المالي في

ذلك الوقت وكانت هذه الهدية من الأسلحة بقصد إحلال الأسلحة السوفيتية محل الأسلحة الاسرائيلية المستخدمة في ذلك الوقت .

ووافق موديبو كيتا على الفور . وقامت مصر بناء على هذا الاتفاق بتدريب الجيش المالي وحضرت إلى القاهرة بعثات من الضباط وضباط الصف الماليين للتدريب على الأسلحة السوفيتية كما أوفدت بعثة عسكرية مصرية إلى مالي للاشراف على إنشاء مدارس ومراكز للتدريب على الأسلحة الروسية وتدريب وحدات الصاعقة . وقام منذ ذلك الوقت تعاون بين الجيش المصري وجيش مالي حتى أن زي الجندي هناك أصبح مشابهاً تماماً للزيّ المستخدم في الجيش المصري .

وقد كان من الصعب على دولة في مثل ظروف جمهورية مالي الحديثة الاستقلال أن تنشىء علاقة سلاح مباشرة بينها وبين الاتحاد السوفيتي . فكلنا يعرف ردود الفعل التي أحدثتها صفقة الأسلحة التشيكية التي حصلت عليها مصر عام ١٩٥٥ وكيف آثار ذلك غضب أمريكا والدول الاستعمارية . أما التعامل مع مصر فكان أمراً لا يمكن أن يحدث مثل هذه المضاعفات . فمصر دولة أفريقية ، ووصول بعثة عسكرية مصرية إلى مالي لا يحدث التعقيدات وردود الفعل التي يمكن أن يسببها وصول بعثة عسكرية سوفيتية إلى هذه المنطقة في ذلك الوقت .

وعندما استطاعت مالي أن تجعل من استقلالها حقيقة ، واستطاع موديبو كيتا أن يدعم نظامه ، أصبح قادراً على التعامل مباشرة مع روسيا والحصول على ما يلزمه من سلاح وتدريب .

وجيش الصومال :

وحدث شيء مماثل مع الصومال فعندما كان عبد الرشيد

الشـرماركي رئيسـاً للوزراء وأراد أن ينشىء جيشاً وطنيـاً يـواجـه بـه تحرشات أثيوبيا على حدوده في منطقة الأوجادن ، ويحمي حدوده مـع كينيا حيث كانت القـوات الانجليزيـة ما زالت مـوجـودة قـام رئيس الوزراء بنفسه بزيارة دول أوروبا الغربية بحثاً عن السلاح الذي يريد أن يشتريه . واصطحب معه في رحلته هذه الجنـرال زياد بـري نائب القائد العام في الجيش في ذلك الوقت (رئيس الجمهورية بعد ذلك) ولكنه لم يجد دولة واحدة من بين دول أوروبا تبيع السلاح للصومال ، فالحصول على السلاح قضية سياسية في المقام الأول وليس مجرد سلعة تطرح في الأسواق العالمية ، فقد كانت الدول الغربية وقتها لا ترضي عن سيـاسة عبـد الرشيـد وكـانت تبـاشـر جميـع ألـوان الضغط عـلى حكومته .

وقرر عبد الرشيد أن يتوقف في القاهرة أثناء عودته ويبحث الأمر مع جمال عبد الناصر وانقل هنا كلمات الرئيس زياد بري الذي حضر المقابلة بين عبد الناصر وعبد الرشيد وذلك في حديث له مع الأستـاذ أحمد حمروش نشرته مجلة روز اليوسف في عددها رقم ٢٤٨٨ بتاريـخ ١٦ فبراير سنة ١٩٧٦ . قال عبد الرشيد : كانت مقـابلة جمال عبـد الناصر نقطة تحول في تاريخنا بددت كل اليأس وتدفق الأمل . فقد قرر عبد الناصر أن يعطينا السلاح . بل وقال سوف نتقاسم ما نملك وكان عند كلمته . وأصبح عبد الناصر أملنا وبطلنـا وأصبحت مصر قبلتنـا وأصبحت العسكرية المصرية الثورية نموذجنا . وعرفنا عبد الناصر على السوفيت وبدأت علاقتنا بهم وبتوصية عبد الناصـر حصلنا منهم عـلى السلاح وعلى الخبرة .

وقـد قـامت عـلاقـة وثيقـة أيضـاً بـين الجيش المصـري والجيش الصومالي منذ ذلك الوقت . وعندما قامت الثـورة الصومـالية بقيـادة

الجنرال زياد بري كان عدد كبير من أعضاء مجلس الثورة من الضباط الذين حصلوا على تدريبهم في مصر وقد أعلنت الثورة الصومالية عند قيامها وعلى لسان قائدها : « ان ثورة الصومال ابنة شرعية ورشيدة ووفية لثورة ٢٣ يوليو » .

ويهمني أن أشير هنا إلى أنه رغم تحمس عبد الناصر للتعاون العسكري بين مصر والصومال . فقد كان ينصح دائماً بتحسين العلاقات الصومالية الكينية كما نصح الثورة الصومالية بتجميد خلافاتها مع جيرانها بما في ذلك أثيوبيا . فقد كان عبد الناصر يدرك تماماً أن جميع مشاكل الحدود التي ورثتها الصومال هي من صنع وتخطيط بريطانيا التي تعمدت ذلك قبل رحيلها من الصومال لترهق كل دول المنطقة وتدفعها إلى الاعتماد عليها وعلى الدول التي تحتكر السلاح .

وكان ضد فكرة سباق التسليح بين الدول الافريقية ويقول دائماً في مناسبات كثيرة أمام الزعماء الافريقيين أن الخلاف مع الدول المجاورة أمر مكلف للغاية لأنه عادة يؤدي إلى استخدام السلاح . ولكن هذه النظرة لم تمنعه من تقديم السلاح للصومال على أساس مبدئي أيضاً وهو أن من حق أي دولة أن تحصل على السلاح اللازم لأمنها وأنه لا بد من تقديم المساعدة في هذا المجال لأي دولة أفريقية تتعرض لضغط الدول التي تحتكر تجارة السلاح .

جومو كنياتا يطلب المساعدة العسكرية من جمال عبد الناصر :

أثارت العلاقة العسكرية بين مصر والصومال تساؤلات كثيرة لدى المسؤولين في كينيا بعد استقلالهاخاصة وأن علاقتنا بالزعماء الكينيين كانت علاقة متينة بدأت منذ قيام حركة الماوماو .

وفي عام ١٩٦٤ عندما حضر جومو كنياتا إلى القاهرة لحضور مؤتمر القمة الافريقي الثاني الذي عقد في القاهرة تحدث معي وزير خارجيته (جوزيف مورمبي) متسائلاً كيف تسمح مصر بأن يستخدم سلاحها الذي تعطيه للصومال ضد الكينيين . فقلت أننا لا نسلح الصومال بقصد محاربة كينيا وشرحت له موقفنا من مشاكل الحدود بين الصومال وجيرانها ، وقلت ان مصر التي عرفت معنى احتكار السلاح وقاست منه كثيراً في الوقت الذي كانت حدودها وأمنها مهدداً ترى أن من حق أي دولة أفريقية أن تحصل على السلاح . وأننا على استعداد لتقديم المساعدة لأي دولة في أفريقيا يمنع عنها السلاح بسبب سياستها الوطنية ورغبتها في التحرر كما حدث في الصومال .

وعندما نقلت هذا الحديث إلى الرئيس جمال عبد الناصر كلفني بأن أبلغ وزير خارجية كينيا أن مصر على أتم استعداد للتعاون العسكري مع كينيا على غرار تعاونها مع الجيش الصومالي وذلك لإزالة أي شكوك تكون قد ترسبت في نفوس المسؤولين الكينيين نتيجة مساعداتنا العسكرية للصومال ، ولأننا أيضاً كنا على علم بأن الصومال لا تنوي فتح جبهة على الحدود الكينية . وكان تعاوننا العسكري مع كينيا أيضاً يجعلنا في موقف نستطيع معه تهدئة الجانبين . وقد كان لهذه الرسالة بالفعل أثر كبير في تدعيم الثقة بين جومو كنياتا وجمال عبد الناصر بعد ذلك .

ففي أثناء مغادرة كنياتا لمطار القاهرة عائداً إلى بلاده تحدث إلى جمال عبد الناصر الذي كان في وداعه ـ مشيراً إلى حديثي مع وزير خارجيته وقال انه يريد التخلص من القوات البريطانية الموجودة في كينيا ويريد مساعدة مصر لكينيا في بناء الجيش الوطني . كما قال أنه يريد كذلك اتخاذ بعض الخطوات التي تمكنه من زيادة قبضة الدولة على

الاقتصاد الوطني ، وطلب من عبد الناصر أن أذهب أنا إلى نيروبي في أقرب وقت ممكن لبحث تفاصيل هذه الموضوعات معه والتباحث حول المساعدة التي تستطيع أن تقدمها مصر في هذا المجال .

وبناء على تكليف عبد الناصر سافرت في شهر أغسطس ١٩٦٤ إلى نيروبي واجتمعت بالرئيس كنياتا ووزير خارجيته عدة مرات حضرها سفيرنا هناك في ذلك الوقت ـ السيد ممدوح جبه ـ كما اجتمعت ببعض مستشاري الرئيس كنياتا . وقد كان لنا لقاءات مثيرة حقاً ، فقد كانت كينيا على وشك أن تشهد تحولاً خطيراً في سياستها الداخلية والخارجية ، كان كنياتا يريد أن يتخلص من النفوذ الانجليزي ليس في الجيش فقط ولكنه كان يريد أن يتخلص من السيطرة الانجليزية على الاقتصاد الكيني أيضاً . وكانت لديه دراسات معدة لتنفيذ ذلك وفيها حصر للعديد من الوظائف الحساسة التي يشغلها انجليز ويريد أن يحل محلهم مصريون بمجرد البدء في تنفيذ الخطة وقبل أن تلجأ بريطانيا إلى سحب خبرائها .

كان واضحاً أن هناك صراعاً داخل الحكومة الكينية بين القوى اليمينية التي يتزعمها توم مبويا والقوى اليسارية التي كان يتزعمها اليساري أوجنجاأودنجا. ويبدو أن كنياتا كان يريد أن يحسم الموقف لصالح الاتجاه اليساري التقدمي ولكن بعيداً عن زعامة أوجنجاأودنجا . وكان جوزيف مورمبي وزير الخارجية متحمساً لهذا الاتجاه .

وأثناء زيارتي هذه تم الاتفاق على عدة أشياء محددة تقوم بها مصر من بينها تدريب كتيبة مظلات وإرسال خبراء عسكريين مصريين لتدريب الجيش الكيني بعد التلخص من الضباط الانجليز . وطلب كينياتا عدداً من المستشارين العسكريين يكون من بينهم ضابط أركان حرب برتبة كبيرة للعمل كمستشار لرئيس الأركان . كما كان يترتب

على ذلك إرسال أعداد من الضباط الكينيين للتدريب في القاهرة . وتم الاتفاق أيضاً على تجهيز عدد من الخبراء والفنيين المصريين في بعض المجالات الحيوية الأخرى . وكان كينياتا يريد مساعدة مصر كذلك في إنشاء شركة حكومية للتجارة الخارجية .

وقد تمت الاتصالات الخاصة بهذه الترتيبات بتكتم شديد . واتفقنا على أن تخطرنا الحكومة الكينية بعد ذلك بالتوقيتات التي تحددها لتنفيذ هذه البنود عندما تكون مستعدة لذلك . ولكن أحداً في الحكومة الكينية لم يعاود الاتصال أو الحديث مع سفيرنا هناك بخصوص هذه الموضوعات بعد مغادرتي لنيروبي . وفهم السفير بعد مدة أنه صرف النظر عن هذه الترتيبات .

ولم نعرف الأسباب التي جعلت كنياتا يعدل عن تنفيذ خطته هذه التي تم الاتفاق من قبل على تفاصيلها . ولكن كان من الواضح أن الجناح اليميني في كينيا قد أصبح أكثر خطورة عند كنياتا كما أصبح الزعماء اليمينيون أمثال توم مبويا أكثر قدرة على التأثير في الاتجاه العام للدولة . ويبدو أن هؤلاء قد استغلوا رغبة كنياتا في اتخاذ مثل هذه الخطوات التي كانت ستضعه على طريق التحول الاشتراكي وتصفية النفوذ الانجليزي في كينيا ، وهو طريق صعب في بلد مثل كينيا حيث تتواجد أعداد كبيرة من المستوطنين الأوروبيين الذين ما زالت ارتباطاتهم وثيقة بالمصالح والشركات والاحتكارات الرأسمالية الأوروبية والانجليزية على وجه الخصوص .

ومات كينياتا دون أن يعود إلى هذه الأفكار مرة ثانية بل انه عرف بأنه الرجل الذي رحب ببقاء الانجليز كشركاء في الاستثمار والتنمية بعد أن أخرجهم كقوة استعمارية كما أنه قاد بلاده في طريق الاقتصاد الحر . ولكن حكم كينياتا أدى في النهاية إلى خلل فظيع في الوضع

الاجتماعي ، وأصبح التفاوت الكبير في الدخول ظاهرة خطيرة في المجتمع الكيني .

موقف مع أوغندا :

في عام ١٩٦٥ قام جيش تشومبي من المرتزقة الأوروبيين بتعقب الثوار الكونغوليين إلى داخل حدود أوغندا وشن بعض الغارات على المواطنين الأوغنديين بقصد الارهاب والتخويف من عواقب إيواء الثوار . كما كانت الطائرات القاذفة المقاتلة التابعة لتشومبي يقودها طيارون بلجيك تغير على القرى الأوغندية القريبة من الحدود وتطير على ارتفاعات واطئة وبشكل استفزازي مثيرة رعب الأهالي في هذه القرى ، وكان الهدف الأساسي هو حمل أبوتي على وقف مساعداته للثوار الكونغوليين ـ وقد أثار هذا التصرف ثائرة الرئيس أوبوتي وأزعج الحكومة الأوغندية التي لم تكن تملك من الوسائل ما تستطيع به منع مثل هذا الاستفزاز والعدوان الصارخ على أراضيها .

وإزاء هذا الخطر الذي يهدد بلاده ، طلب الرئيس ميلتون أوبوتي من جمال عبد الناصر إرسال عدد من الطائرات المقاتلة المصرية بطياريها إلى أوغندا لوقف هذه الهجمات . وكان ذلك في رسالة خطية بعث بها الرئيس أوبوتي لي شخصياً طالباً مني أن أشرح وجهة نظره لعبد الناصر وأبلغه بطلبه هذا . ويبدو أن أوبوتي لم يكتب مباشرة لعبد الناصر لأنه كان يخشى رفض عبد الناصر لفكرة المساعدة العسكرية المباشرة التي يطلبها .

وكان من الواضح أن أوغندا تمر بمرحلة حاسمة في تاريخ مواجهتها للاستعمار . فأوبوتي يريد أن يعرف ما إذا كان سيقف وحده في هذه المواجهة ليحدد تبعاً لذلك المدى الذي يستطيع أن يذهب إليه

في تأييد الثوار ومواجهة تشومبي والقوى التي تسانده . ولذلك كان لرد عبد الناصر أهمية كبيرة خاصة وأنه كان من المعتقد أن تشومبي سيتبع نفس الأسلوب مع السودان إذا نجح في وقف نشاط أوبوتي المؤيد للثوّار .

ولذلك جاء قرار عبد الناصر بالموافقة على إرسال نصف سرب من الطائرات الميج ١٧ تنقلها طائرات الانتينوف إلى مطار عنتيبة في أوغندا وكلفني بالسفر فوراً إلى كامبالا لإبلاغ أوبوتي بهذه الموافقة ولأبحث معه بقية التفاصيل والترتيبات والاتفاقات اللازمة لتنفيذ ذلك . وقد قابلت الرئيس ميلتون أوبوتي بمجرد وصولي إلى العاصمة الأوغندية وكان بصحبتي السيد جمال بركات سفيرنا هناك وحضر المقابلة أيضاً وزير الدفاع الأوغندي . وقد أبدى أوبوتي ارتياحه للاستجابة السريعة من الرئيس جمال عبد الناصر وخاصة أن الاعتداءات كانت قد تصاعدت في الفترة الأخيرة وأصبحت تسبب حرجاً شديداً له ولنظامه .

وأثرت مع أوبوتي موضوع وجود الطيارين الاسرائيليين في القوات الجوية الأوغندية وقلت له أنه لا يعقل بطبيعة الحال أن يعمل الطيارون المصريون بجانب الطيارين الاسرائيليين ورد أوبوتي على الفور بأن هذا مطلب عادل وأنه على استعداد للتخلص منهم جميعاً وطلب أن يحل محلهم طيارون مصريون . واتفقنا على بقية التفاصيل الخاصة بحضور الطائرات والطيارين المصريين وكيفية عملهم ومعاملتهم . ثم ترك للرئيس أوبوتي أن يحدد التاريخ الذي يرغب أن تصل فيه الطائرات والبعثة التي ستحل محل الطيارين الاسرائيليين على أن يبلغنا بذلك التاريخ عن طريق سفيرنا في كامبالا ، وكان هذا ما طلبه أوبوتي نفسه .

ولكن مضت مدة طويلة لم يحدد أبوتي تاريخاً ، ثم أبلغنا سفيرنا في كامبالا أن العدوان على الحدود الأوغندية قد توقف تماماً وانتهت الاستفزازات التي كانت تقوَم بها قوات تشومبي وطائراته ، وأن أوبوتي لا يريد تصعيد الموقف طالما أنه حقق غرضه .

ومما لا شك فيه أن الاستجابة السريعة من جانب عبد الناصر وتسرب أخبار هذه الاستجابة كان هو السبب المباشر في وقف العدوان على حدود أوغندا دون أن يرضخ أوبوتي لتهديدات تشومبي . واستمرت حركة الثوار الكونغوليين عبر الحدود واستمرت مساعدات أوبوتي للثورة . وكانت هذه النتيجة مرضية دون شك لكل من أوغندا ومصر .

مساعدات عسكرية أخرى :

وقدمت مصر مساعدات عسكرية أخرى لدول أفريقية كثيرة وجدت في ظروف مماثلة ، ومن تلك الدول الكونغو (برازافيل) . فعندما زحفت جماهير الشعب على قصر الأب يولو مسقطة بذلك أهم ركائز النفوذ الفرنسي في أفريقيا ـ حيث كانت المجموعة الفرنسية تسمى باسم عاصمتها برازافيل ـ تعرض النظام الجديد بزعامة ماسمبا ديبا لضغط فرنسا التي كانت تحاول إسقاط حكمه . وبرزت حاجة الحكومة الجديدة في برازافيل لبناء جيش وطني ، ولذلك كان لجوئها إلى مصر طالبة مساعدتها في إنشاء قوة من المظليين .

ووصلت برازافيل بعثة من الخبراء والضباط المصريين لإنشاء أول مدرسة للمظليين في الكونغو. وكان من بين الضباط الذين تخرّجوا على أيدي الضباط المصريين الرئيس الراحل نجوابي الذي استولى على الحكم بعد ذلك لأسباب قبلية في المقام الأول ولكنه استمر في السياسة

التقدمية التي كان قد أيدها سلفه ، بل ربما كان أكثر تطرفاً في مناهضة الاستعمار . وقد كانت الكونغو برازافيل بزعامة نجوابي من بين الدول التي قطعت علاقاتها بإسرائيل في أعقاب حرب ١٩٦٧ مباشـرة ودون أي طلب أو تدخل من أحد .

وحدث أيضاً أن قدمت مصر هدية أسلحة إلى بورندي عبارة عن كمية من الأسلحة الصغيرة وعدد من الحمالات (وهي عربات مدرعة صغيـرة تسلح برشـاش البرن كـان يستخدمهـا الجيش المصري قبـل التسليح الروسي) وكان ذلك في أعقاب إعلان الجمهورية في بورندي بعد الاطاحة بالحكم الملكي هناك .

وهـذه مجـرد أمثلة لإيضـاح الفكـرة والهـدف من المسـاعـدات العسكرية التي كان يقدمها عبد الناصر للدول الافريقية . وهي تختلف بطبيعة الحال عن فكرة وأهداف الدول الكبرى في تقديم هذا النوع من المساعدة . فلم يكن عبد الناصر بطبيعة الحال يبغي نفـوذاً أو سيطرة على دولة أفريقية وإنما كان الهدف تشجيع هذه الدول عـلى أن تتحرر وأن تقف في وجه أي سيطرة أجنبية ولذلك كان عبد الناصر متنبهاً إلى خطورة سباق التسلح في أفريقيا ولا يريد للدول الافريقية أن تنزلق إلى هذا الطريق ، ولذلك كان يعمل دائماً على احتواء المشاكـل التي تنشأ بين هذه الدول وجيرانها سواء من خلال منظمة الوحدة الافـريقية أو بتدخله المباشر .

الفصل الرابع

ملامح اسلامية لسياسة مصر الافريقية

* مساعدات مصر لمسلمي أفريقيا وأثر ذلك على سياستها الافريقية .
* عبد الناصر يقدم المساعدة لنيجيريا لإنهاء الحرب الأهلية في بيافرا .

مساعدات مصر لمسلمي أفريقيا وأثر ذلك على سياستها الافريقية :

كان لمصر بعد ثورة يوليو نشاط إسلامي واسع في أفريقيـا . وقد أخذ هذا المجال جزءاً كبيراً من المساعدات المادية التي قدمتها مصـر للقـارة وكان ذلـك في شكل بعثـات تعليمية إلى المنـاطق الاسـلاميـة والمدارس التي تفتحها الجمعيات الاسلامية في أماكن كثيرة من القارة ، في زنزبار والصومال وسيراليون وتنـزانيا وكينيـا ونيجيريـا وكل مكـان طلب هذا النوع من المساعدات كما أرسلت كميات كبيرة من الكتب الاسلامية وتعليم اللغة العربية إلى جميع أنحاء القارة .

وقد أقام عبد الناصر الكثير من المساجد في أفـريقيا أو سـاهم في بناءها من خلال الجمعيات الاسلامية العديدة التي تنتشر في كل أنحاء القارة كما أنشأ المراكز الاسلامية التي تجمع المسجد مع المدرسة وتقدم العلاج المجاني .

ووجهت مصر لأفريقيا إذاعة القرآن الكريم على موجة قصيرة كما خصصت إذاعة لتعليم اللغة العربية حيث لوحظ أن معظم المسلمين في القارة وخاصة في شرق أفريقيا يقرأون القرآن بحروفه العربية دون

معرفة باللغة نفسها ، وكان من السهل عليهم تعلمها بعد ذلك بالراديو وخاصة انهم يعتبرون تعلمها جزءاً مكملاً لدينهم . ووزعت أعداد هائلة من كتب تعليم العربية بالراديو وكان الاقبال عليها مذهلاً .

وخصصت المنح الدراسية لأفريقيا في جميع الميادين بما فيها الأزهر الشريف والجامعات والمدارس الأخرى وكان هناك اهتمام خاص بالمناطق الاسلامية . فعلى سبيل المثال كانت المنح الدراسية مفتوحة لارتريا منذ عام ١٩٥٥ بحيث لا يرد أي طالب علم يأتي من ارتريا . وأعطيت التعليمات لأجهزة الأمن على الحدود بألا يمنع ارتري من دخول الأراضي المصرية حيث كان الارتريون يحضرون إليها سيراً على الأقدام للالتحاق بالأزهر وذلك نتيجة للاضطهاد الذي كانوا يلاقونه أثناء حكم الامبراطور هيلاسلاسي حتى أنه طلب من جمال عبد الناصر ـ في إحدى زياراته إلى القاهرة ـ أن تقدم المنح المخصصة للارتريين في الأزهر عن طريق الحكومة الاثيوبية ولكن عبد الناصر رفض متحججاً بأنه لا يستطيع التدخل في شؤون الأزهر .

فقد كان عبد الناصر يرى ضرورة فتح أبواب العلم أمام المسلمين وخاصة في المناطق التي حرموا فيها من فرص التعليم لمجرد أنهم مسلمون . وكان يشعر أن مسؤولية خاصة في هذا المجال تقع على عاتق مصر بصفتها أقدم دولة إسلامية في أفريقيا ، وأكثر دولها قدرة على تقديم هذا النوع من المساعدات .

ورغم أن الدين الاسلامي هو أوسع الأديان انتشاراً في أفريقيا إلا أن المسلمين في معظم أنحاء القارة لم ينالوا من التعليم نفس الحظ الذي ناله المسيحيون فيها . ففي نيجيريا على سبيل المثال كان عدد الطلاب من الشمال المسلم الموجودين في جامعة أبادان عام ١٩٥٩ يبلغ ١٤ طالباً فقط في حين كان عدد الطلاب المسيحيين من الشرق

٣٥٤ طالباً[1] علماً بأن تعداد الشمـال المسلم يصل إلى مـا يقرب من ثلاثة أضعاف سكان الاقليم الشرقي المسيحي .

اجتذاب الأفارقـة إلى الدين المسيحي ، ونشـأ عن ذلك أوضـاع غريبة في كثير من البلاد التي توجد فيهـا أغلبية إسـلامية حيث نجـد الأقلية المسيحية التي نالت قسطاً أوفر من التعليم تتولى مناصب الادارة والحكم في عهد الاستعمار فتستقل الدولـة وعلى رأسهـا هذه الأقليـة المسيحية ، وقد حـدث ذلك عـلى سبيل المثـال في تشاد التي استقلت تحت حكم تومبلباي المسيحي في حين أن الأغلبية الساحقة من سكان تشاد تدين بالاسلام ، وكانت هذه هي نفس الأوضـاع التي أدت إلى الثورة هناك ، ورأينـا أيضاً مشـاكل عـديدة في نيجـريا وتـرجع هـذه الأوضاع إلى أن الدول الاستعمارية كانت تترك التعليم لـلارساليـات التبشيـريـة حيث يمتنـع المسلمـون عن إرسـال أبنـاءهم كـما أن هـذه الارساليات بدورها كانت تركز نشاطها في المناطق الغير إسلامية حتى يسهل بسببها التفاوت في التعليم بين قبائل الايبو المسيحية في شرق نيجيريا وقبائل الهوسا والفولاني في الشمال المسلم .

ولذلك كان عبد النـاصر يـرى أهمية تعليم المسلمـين في أفريقيـا وضرورة أن يكون من بينهم الأطباء والمهندسـون وخريجـو الجامعـات وربمـا كان ذلـك أحد أسبـاب تطويـر الأزهر الشـريف وتوسيـع مجال الـدراسة فيـه لتشتمل عـلى بعض الكليـات العمليـة والتخصصـات الأخرى .

وبطبيعة الحال لم يكن في مقدور مصر أن تتولى مسؤولية التعليم في هذه المناطق كلها ولكنها كانت تريد أن توجـد النخبة المتعلمـة من

---

(١) R.Sklar. Nigerian Political Parties Princeton University U.S.A., 1963

المسلمين في كل مكان من أفريقيا . وكانت مصر تقدم المساعدات إلى مسلمي أفريقيا عن طريق هيئات عديدة منها وزارة الأوقاف والمجلس الأعلى للشؤون الاسلامية والأزهر والمؤتمر الاسلامي في بداية الثورة علاوة على أجهزة الدولة الأخرى .

ولم تشأ مصر أن يصحب هذه المساعدات ضجيج أو دعاية تتناسب مع حجمها ، وذلك لأن مساعدة المسلمين في كثير من الأحوال كانت تثير شكوكاً وحساسيات لدى بعض الزعماء والحكومات خاصة المسيحية التي كانت تسيء فهم دوافع مصر وراء هذه المساعدات متأثرة في ذلك بالدعايات الاستعمارية المغرضة التي حاولت التشكيك في دور الأزهر الشريف ورسالته في أفريقيا .

وحتى الرئيس سيكوتوري لم يسلم من التأثر بهذه الدعاية الظالمة في وقت من الأوقات وكان ذلك في بداية عام ١٩٦٠ عندما لاحظنا فتوراً فجائياً يصيب العلاقات المصرية الغينية . ولم نستطع الاهتداء إلى أسباب ذلك إلا بعد أن اتصل بنا سراً أحد موظفي وزارة الخارجية الغينية من الذين تخرجوا من جامعة القاهرة وكان يعرف حقيقة نشاطنا الافريقي بما فيه النشاط الاسلامي وأهدافه وذلك من خلال تردده على الرابطة الافريقية ومكتب الشؤون الافريقية قبل استقلال غينيا عندما كان يعيش في القاهرة فكشف لنا هذا الموظف عن سر الفتور الفجائي عندما اطلعنا على عدة تقارير سرية أعدت في وزارة الخارجية الغينية وعرضت على الرئيس سيكوتوري وكانت هذه التقارير تحتوي على أخبار مضللة وتحليلات خاطئة تدعي أن عبد الناصر يسعى من خلال الأزهر الشريف ونشاطه الاسلامي العظيم في أفريقيا إلى إقامة امبراطورية اسلامية في القارة تحكم من القاهرة وأن نشاطه هذا يستهدف في المقام الأول الدول ذات الأغلبية الاسلامية مثل غينيا التي

يريد لها أن تصبح جزءاً من امبراطوريته .

وأغلب الظن أن هذه التقارير كـانت قد أعـدت بناء عـلى أخبار مضللة دستها المخابرات الفرنسية بطرق غير مباشرة حيث كانت فرنسا في دعايتها السوداء ضد مصر تحاول إعـطاء هذه الصـورة وخاصـة في الدول الافريقية الناطقة بالفرنسية . واستغلت فرنسا في ذلك ما كتبـه عبد الناصر عن الدائرة الاسلامية في كتابه فلسفة الثورة .

وقد مكننا الاطـلاع على هـذه التقاريـر من القضاء عـلى مخاوف سيكوتوري وإجلاء كل الحقائق أمامه عن نشاطنا الاسلامي في القارة الافريقية فزالت كل حساسية في هذا المجال حتى اننـا كنا نـرسل إلى غينيا في كل عام عدداً من الوعاظ والمقرئين لإحياء ليالي شهر رمضان المعظم فكان سيكوتوري يصطحب بعضهم في جولاته إلى جميع أنحاء غينيا ويقدمهم لجماهيره باعتبارهم علماء الاسلام من الأزهر الشريف منارة الاسلام ، وقد ساعدهم ذلك كثيراً في أداء رسالاتهم التي كانوا يذهبون إلى غينيا من أجلها ، وذهب سيكوتوري بعد ذلك إلى حد أنه كان يرسـل جميع الـطلبة الغينيـين الذين يبعثـون في منح دراسيـة إلى أوروبا لقضاء عدة أيام في القاهرة قبل توجههم إلى مكان البعثة وذلك حتى يشاهدوا بأنفسهم ويلمسوا مدى التقدم الحضاري الذي وصلت إليـه دولة إسـلاميـة أفـريقيـة قبـل أن تبهـرهم الحضـارة والعـواصم الأوروبية .

ورغم أن مصر استطاعت بسرعة أن توطد علاقاتـها بالجمعيـات الاسلامية والطرق الصوفية ومشايخ الاسلام في جميع أنحاء القارة إلا أنها حرصت على أن تبقى هذه العلاقة في نطاقها الديني والثقافي فقط وبعيدة تماماً عن نشاطنا السياسي الذي كنا نباشره من خلال الأحزاب الوطنية وحركات التحـرير في المنـاطق الخاضعـة للحكم الاستعماري

ومن خلال الحكومات الافريقية وتنظيماتها السياسية بعد الاستقلال .

فعلى سبيل المثال كانت لنا علاقة قوية متينة بـالطريقـة التيجانيـة الواسعة الانتشار في غرب أفريقيا وشيخها ابراهيم انيـاس الذي كنـا نقدم له العون المادي والثقافي قبل استقلال دول غرب أفـريقيا وبعـد ذلك أيضاً . وكان هذا الشيخ يستقبل في القاهرة بكل حفاوة وتكريم حتى أنه كان في كثير من الأحيان ينزل في أحد قصـور الضيافـة وكان عبد الناصـر يستقبله في منزلـه كلما حضر إلى القـاهرة هـذا في الوقت الذي نعلم فيه أن من تعاليم هذه الـطائفة الاذعـان للسلطة حتى ولو كانت سلطة الاحتلال ، فقد كان عبد الناصر يقول انه مهما كان ومهما قيل عن هؤلاء المشايخ فهم الذين حفظـوا الاسلام ونشـروا الثقافـة الاسلامية والعربية في هذه المناطق الافريقية ، ومن هذا المنطلق كانت مساعدة مصر لهم .

وقـد زرت بنفسي الشيخ ابـراهيم انياس حيث يعيش في مـدينة كاولاك بالسنغـال ورأيت المدارس والجـوامع التي تعلم الـدين واللغة العربية ورأيت الكتب والمجلات المصرية تصل إلى هذا المكان البعيـد والجميـع في كاولاك كـان يستمع إلى إذاعـة صوت العـرب من إذاعة القاهرة عـلاوة على بـرامج الـولوف التي تـذيعها القـاهرة من خـلال البرامج الموجهة إلى شعب السنغال ، وفوجئت عندما رأيت العديد من تلاميذ الشيخ يحفظون مقتـطفات طـويلة من خطب عبـد الناصـر في مجالات مختلفة ، وكان ذلك كله قبل الاستقلال وفي وجود الاستعمار الفرنسي . ويبدو أن تعاليمهم الخاصة بالاذعـان للسلطة مكنتهم من ممارسة نشاطهم الثقافي والديني في فترات القهـر الاستعماري . وقـد كانت صلتنا بهذه الطرق والطوائف فقط من أجل المسـاعدة في تعليم المسلمين ونشر الدعوة الاسلامية الصحيحة .

وقد ابتعد عبد الناصر عن إقامة أي تكتلات من الدول الاسلامية في أفريقيا حتى لا يضيف تقسيمات جديدة ترتكز على أسس دينية إلى جانب التقسيمات الأخرى العديدة التي فرضت على القارة والتي من شأنها تعطيل الوحدة في أفريقيا وإرهاق الدول الحديثة الاستقلال وصرفها عن عدوها الحقيقي وهو الاستعمار ووسائله الجديدة .

ولنفس هذه الأسباب كان عبد الناصر يفضل دائماً أن يعرض مشكلة فلسطين في أفريقيا كقضية سياسية وليست مجرد قضية دينية ، فهي قضية استعمار استيطاني وتفرقة عنصرية وهو أمر تفهمه الدول الافريقية جيداً حيث توجد نماذج الاستعمار الاستيطاني في جنوب أفريقيا وروديسيا وحيث المعاناة من التفرقة العنصرية .

وقبل استقلال كينيا مباشرة ظهرت فكرة استقلال الساحل الكيني بعيداً عن كينيا . فمعظم سكانه من أصل عربي ويعتنقون الاسلام . وحضرت وفود من مسلمي هذه المنطقة تطلب مساعدة مصر لتحقيق هذه الفكرة وأبلغنا هؤلاء أن الانجليز أوحوا لهم بأنهم لا يمانعون في استقلال الساحل ولكنهم يريدون أن يروا تزايد الدعوة حول هذه الفكرة حتى يمكنهم الاستناد إلى ذلك عندما يقدمون على هذه الخطوة . كما علمنا منهم أنهم حضروا إلى القاهرة بعلم السلطات البريطانية .

ولا أعرف إذا كان الانجليز في ذلك الوقت يريدون بهذا التحريض السافر تحقيق فكرة تقسيم كينيا بالفعل أم كان هدفهم هو فقط توريط مصر للوقيعة بينها وبين الحركة الوطنية في كينيا بزعامة كنياتا وحزب كانو . ومهما كان الهدف وراء ذلك فقد كانت مصر ترفض الفكرة من أساسها . فمصر ضد سياسة البلقنة التي كانت تقوم بها الدول الاستعمارية في أفريقيا بقصد إنشاء دويلات صغيرة مع توريثها كل أسباب الخلاف بينها وبين جيرانها الأمر الذي يجعلها تعيش

في خطر دائم معتمدة على حماية الاستعمار . وأهم من ذلك كله كانت مصر تخشى أن يؤدي قيام دويلة إسلامية عربية في هذه المنطقة وعلى حساب دولة أفريقية هي كينيا إلى حملة اضطهاد ضد بقية العرب والمسلمين في منطقة شرق أفريقيا كلها وظهور التفرقة بين العربي والافريقي وهو أمر ليس في مصلحة العرب ولا مصلحة الاسلام الذي استعاد قوته وسرعته في الانتشار من مبادئه السمحة . فالاسلام لم يعرف الحاجز اللوني الذي لا يسمح للرجل الأبيض بأن يندمج ويختلط مع قرينه صاحب البشرة السوداء . فقد كان لسمو الحضارة الاسلامية في هذا الشأن أثره في انتشار الاسلام وتكوين الشعب السواحيلي في هذه المنطقة . هذا الشعب الذي نشأ من اختلاط الجاليات العربية والفارسية بقبائل البانتو الافريقية . ولا شك ان اقتطاع هذا الجزء من كينيا وتركها دون منفذ على المحيط كان من شأنه أن يثير بقية العناصر الغير مسلمة في المنطقة على العرب والمسلمين ، ويحد بالتالي من انتشار الاسلام الذي ما زال ينمو في سرعة تفوق نمو أي دين آخر .

ولنفس هذه الأسباب كان موقف مصر من ثورة زنزبار عندما قامت في يناير سنة ١٩٦٤ وأنهت حكم السلطان وقتلت أعداداً كبيرة من مؤيديه . فقد أثارت هذه الثورة اهتمام مصر وقلقها في البداية . فالنظام القديم هناك كان على صلة وثيقة بمصر كما كان زعيم الحزب الحاكم السيد علي محسن شديد الالتصاق بالقاهرة وكانت لنا بحزبه صلات ثقافية وثيقة قبل الاستقلال وبحكومته بعد الاستقلال . وقد صورت أجهزة الاعلام الغربية هذه الثورة في البداية على انها مقتل أمة عربية بل قال عنها الكثيرون انها مذبحة المسلمين في زنزبار .

وكان الأمر أبعد ما يكون عن ذلك ، فجميع سكان زنزبار من المسلمين وبالتالي لا يمكن لهذه الثورة أن تكون ضد المسلمين . ولكنها

في حقيقة الأمر كانت ثورة اجتماعية ، ثورة ضد السلطان والطبقة الحاكمة التي تراكمت في يدها ثروة البلاد . وكانت هذه الطبقة التي قامت ضدها الثورة تتكون في معظمها من العرب . فالسلطان من أصل عربي منذ بسطت عمان في عهد أسرة اليعاربة سيطرتها على الجزيرة في أوائل الثلاثينات من القرن الثامن عشر بعد أن خلصتها من الحكم البرتغالي .

أما غالبية الشعب في زنزبار فهم ممن اختلطت فيهم الدماء الفارسية بقبائل البانتو الافريقية منذ أن خضعت الجزيرة لدولة الزنج التي أسّسها الفرس عام ٩٧٥ ميلادية على ساحل أفريقيا الشرقي متخذين من كلوة عاصمة لهذه الدولة . كما اختلطت فيهم أيضاً الدماء العربية اختلاطاً كبيراً نتيجة اختلاط العرب الذين جاءوا إلى هذه الجزيرة كتجار واختلطوا بأهلها منذ فجر التاريخ .

وكانت سيطرة القلة الحاكمة التي كانت تزهو بأصلها العربي من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى ظهور الافروشيرازية كانتماء وأصل جذب الأغلبية العظمى من شبه الجزيرة في مواجهة هذه القلة . حدث ذلك رغم أنه من غير الممكن في حقيقة الأمر وضع الحدود الفاصلة بين ما هو عربي وما هو شيرازي أو فارسي في الشعب السواحيلي الذي تتكون منه الغالبية العظمى من سكان زنزبار والتي اختلطت فيها الأصول العربية والفارسية بأصل البانتو الافريقي .

ورغم إدراك القاهرة للأبعاد الاجتماعية لثورة زنزبار منذ البداية إلا أنها كانت قلقلة خشية أن تتجاوز الثورة هذه الأبعاد فتتحول إلى كراهية واضطهاد تنتقل من الجزيرة إلى الساحل الافريقي ضد كل ما هو عربي ، خاصة وان إذاعات معظم الدول العربية كانت قد بدأت

حملة من الهجوم الشديد على الثورة في الوقت الذي كانت المشاعر الافريقية في دول الساحل تؤ يدها وتباركها .

ورأى عبد الناصر أن اعتراف مصر السريع بثورة زنزبار من شأنه أن يضع حداً لعمليات القتل والاضطهاد ضد العناصر القديمة في زنزبار ، كما أنه يعطي الفرصة للثورة لكي تؤكد بعدها الاجتماعي وتكشف عنه فتعمل على وقف حملة الكراهية ضد العرب . وقرر إيفادي لمقابلة القادة الجدد في زنزبار بقصد تحقيق هذه الأهداف .

وقد رحب النظام الجديد في الجزيرة بخطوة مصر هذه واستقبلت بحفاوة بالغة . فكان في استقبالي في المطار أعضاء مجلس قيادة الثورة ووجدت انني أعرف معظمهم والكثير منهم كان قد سبق له الاقامة في مصر . وقد تأكد لنا ما كان قد سبق وصوله لنا من معلومات وما كان قد سبق وصولنا إليه من تقديرات بخصوص هذه الثورة التي شوهت أجهزة الاعلام الغربية وجهها في الأيام الأولى ، ولمسنا حرص النظام الجديد في زنزبار على تعزيز صلته بالدول العربية وبمصر على وجه الخصوص .

وفي هذا الجو الجديد استطاعت مصر أن تبدي اهتمامها بسلامة الزعماء السابقين الذين كانوا قد أُعتقلوا والذين كانوا على صلة سابقة بنا ومنهم السيد علي محسن . وبعد أن استقرت الأمور وأفرج عنهم حضر العديد منهم للاقامة في القاهرة .

وكان من نتائج ثورة زنزبار اتحاد الجزيرة مع تنجانيقا في دولة جديدة هي تنزانيا (زنزبار وتنجانيقا) وقد أيدنا هذا الاتحاد الذي رأى فيه البعض اختفاء دولة إسلامية ورأينا نحن فيه ازدياد نفوذ المسلمين في شرق أفريقيا . فتعداد المسلمين في تنجانيقا يفوق تعداد زنزبار

كلها ، ولكن تأثيرهم كان محدود لتخلف مستواهم الثقافي ، فالتعليم كما سبق أن أوضحنا من قبل كان متروكاً في عهد الاستعمار الانجليزي للارساليات التبشيرية في معظمه، بعكس زنزبار التي كان سكانها جميعاً من المسلمين وحصلوا على نصيبهم من التعليم علاوة على جهود مصر الثقافية في هذه الجزيرة والاعداد الضخمة التي كان يرسلها علي محسن لتتعلم في القاهرة . هذا علاوة على ارتفاع المستوى الحضاري للجزيرة التي كان يحكم منها الساحل الشرقي الافريقي في وقت من الأوقات .

وبعد الاتحاد مع زنزبار استفادت تنزانيا بـالكفاءات المـوجودة في الجـزيرة وعـين منهم الوزراء والمـديرون والسفـراء وحتى نائب رئيس الجمهورية أصبح يعين من المسلمين من أبناء زنزبار ، وانعكس ذلك كله عـلى أوضاع المسلمـين في تنزانيـا وزالت الحساسيـات التي كانت تتواجد عـادة ضد المسلمـين في الدول الأفـريقية التي تستقـل بعد أن يصبح الحكم فيها للوطنيين من غير المسلمين . فقد سبق أن حـاولت مصـر على سبيـل المثال إقـامة مـركـز إسـلامي في دار السـلام بعيـد الاستقلال مباشرة ولكنها لم تنجح في الحصول عـلى موافقـة الحكومـة الجديدة . أمـا بعد إعـلان الاتحـاد الجـديد وإقـامة دولـة تنزانيـا فقد أنشأت مصر أكبر مركز إسلامي لها في أفريقيا في دار السلام العاصمة التنزانية بعد أن أصبح المسلمون هناك يتمتعون بمكانة خاصة .

وهكذا بعد أن كان الاسلام في منطقة شـرق أفريقيـا محصوراً في دويلة صغيرة لم يتعد عدد سكانها المليون نسمة تحيطها دول تتربص بها وتخشى نفوذها الاسلامى في المنطقـة حيث تنتشر الأقليـات المسلمة ، أصبح تأثير الاسلام ونفوذه عظيماً في دولة أكبر تعداداً (عشرة ملايين في ذلك الوقت) قادرة بدورها على التأثير في منطقتها وفي أفريقيا كلها . وقد انعكس ذلك بالتالي على العلاقة الوثيقة التي نشأت بعد ذلك بين

عبد الناصر والرئيس نيريري فزار عبد الناصر تنـزانيا وجـزيرة زنـزبار وحضر نيريري الى القاهرة وتوثقت الروابط بين البلدين إلى حد بعيد .

ولم يقتصر تأثير ثورة زنزبار واتحادها في دولة تنزانيا على هذا المجال الاسلامي فقط وإنما تعداه إلى أبعد من ذلك . فقد كان الاتحاد بداية التحول نحو الاشتراكية في تنزانيا . فرغم أن الرئيس نيريري عبر عن فكره الاشتراكي بعـد ستة شهـور فقط من الاستقلال في تنجـانيقا في ورقتـه المشهورة التي عـرفت بـاسم يـوجـامـا « Ujama » أي أسس الاشتراكية الأفريقية إلا أن الخطوات العملية لم تبدأ إلا بعد قيام الدولة الجديدة وتشجيع شركاءه الجدد الذين كان حماسهم للتحول الاشتراكي كبيراً . فكان إعلان أروشا الشهير في عام ٦٧ الذي أعلن فيه نيريري ما سمي « إعلان السياسة الاشتراكية وسياسة الاعتمـاد على النفس » وكانت هذه هي الخطوات العملية نحو التحول الاشتراكي الحقيقي في تنزانيا .

وكان من نتائج الاتحاد أيضاً فتور العلاقات بين تنزانيا وإسرائيل التي كـانت قد نجحت في إقـامة عـلاقات طيبـة مع تنجـانيقـا عقب الاستقلال مباشرة في الوقت الذي كانت فيه زنزبار ترفض إقـامة أي علاقة مع إسرائيل وحاولت إسرائيل فتـح قنصلية لهـا في زنزبـار بعد الاتحاد الجديد ولكنها قوبلت أيضاً بـالرفض كـما رفضت محاولاتهـا في إقامة أي علاقة من نوع آخر مع الجزيرة ، وكان على نيريري والحكومة التنزانية مراعاة شعور شركاءهم الجدد وشعور المسلمين في كل تنزانيا الـذين تأثـروا بموقف زنـزبار فـأصبحت تنزانيـا بعد ذلـك من الدول المؤيدة للحق العربي في الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الافريقية وجميع المحافل الدولية ، وأدى ذلك إلى فتور العلاقات بين تنزانيا وإسرائيل .

وهكـذا نجد أن ثـورة زنزبـار كانت ثـورة في صـالـح الاسـلام

والمسلمين وفي صالح العرب وأصبح لهذه الثورة تأثير عظيم في الدولة الجديدة ، فقديماً قالوا : « إذا دقت الطبول في زنـزبار رقصت شـرق أفريقيا » .

وفي ارتيريا حيث الأغلبية الاسلامية ، كانت مصـر أول دولة في العالم تقف مع الشعب الارتري وتساعده على مقاومة اضـطهاد حكم الامبراطور هيلا سلاسي الرجعي وتعصبه ضد المسلمين .

فقد كانت ارتيـريا تـرتبط بأثيـوبيا في اتحـاد فيدرالي أقـرته الأمم المتحدة وكان هذا الاتحاد يسمح لارتيريا بأن تحتفظ بشخصيتها وكيانها حيث كانت لها لغتها الخاصة وقوميتها كما كان لها برلمانها وحكومتها . ولكن الامبراطور هيلاسلاسي كان يسير في مخطط يهدف إلى القضـاء على الشخصية الارتيرية تمـاماً تمهيـداً لإذابتها وجعلهـا مجرد إقليم من أقاليم أثيوبيا ، وتركزت السلطة في يد الحاكم العام لارتريا والذي كان يعينـه الامبـراطـور وزاد عـدد المـوظفـين الاثيـوبيـين بشكـل جعلهم مسيطرين على الجهاز الاداري سيطرة تامة هنـاك . ووصل الأمـر إلى حـد إلغاء اللغـة التجرينيـة لغة ارتيـريا الأصليـة وحلت محلها اللغـة الأمهرية التي أصبحت وحدها اللغة الرسمية لكل أثيوبيا .

وكـان المسلمون الارتـريون مضـطهدين أيضـاً لكونهم مسلمـين شـأنهم في ذلك شـأن جميع مسلمي أثيـوبيا الـذين يشكلون أكثر من نصف السكان هناك . ورغم ذلك لم نكن نجد لهم أثـراً في المناصب الرئيسية للدولة وتركوا في حالة من الفقر والتخلف يرثى لها .

وكان يحـلو لهيلاسلاسي أن يصف بلاده بأنها جزيرة مسيحية يحيط بها المسلمون من كل ناحية ، وهذا ما كان يقرأه القادم إلى إديس أبابا في كتيبات السياحة التي تقدمها الدولة متجاهلة بذلك نصف سكـانها من المسلمين .

وكانت أثيوبيا منطقة نفوذ أمريكية ، وسمح هيلاسلاسي لأمريكا بإقامة قاعدة جوية وقاعدة اتصال في أسمرة العاصمة الارترية ، كما سمحت أثيوبيا لإسرائيل بعمل شركات في ارتيريا كان أهمها شركة انكودا توطئة لجعل ارتيريا قاعدة لتجارتها ونشاطها الاقتصادي في شرق أفريقيا ، واتخذت إسرائيل من أسمرة أيضاً قاعدة لنشاط مخابراتها في المنطقة كلها .

وقامت أثيوبيا أيضاً بنشاط واسع في السودان لحساب الولايات المتحدة الأمريكية يهدف إلى محاربة فكرة الاتحاد بين مصر والسودان وكان ذلك في فترة الانتقال التي حددتها الاتفاقية التي أبرمتها مصر مع إنجلترا بشأن السودان في فبراير سنة ١٩٥٣ ، وأصبح مكتب الاتصال الاثيوبي في الخرطوم قاعدة أساسية من قواعد النشاط المناهض لمصر هناك .

وكان لأثيوبيا دور خطير في تدعيم الحركات الانفصالية في جنوب السودان كما عملت باعتبارها إحدى الدول المشتركة في حوض نهر النيل على عرقلة أي اتفاقية جديدة خاصة بتوزيع مياه النيل . وكان الاتفاق بين مصر والدول المشتركة معها في حوض النيل أمراً ضرورياً في ذلك الوقت حتى تستطيع مصر المضي في تنفيذ مشروع السد العالي .

وذهب هيلاسلاسي في عدائه للثورة المصرية إلى حد العمل على فصل الكنيسة الأثيوبية واستقلالها تدريجياً عن كنيسة الاسكندرية التي كانت تعين بطريرك أثيوبيا وترسم مطارنة الكنيسة الأثيوبية وكانت تتمتع بمكانة ونفوذ عظيمين هناك .

ومن أجل ذلك كله اتخذت مصر موقفاً واضحاً من القضية الأرترية وفي بداية عام ١٩٥٥ اتخذت عدة قرارات متعلقة بهذه القضية

وذلـك بعد تقييم شـامل لـموقف أثيوبيـا ودراسة الأوضــاع في أرتيريـا وهي :

أولاً : توجيه إذاعة من القاهرة إلى شعب ارتريا باللغة التجرينية لغة البلاد التي ألغاها هيلاسلاسي ـ وخصصت هـذه الاذاعة لفضـح خطط أثيوبيا التي كانت تتخذها للقضاء على الكيان الارتري كما كان من أهداف هذه الاذاعة مواجهة ومهاجمة سياسة الامبراطـور المتخلفة والمبنية على التعصب الديني .

ثانياً : فتح أبواب الأزهـر الشريف والتعليم العـام والجامعـة في مصر أمام الطلبة الارتيريين وعمل خطة لاستجلاب أعداد كبيرة منهم لشغل المنح التي تخصص لهم وذلك رداً على إهمال هيلاسلاسي لتعليم المسلمين هناك .

ثالثاً : قبول اللاجئين السياسيين من ارتريا واحتضانهم والسماح لهم بـالعمل السيـاسي في القاهـرة . وقد حضـر إلى القاهـرة الزعيم الارتري المعروف ولد آب ولد مـاريام الـذي نجا من سبـع محاولات اغتيال دبرتها ضده السلطات الاثيوبية مما جعل منه أسطورة في ارتريا . ثم جاء زعماء غيره هم ابراهيم سلطان وآدم ادريس وكثيرون آخرون بعد ذلك .

رابعاً : تقديم المساعدات المادية للحركات الارترية التي تناهض هيلاسلاسي وسياسته .

ورغم أن مصر تقيدت في سياستها الافـريقية بعـدم التدخـل في شؤون أي دولة أفريقية مستقلة وقصرت مساعداتها لحركات التحرير على تلك الموجودة في مناطق الاستعمار فقط حتى لا تضع أعبـاءاً على الحكومات الافريقية ، إلا أن الوضع بالنسبة لأثيوبيا كان مختلفاً تمـاماً

لعدة أسباب : أولها لأن هيلاسلاسي هو الذي بدأ في سياسته العدوانية ضد مصر وتحالف مع إسرائيل . وثانيها لأن الوضع في ارتريا يختلف عن مجرد رغبة شعب أو إقليم في الانفصال كما حدث على سبيل المثال في كاتنجا أو بيافرا أو جنوب السودان ، فقد كان شعب ارتريا يناضل من أجل الحفاظ على الأوضاع الدستورية التي أقرتها الأمم المتحدة وكان هيلاسلاسي هو المعتدي على هذه الأوضاع علاوة على الاضطهاد الديني الذي قام على أساسه حكم هيلاسلاسي .

وعندما قامت منظمة الوحدة الافريقية في عام ١٩٦٣ واتخذت اديس ابابا مقراً لها ، حاول هيلاسلاسي أن يغير من صورته امام الأفارقة ، فعمل على ألا يصطدم بالمشاعر الوطنية في أفريقيا حتى ولو أدى الأمر إلى الوقوف في صف حركات التحرير في كثير من الأحيان ، كما عمل الامبراطور على ألا ينحاز بصفة دائمة داخل منظمة الوحدة الافريقية إلى القوى الرجعية التي كان هو بكل تأكيد جزءاً منها ، فكانت سياسة هيلاسلاسي الافريقية لا تعكس بأي حال من الأحوال أوضاعه أو سياسته الداخلية بل على العكس من ذلك كان يحاول بسياسته الافريقية المتطورة أن يصرف الأنظار عن حقيقة أوضاعه الداخلية المغرقة في التخلف والرجعية والتعصب الديني ، كما كان يحاول أيضاً أن يصرف الأنظار عما يرتكبه من جرائم في حق الشعب الارتيري . وكان أخطر هذه الجرائم هو قراره بضم ارتريا نهائياً إلى أثيوبيا مستنداً إلى تمثيلية جرت في البرلمان الارتري اتخذ فيها هذا القرار المصيري الخطير بالتصفيق وليس بأخذ الأصوات ودون سماع صوت المعارضة بعد أن كان قد أعد لهذه التمثيلية مزوراً بذلك إرادة الشعب الارتري ، وبفعلته هذه كان هيلاسلاسي قد بذر بذور الثورة الارترية .

ولا شك أن قيام منظمة الوحدة الافريقية كان سبباً في الحد بعض الشيء من نشاطنا في ارتريا ، على الأقل من الناحية الاعلامية والدعائية ، فرغم أننا رفضنا طلب هيلاسلاسي المتكرر بوقف الاذاعة التجريبية من القاهرة إلا أننا اضطررنا إلى وقف الهجوم الذي كانت تشنه هذه الاذاعة ولكن مجرد الاصرار على بقاء هذه الاذاعة كان يحدد بكل تأكيد موقف مصر المؤيد للكيان الارتري .

ويهمني في هذا المجال أن أشير إلى نقطتين : الأولى أننا لم ننظر لمشكلة ارتريا كمجرد مشكلة دينية فقط بل اننا كنا نرى الأبعاد السياسية للقضية ونضعها في المقدمة وهي تتلخص في حق الشعب الارتري في تقرير مصيره ، ولذلك حرصنا على أن يكون لنا اتصال أيضاً بالعناصر المسيحية في ارتريا من أمثال ولد آب ولد ماريام الذي كان يتولى الاذاعة التجرينية . والنقطة الثانية هي انه لم يكن وليس لنا أي مصلحة في أن تستقل ارتريا بعيداً عن أثيوبيا ، فهذا شيء متروك للشعب الارتري نفسه . ولكننا كنا مع شعب ارتريا وهو يقاوم اضطهاد الامبراطور وقهره وحكمه الفاسد عندما أراد أن يعتدي على حقوق الشعب الارتري التي ضمنها له دستوره وأقرتها الأمم المتحدة . وإذا استطاع أن يعود الشعب الارتري في يوم من الأيام إلى الوضع الفيدرالي القديم أو إلى وضع شبيه بذلك وحصل على ما يضمن له حقوقه في وجود حكم وطني في أثيوبيا اعتقد ان ذلك سيكون في مصلحة كل مسلمي أثيوبيا ويشد من أزرهم ويجعلهم أكثر قدرة على التأثير في أثيوبيا كلها خصوصاً إذا أمكن القضاء على روح التعصب الديني الذي توطد في حكم هيلاسلاسي ولن يكون ذلك بخلق تعصب مضاد من جانب المسلمين ، وأعتقد أن موقف الدول العربية من هذه القضية وطريقة معالجتها في هذه الفترة بالذات سيكون له تأثير كبير في حسم الموقف .

عبد الناصر يقدم المساعدة لنيجيريا لإنهاء الحرب الأهلية في بيافرا:

في شهر أغسطس ١٩٦٧ تسلم جمال عبد الناصر رسالة من الكولونيل جوان رئيس حكومة نيجيريا الفيدرالية ، ورئيس المجلس العسكري هناك يعرض فيها الخطر الذي تتعرض له بلاده نتيجة غارات الطائرات التي أصبح يمتلكها أجوكو قائد الانفصال ببيافرا - والتي أصبحت تقصف العاصمة لاجوس يومياً دون أن تجد أي مقاومة الأمر الذي خلق حالة من الذعر أصابت الأهالي وسكان العاصمة على وجه الخصوص .

وأوضح جوان في رسالته أنه استطاع الحصول على عدد من الطائرات الميج ١٧ أمده بها الاتحاد السوفيتي ولكنه لا يجد الطيارين الذين يمكنهم العمل على هذه الطائرات . ومضى جوان يقول انه يعرف الظروف العسكرية الصعبة التي تمر بها مصر كما يعرف انها تحتاج لكل مقاتل ولذلك فإنه لا يرجو مساعدة منها ولكنه فقط يرجو عبد الناصر أن يستخدم نفوذه لإقناع الرئيس الجزائري هواري بومدين حتى يمده بعدد من الطيارين الجزائريين المدربين على طائرات الميج ١٧ الموجودة لديه حيث أنه فشل في الحصول على طيارين من أي مكان آخر بما في ذلك الاتحاد السوفيتي ، وأوضحت الرسالة أن مسألة الحصول على هؤلاء الطيارين أصبحت مسألة حياة أو موت .

وكانت الحرب الأهلية في نيجيريا قد اندلعت منذ أعلن الكولونيل أجوكو الحاكم العسكري لإقليم شرق نيجيريا استقلال الاقليم باسم جمهورية بيافرا وذلك في ٣٠ مايو سنة ١٩٦٧ ، والزم أجوكو شركات البترول بعدد من الرسوم الجمركية وعوائد البترول تدفع لحكومته الجديدة ، واستطاع الحصول على عدد من الطائرات يعمل عليها

طيارون من المرتزقة الأوروبيين أغلبهم من الذين كان قد استأجرهم تشومبي عندما قام بمحاولته الانفصالية في إقليم كاتنجا ، وأصبح الخطر الذي تتعرض له نيجيريا الفيدرالية بمحاولة انفصال إقليم بيافرا الغني بالبترول شديد الشبه بذلك الخطر الذي سبق أن تعرض له الكونغو بمحاولات فصل إقليم كاتنجا الغني بالمعادن .

وكان انفصال بيافرا يعني تمزيق نيجريا تماماً واستقلال بقية الأقاليم النيجيرية الأخرى . وكان هذا بالفعل ما ينادي به اجوكو الذي كان يرى أن أسس الوحدة الفيدرالية قد انهارت تماماً بعد المذابح التي أقامها الشماليون المسلمون لقبائل الايبو من سكان الاقليم الشرقي . كما كان يرى أن الحل الوحيد هو إقامة اتحاد (كونفدرالي) من أربعة دول مستقلة تماماً هي الأقاليم الأربعة في نيجيريا وأن يكون لكل منها جيش وبوليس مستقلين وسيطرة كاملة على مواردها الاقتصادية .

وكانت المشكلة في حقيقتها ذات أبعاد دينية وقبلية وثقافية وسياسية فنيجيريا التي كان يبلغ تعدادها ٥٥,٤ مليون نسمة (وفقاً لإحصاء عام ١٩٦٣) مقسمة إلى أربعة أقاليم متحدة فيدرالياً علاوة على منطقة لاجوس العاصمة حيث توجد الحكومة الفيدرالية . وأكبر هذه الأقاليم هو الاقليم الشمالي الذي كان تعداده قد وصل إلى ٢٩,٨ مليون نسمة معظمهم (أكثر من ٧٥ ٪) من قبائل الهوسا المسلمة . والاقليم الغربي ١٤,٤ مليون نسمة منهم حوالي ٥٠ ٪ من المسلمين ، أما الاقليم الشرقي وفقاً لنفس الاحصاء ـ فيبلغ تعداده ١٠,٣ مليون نسمة يكاد يكون جميعهم من المسيحيين ، وأخيراً الاقليم الغربي الأوسط وكان تعداده يبلغ ٢,٥ مليون نسمة فقط غالبيتهم من المسيحيين .

وقد جاء تمركز المسيحيين في شرق نيجيريا نتيجة للسياسة التي وضعها الانجليز أثناء الحكم الاستعماري ، فقد اهتموا بتعليم قبائل الايبو التي لم يكن قد دخلها الاسلام وذلك عن طريق الارساليات التبشيرية التي انتشرت في كل مكان من شرق نيجيريا فتحولت هذه القبائل إلى المسيحية وارتفعت نسبة التعليم فيها في الوقت الذي أهملت فيه المناطق الاسلامية من كل جهد حقيقي للتعليم . وأصبحت أهم المناصب الادارية في نيجيريا في يد المتعلمين من قبائل الايبو المسيحية وهي الأقلية التي اعتمدت عليها الادارة الانجليزية كعادتها في الاعتماد على الأقليات أينما وجدت .

ثم ظهرت الثروة البترولية في الاقليم الشرقي فتولد إحساس لدى قبائل الايبو بأنهم أصحاب القوة الاقتصادية والثقافية وانهم التعبير عن التقدم التكنولوجي . واتجه هؤلاء بأنظارهم إلى الدول الغربية حيث الحضارة والمدنية التي بهرت مثقفيهم وجعلتهم يتصورون فيها الخلاص من كل مشاكلهم خاصة وانهم كانوا قد ضاقوا بسيطرة الشمال المسلم رغم تخلفه كثيراً عن شرق نيجيريا .

فالشماليون المسلمون في نيجيريا يسيطرون على الحكم الفيدرالي هناك بحكم الأغلبية والارتباط القبلي والاقليمي الذي تدور حوله الحياة السياسية . وهي سيطرة يكفلها لهم نظام الحكم الفيدرالي والديموقراطية الليبرالية التي نص عليها دستور البلاد الصادر عام ١٩٦٣ ، وقد زادت الممارسات الحزبية بعد الاستقلال من الاحساس بالمرارة الناتجة عن سيطرة الشمال وذلك لدى سكان المناطق الجنوبية في نيجيريا بصفة عامة ولدى قبائل الايبو في شرق نيجيريا على وجه الخصوص .

وكانت هذه هي الأسباب التي أدت إلى الانقلاب الأول في نيجريا

في ١٥ من ينـايـر سنـة ١٩٦٦ حيث قـام عـــدد من ضبـاط الجيش معظمهـم من قبائل الايبو بتدبير مؤامـرة اغتالـوا فيها معـظم الزعـماء المرموقين للشـمال المسلم وعلى رأسهم زعيم الشمال المعروف السردونا أحمدوبيللو رئيس الوزراء في الإقليم الشمالي وتفادوا باليو رئيس الوزراء الفيدرالي . وتولى السلطة في البلاد الجنرال ايرونسي وهو من الاقليم الشـرقي . وعطل ايـرونسي الدستـور بعد أن خـول جميع السلطات التنفيذية والتشريعية الفيدرالية وأصبح قائداً للقوات المسلحـة ورئيساً للحكومة العسكرية التي تولت السلطة التنفيذية في البلاد .

ثم أصدر الجنرال ايرونسي مرسـوماً بـإلغاء النـظام الفيدرالي في نيجيريا وجعلها دولة بسيـطة موحـدة وألغى الأقاليم الأربعـة . وكان القصد من هذه الاجراءات الجديدة القضاء على سيطرة المسلمـين في الشمال ، وصحب ذلك ازديـاد أعداد المتعلمـين من قبائـل الايبو في الجهاز الاداري والفني في شمال نيجيـريا . وكـانت هذه الأعـداد قد استقدمت لتدعيم سيطرة النظام الجديد .

وقد أدت هذه القرارات والاجراءات إلى مظاهرات واضطرابات عنيفة في الاقليم الشمالي الذي وجد أبناءه أن النظام الجـديد يسلبهم كل شيء بعد أن قتل قادتهم وزعمـائهم الذين كـانوا يتمتعـون أيضاً بمكانة دينية كبيرة . وخـرجت الجماهـير الغاضبـة في الشمال تـطالب بـالانفصال الفـوري للشمال . ثم امتـد هـذا السخط إلى العنـاصـر الشمـاليـة داخـل الجيش فكـان الانقـلاب الثـاني الــذي تم في أول أغسطس سنة ١٩٦٦ . وقتلت القوات الثائرة الجنرال ايرونسي وعدداً كبيـراً من ضباط وجنـود الايبو انتقـاماً لمقتـل زعماء الشمـال في ينايـر السابق . كما حدثت مذابح شعبية للعديد من أفراد قبائل الايبو الذين كانوا قد نزحوا للاقامة في الشمـال . وهرب أكـثر من مليون ونصف

مواطن من الشمال إلى الشرق تاركين وظائفهم وأموالهم وممتلكاتهم .

وأعلن تعيين الكولونيل يعقـوب جوان وهـو ضابط من الشمـال خلفاً للجنرال ايرونسي . ثم أصدر جوان مرسـوماً أعـاد فيه النـظام الفيدرالي إلى نيجيريـا كما كـان قبل الانقـلاب الأول وبالتـالي هدأت النفوس في الاقليم الشمالي .

ورغم أن الجنرال الجديد كان شمالياً إلا أنه اختير مسيحيـاً حتى تهدأ النفوس في الأقاليم الأخرى ، وكان لذلك بالفعل أثره الطيب في اقليمي الغرب والغرب الأوسط ، أما في الاقليم الشرقي فقـد كانت المرارة تملأ القلوب لما حدث لعناصر الايبو من مذابح وتشريد مضافة إلى خيبة الأمل الناتجة عن فشل الانقلاب الأول الـذي وإن كان قـد انتهى إلا أن أسبابه لم تكن قد انتهت وعادت لتفرض نفسها من جديد بعودة النظام الفيدرالي القديم .

وجاء رد الفعل لهذه المرارة من الحاكم العسكري للاقليم الشرقي أجوكو الذي قاد الحركة الانفصالية هنـاك . فقد أعلن أنـه لا يعترف بـالجنرال جـوان رئيس الحكومـة العسكريـة الجديـدة لأن ما تم ضـد الجنرال ايرونسي أمر غير شـرعي وانه من المستحيـل أن يعمل أفـراد القـوات المسلحة من الاقليم الشـرقي في جيش يضم الشماليـين بعد المذابح التي قاموا بها ضد قبائل الايبو .

وطالب أجوكو بإنشاء اتحاد كونفدرالي من الأقاليم الأربعة لتصبح دولاً مستقلة تماماً لكـل منها جيش وبـوليس واقتصاد مستقـل على أن تجمعها منظمة خدمات مشتركة وسوق اقتصادية يكون مقرها لاجوس العاصمة .

وقد بذلت محـاولات كثيرة لإعـادة القانـون والنظام إلى نيجيـريا

كلها . وكانت هذه المحاولات تسعى إلى تعديل الأوضاع بما يضمن حقوق الأقليات في نيجيريا ، ولكن مع الابقاء على وحدة نيجيريا داخل الاطار الفيدرالي ، فقد تدخلت حكومة غانا للتوفيق بين القادة العسكريين والسياسيين ، ولكن كل هذه الجهود باءت بالفشل وأعلن أجوكو استقلال الاقليم الشرقي تحت اسم جمهورية بيافرا في ٣٠ مايو سنة ١٩٦٧ ، وذلك لأن فكرة الانفصال كانت قد اختمرت في ذهنه بعد أن وجد العون والتشجيع من بعض الدول الغربية التي رأت في مصلحتها قيام دولة جديدة من عناصر الايبو المسيحية التي يتوفر لديها الكوادر الفنية الادارية بالاضافة إلى الثروة البترولية فمن الطبيعي أن يكون ارتباط هذه الدولة المسيحية الجديدة بالدول الغربية وبالتالي يمكن تسليحها واستخدامها لإخضاع هذه المنطقة الاسلامية . وكان يشجع على هذا الاعتقاد وجود العداء القبلي التقليدي بين قبائل الايبو في الشرق وقبائل الهوسا في الشمال . هذا العداء الذي عمقته الأحداث الأخيرة التي سالت بسببها الدماء من كلا الطرفين بما يؤكد استمرار العداء بينهما ووجوده بالقدر الذي يضمن مصالح هذه القوى .

وقد كان على رأس هذه القوى صاحبة المصلحة في الانفصال والتي شجعت أجوكو الولايات المتحدة الامريكية التي كانت استثماراتها في نيجيريا قد بلغت ٢٠٠ مليون دولار معظمها في ميدان البترول الموجود في هذا الاقليم الشرقي . ومما لا شك فيه أن الولايات المتحدة الامريكية تهتم بالسيطرة على منابع البترول في هذه المنطقة التي يصل بترولها إلى العالم الغربي دون المرور في قناة السويس أو دول منطقة الشرق الأوسط الملتهبة بأوضاعها السياسية المضطربة .

وكانت شركات الاستثمار والمؤسسات ذات النفوذ القوي في

غرب افريقيا وأهمها المؤسسات الانجليزية والألمانية تجد هي الأخرى مصلحتها في انفصال الاقليم الغني وتجد في خلق كيان جديد على هذا النحو في بيافرا أمراً يمكن أن يحمي مصالحها في المنطقة كلها .

ولهذه الأسباب تدفقت على أجوكو كميات كبيرة من الأسلحة وحصل على الطائرات التي كانت تغير على لاجوس العاصمة حيث توجد الحكومة العسكرية الفيدرالية كما وصل بيافرا المرتزقة الأوروبيون من الذين يؤيدون كل انفصال يحدث في الأقاليم الافريقية الغنية والتي تتركز فيها رؤوس الأموال والسيطرة الأوروبية . وكانت المؤسسات الأوروبية والأمريكية ذات المصالح في هذه المنطقة تشارك في تمويل عمليات التسليح وتسهل وصول الأسلحة إلى الاقليم الشرقي .

وكانت قد توفرت لدينا في ذلك الوقت معلومات تفيد بتدفق كميات كبيرة من الأسلحة الاسرائيلية إلى بيافرا . وقد يكون ذلك أيضاً من تخطيط السياسة الأمريكية إلا أن إسرائيل نفسها كانت لها مصلحة في تفتيت نيجيريا التي تضم أكبر تجمع إسلامي في أفريقيا . كما كان لإسرائيل استثمارات هي الأخرى في نيجيريا وتطمع في أن يكون لها وضع مميز في الدولة الجديدة الغنية ، لذلك شجعت الانفصال وقدمت مساعداتها إلى أجوكو .

كان هذا هو الوضع في نيجيريا عندما تسلم جمال عبد الناصر طلب رئيس الحكومة العسكرية في نيجيريا التوسط لدى بومدين من أجل إرسال الطيارين القادرين على التصدي لغارات اجوكو الجوية . . وكان ذلك أيضاً بعد أسابيع قليلة من هزيمة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ وفي الوقت الذي يستعد فيه عبد الناصر لحرب الاستنزاف وتهيئة الجيش لتحرير أرض مصر المحتلة ولكنه لم يكن قد انتهى بعد من تهيئة الأوضاع الداخلية ـ بمشاكلها المترتبة على هزيمة يونيو العسكرية ـ

لمواجهة المرحلة الجديدة . فقد كان المشير عبد الحكيم عامر ما زال في بيته بالجيزة ، وقد حوله إلى قلعة عسكرية ويحاول الاتصال بضباط الجيش والوحدات لتعزيز مركزه من جديد .

وفي ٢٥ أغسطس طلبني عبد الناصر ليبحث معي موضوع رسالة الكولونيل جوان . وقال عبد الناصر أنه يعرف جيداً أن الحكومة العسكرية في نيجيريا لن تحصل على طيارين لا من الجزائر ولا من أي مكان آخر . فقد تعرضنا في مصر لموقف مشابه في يونيو سنة ١٩٦٧ ولم يستجب أحد لندائنا ، فإرسال طيارين أمر يختلف كثيراً عن مجرد إرسال معدات عسكرية .

وقال عبد الناصر أنه لا يريد أن يلقى الحكم في نيجيريا نفس الصدمة التي لقيناها في مصر لأن هذا الحكم العسكري قد يضعف أمام صدمة مماثلة فيذعن لقوى الانفصال والقوى المحركة له . وهذا ما تريده أمريكا التي يهمها ارهاب الحكومات الافريقية حتى تخضع لسيطرة وحكم المؤسسات والشركات الرأسمالية والاحتكارات المرتبطة بالامبريالية .

وقال عبد الناصر أننا لا نريد أن تنتكس أفريقيا بما حدث لنا في يونيو ١٩٦٧ . يجب أن يكون هذا أساساً واضحاً في استراتيجيتنا .

وكان من الواضح أن استقلال بيافرا بهذه الطريقة هو خلق لكيان جديد في هذه المنطقة يمكن أن يلعب لحساب أمريكا والدول الاستعمارية دوراً مماثلاً لذلك الدور الذي تلعبه اسرائيل في الشرق الأوسط .

ولهذه الاعتبارات كلها قرر عبد الناصر مساعدة الحكومة الفيدرالية في نيجيريا لمقاومة الحركة الانفصالية في بيافرا والابقاء على

وحدة نيجيريا . وكان ذلك بالاستجابة لطلب الكولونيل جوان بإرسال الطيارين المطلوبين . ونظراً لأن الظروف وقتها لم تكن تسمح للقوات الجوية المصرية بالاستغناء عن أي طيار مقاتل فقد كلفني عبد الناصر بأن يكون ذلك من بين الطيارين الذين تركوا الخدمة بالقوات الجوية لأية أسباب .

وقام مكتب الشؤون الافريقية بمصر بحصر هؤلاء الضباط واستدعائهم على دفعات وتم الاتفاق مع السلطات النيجيرية على أن تأخذ العملية شكل التعاقد الفردي بين الأفراد والحكومة النيجيرية وذلك لتجنب التعقيدات الدولية الناتجة عن تدخل مصري مباشر . أي أنها اتخذت في مظهرها شكل المرتزقة الأوروبيين ، ولكن في حقيقة الأمر كان هؤلاء أبعد ما يكونوا عن أن يوصفوا بهذا الوصف . فقد كانت الحكومة المصرية هي التي تكلفهم وتنظم هذا التعاقد معهم وتستدعي منهم من تريد . كان هناك ضابط اتصال مصري في لاجوس على اتصال مباشر بمكتب الشؤون الافريقية يتم عن طريقه كل ما يتعلق بشؤون هؤلاء الضباط ويقوم بالتنسيق مع السلطات النيجيرية .

وكان دافع هؤلاء الضباط هو خدمة الأهداف الوطنية المصرية في المقام الأول ، تلك الأهداف التي اتفقت مع مصلحة نيجيريا الفيدرالية . ولا زلت أذكر لقائي مع الدفعة الأولى من الطيارين الذين استقبلتهم لأكلفهم بهذه المهمة وكيف تركز اهتمامهم كله على الرغبة في معرفة مدى وكيفية تأثير نتائج هذه الحرب النيجيرية علينا وأهمية ذلك بالنسبة لمعركتنا الأساسية التي مع إسرائيل دون أن يسأل أحد عن قدر المرتب أو المكافأة والامتيازات التي سوف يحصل عليها . وكنت سعيداً لمشاهدة هذا الحماس قبل أن أبلغهم بالمرتبات العالية التي

كانت الحكومة النيجيرية قد قررت دفعها للطيارين المقاتلين . وقد أعيد معظم هؤلاء الطيارين بعد ذلك إلى الخدمة في القوات الجوية المصرية مكافأة لهم على أعمالهم في نيجيريا ، وكان ذلك كله في واقع الأمر يبعد عنهم صفة المرتزقة تماماً . ولكننا في ذلك كنا نحارب القوى الاستعمارية بأحد أساليبها التي استخدمتها ضد قوى التحرير في الكونغو وجنوب السودان وفي أماكن كثيرة من أفريقيا لضرب حركات التحرير .

ووصلت الدفعة الأولى من الطيارين المصريين بقيادة المقدم الطلياوي إلى لاجوس بعد أيام قليلة ، وقام هؤلاء في نفس يوم وصولهم بالطيران الواطي بطائرات الميج في سماء العاصمة النيجيرية ، وكان ذلك إيذاناً بإنهاء غارات أجوكو الجوية بصفة نهائية حيث لم تكن أنواع الطائرات التي يستخدمها بقادرة على مواجهة طائرات الميج الروسية والتي كان يستخدمها الطيارون المصريون . وقد استقبل سكان العاصمة لاجوس ظهور طائرات الميج في سماءهم بالفرح والتهليل حيث كانوا يعيشون في رعب من هذه الغارات ومن القصف الجوي الذي كانت قد زادت حدته في الفترة الأخيرة .

وكان الواجب الذي كلف به الطيارون المصريون هو الدفاع عن سماء نيجيريا في المناطق التي تحدد لهم وكذلك ضرب المطار الذي كانت تمتلكه بيافرا وجعله غير صالح للعمل بصفة دائمة ، وكان معنى ذلك وقف الامداد العسكري إلى بيافرا والذي كان معظمه يصل عن طريق الجو .

وزاد عدد الطيارين المصريين في نيجيريا بتقدم الحرب وإنشاء كلية طيران في لاجوس لتدريب الضباط النيجيريين واضطررنا إلى الاستعانة بطيارين من القوات الجوية المصرية لاستكمال الأعداد المطلوبة

وكذلك أطقم الصيانة والخدمة الأرضية والاتصال اللاسلكي . ولم يكن من السهل وقتها إقناع الفريق فوزي وزير الحربية بذلك إلا بعد قبول شروطه وقتها في أن يتغير الأفراد كل ٣ شهور وأن يكون له الحق في استدعاء جميع الأفراد التابعين للقوات الجوية المصرية الموفدين في هذه المهمة وذلك في ظرف ٤٨ ساعة من إبلاغي بهذا الطلب . وقد حدث بالفعل أن أستخدم الفريق فوزي حقه في هذا الاستدعاء عندما تصاعدت حرب الاستنزاف . وقد كانت الصعوبة في استعواض الفنيين من غير الطيارين لأن عددهم كان كبيراً . ولكن أمكن استعواضهم جميعاً خلال ٤٨ ساعة عن طريق الحصول على كشوفات بأسماء المسرحين من القوات الجوية المصرية من الفنيين وأطقم الصيانة واللاسلكي والخدمات الأرضية الأخرى ، ثم تم الاتصال بهم والعمل على إخلاء سبيلهم من الجهات التي كانوا يعملون بها في الوزارات المختلفة ، وبذلك لم تتوقف العمليات الجوية في نيجيريا .

أما بالنسبة للطيارين فقد بقي منهم من كان خارج قوة السلاح الجوي المصري وكان عليهم القيام بمجهودات مضاعفة . واستمرار بقاء هؤلاء الطيارين إلى أن تحقق النصر لقوات نيجيريا الفيدرالية وهرب اجوكو إلى ساحل العاج واستسلمت قواته وتم القضاء نهائياً على محاولة الانفصال في بيافرا . ومما لا شك فيه أن قرار عبد الناصر الثوري بإرسال الطيارين المصريين إلى نيجيريا كان له فضل كبير في حسم المعركة لصالح القوات الفيدرالية .

وحتى لا أدع مجالاً لما قد يراود القارىء من تساؤلات حول الأعباء الاضافية التي تكون قد تحملتها مصر نتيجة لموقفها من مساندة الحكومة الفيدرالية في هذا الوقت ، أوضح أن مصر لم تتحمل أي عبء مادي . فقد كانت الحكومة النيجيرية تدفع ثمن المعدات التي تحصل

عليها من مصر بالعملات الصعبة ، وقد كانت هذه المعدات في أغلبها قطع غيار وبعض الطائرات التي كانت تستغني عنها القوات الجوية المصرية وذخيرة وقنابل طائرات وبعض المعدات الأخرى التي كان من السهل استعواضها من الاتحاد السوفيتي . وكان الثمن يدفع فور الاستلام لحساب وزارة الحربية المصرية التي كانت تستخدم هذه الحصيلة في شراء بعض مستلزماتها من الأسواق الأوروبية التي تحتاج إلى العملة الصعبة مثل الجنازير اللازمة لصناعة المدرعة التي تنتجها مصر والتي تشترى من اسبانيا .

وقد دفعت حكومة نيجيريا أجور ومرتبات جميع الطيارين والفنيين المصريين الذين اشتركوا في هذه المهمة وكذلك أجر النقل الجوي الذي كانت تستلزمه عمليات الاستعواض السريعة . وكان ذلك كله يدفع بالعملة الصعبة . فقد كان الاتفاق مع حكومة نيجيريا على أن تتحمل جميع الأعباء المالية المترتبة على المساعدات المصرية وذلك نظراً للظروف التي كانت تمر بها مصر من إعادة بناء لقواتها المسلحة وحاجتها إلى تعبئة كل مواردها من أجل معركتها مع إسرائيل ولأن نيجيريا كانت قادرة على الدفع الذي لم يكن مشكلتها .

وكانت أهم مشاكل نيجيريا في حربها هذه تتركز أولاً في الحصول على الطائرات وما يلزمها من أسلحة ومعدات وهذه حصلت عليها من الاتحاد السوفيتي بعد أن فشلت في شرائها من أسواقها التقليدية التي كانت تتعامل معها قبل الحرب الأهلية . فقد فرضت الدول الغربية حظراً على نيجيريا في الوقت الذي كان أجوكو يحصل فيه على ما يريد من الطائرات والأسلحة التي كان يصله بعضها على طائرات الصليب الأحمر وذلك على حساب ما كان يؤكده المسؤولون في حكومة نيجيريا الفيدرالية . أما المشكلة الثانية فكانت الحصول على الأفراد المدربين

للعمل على هذه الطائرات والمعدات الجديدة وكانت مصر هي الدولة الوحيدة التي استجابت لنداء نيجيريا في الوقت المناسب ثم كانت مشكلة الاستعواض السريع للذخيرة وقطع الغيار ووصولها في الوقت المناسب وهذا أيضاً ما قدمته مصر .

ولا بد لنا من وقفة أمام الظروف التي اتخذ فيها عبد الناصر قرار تقديم المساعدة. فهذا القرار وإن لم يكلف مصر أعباءاً مالية إلّا أنه دون شك كان يحمل معنى التحدي للقوى التي تقف خلف حركة الانفصال في بيافرا . وكان يعني أن عبد الناصر رغم هزيمة يونيو العسكرية ورغم مشاكله الداخلية التي كان يواجهها في ذلك الوقت لم يتحول عن سياسته المناهضة للاستعمار والامبريالية وانه كان ما زال يؤمن بوحدة النضال بين الشعوب التي تقاوم نفس العدو كما كان يؤمن بأن انتكاسة أي شعب من هذه الشعوب لا بد وأن تؤثر على نضال الشعوب الأخرى ، ولذلك أحس عبد الناصر بمسؤوليته حيال أحداث نيجيريا باعتبارها بداية لهجمة جديدة يقوم بها الاستعمار والولايات المتحدة الأمريكية لإرهاب الشعوب الافريقية في أعقاب هزيمة ١٩٦٧ .

ولنفس هذه الأسباب كانت فرحة عبد الناصر بثورة السودان وبثورة ليبيا من بعدها لأنها كانت تعني في نظره عودة المد الثوري إلى العالم العربي وإلى القارة الافريقية من جديد .

وقد ترتب على موقف مصر من المساعدة النيجيرية أن أصبحت نيجيريا من الدول المؤيدة للقضية الفلسطينية والحق العربي وذلك في جميع المجالات الدولية والافريقية بعد أن كانت من الدول المتحفظة في ذلك .

وقد أيدت معظم الدول الافريقية حكومة نيجيريا في موقفها من

اجوكو وطريقة معالجتها لمشكلة الانفصال . فموضوع الانفصال بصفة عامة موضوع كريه عند معظم الدول الافريقية خصوصاً تلك التي يهددها شبح الانفصال دائماً وهي كثيرة في أفريقيا ـ وذلك لوجود تقسيمات قبلية غير منسجمة أو وجود مناطق داخل الدولة لم تنصهر بعد في الوطن الجديد .

أما الدول الافريقية التي أيدت الانفصال في نيجيريا ودافعت عن حق بيافرا في الاستقلال فكان عددها قليلاً كما كانت في معظمها من بين الدول التي عرفت بارتباطاتها بدول غربية مثل ساحل العاج وملاوي ولم يكن لرأي هذه الدول وزن كبير أو تأثير داخل منظمة الوحدة الافريقية . ولكن المشكلة الحقيقية كانت في موقف الرئيس نيريري رئيس جمهورية تنزانيا من هذه القضية . فقد كان يرى هو الآخر أن من حق بيافرا أن تنفصل عن نيجيريا وأن تحصل على استقلالها . وكان نيريري يقف موقفه هذا من منطلق مختلف تماماً عن موقف الدول التي أيدت الانفصال لمجرد أنه يخدم السياسة الغربية في أفريقيا . فثورية نيريري وإحساسه بالانتماء الافريقي وتقدميته كلها ليست موضعاً لجدل أو نقاش . فكان نيريري يقول انه يرفض الوحدة إذا كان ثمنها أرواح المواطنين . وهو بذلك يعارض العنف الذي كانت تقوم به الحكومة الفيدرالية في مواجهة الحركة الانفصالية في نيجيريا . واعتقد أن وراء منطق نيريري هذا كانت هناك أيضاً أسباب دينية فالرئيس نيريري كاثوليكي متدين ويبدو أنه تأثر كثيراً بحملة الدعاية الواسعة التي قامت في أوروبا واشتركت فيها جميع أجهزة الاعلام الغربية لصالح أجوكو واستقلال بيافرا مصورة المشكلة على انها صراع بين أقلية مسيحية في مواجهة الأغلبية المسلمة التي تريد أن تقضي على كيان هذه الأقلية وتنتقص من حقوقها . وبالغت هذه الدعاية كثيراً في

تصـوير المجـاعات والأخـطار التي تعرض لهـا سكان بيـافرا حتى انها نجحت في هز مشاعر أوروبا كلها وتحريك الكنيسة الكاثوليكية . وقد تناست هذه الدعاية ان اجوكو ورفاقه هم السبب في هذه الكارثة وأن القتل والعنف بدأ أولاً من الاقليم الشرقي عندما قامت مجموعات من قبائل الايبو بذبح الزعماء المسلمين في الشمال واستولت على السلطة في الانقلاب العسكري الأول .

وكان الرئيس كاوندا رئيس زامبيا المتدين يقف هـو الآخر مـوقفاً مشابهاً لموقف نيريري ولكن ربما بدرجة أقـل حماسـاً . ولذلـك كنا في مصر حريصين على ألا يتسبب موقفنا في قضية بيافرا المخالف لمـوقف نيريري وكاوندا في تعكر العلاقات الطيبة والوثيقة التي كانت تـربطنـا بكل من تنزانيا وزامبيا . كما كنا نخشى أن تمتد آثار الحرب النيجيرية ـ إذا فهمت عـلى أنها مجرد حـرب دينية بـين الشمـال المسلم والشـرقي المسيحي ـ لتصبح حرباً أو صراعاً بين المسيحيين والمسلمين في أفريقيا كلها فتكون وبـالاً على الأقليـات الاسلاميـة في بعض بلاد القـارة . ولذلك فقد كلفت بالذهاب إلى دار السلام ولوساكا في زامبيا لأشرح لكل من الرئيسين نيريري وكاوندا دوافع مصر وراء مساعدة نيجيريـا ولأوضح لهما أننا نعالج هذه المشكلة من منطلق بعيد كل البعد عن أي نظرة دينية متعصبة .

وبعد انتصار الحكومة الفيدرالية واستعادة نيجيريـا لوحـدتها أراد جوان أن يعبر عن شكره وتقديره للرئيس جمال عبد الناصر وذلك بأن جعل القاهرة أول عاصمة يزورها بعد انتهاء الحرب الأهلية وكان ذلك في سبتمبر سنة ١٩٧٠ ، حيث حضر إلى القاهرة في زيارة رسمية وكان أول لقاء بين عبد الناصر وجوان . وأبدى الرئيس النيجيري رغبته في توثيق عرى الصداقة بين البلدين وخاصة في ميدان العلاقات التجارية

والتبادل الفني . وكانت هذه العلاقات قد قطعت بالفعل شوطاً كبيراً أثناء الحرب النيجيرية ، فعلى سبيل المثال وصل عدد الأطباء المصريين الذين تم لهم التعاقد مع الحكومة والمستشفيات النيجيرية خلال هـذه المدة أكثر من ٣٠٠ طبيب بالمستشفيات النيجيرية علاوة على عدد من أساتذة الجامعات أعيروا لجامعة اباذان في نيجيريا .

كما زاد نشاط شركة النصر للتصدير والاستيراد المصرية في نيجيريا وامتد عملها إلى الاشتراك في تسويق المحـاصيل النيجيـرية إلى جميـع أنحاء العالم سواء عن طريق العمليات الثلاثية أو مباشرة . هذا علاوة على زيادة حجم التبادل التجاري بين البلدين زيادة ملحوظة .

وهكـذا نجد أن المـوقف المبدئي الـذي وقفته مصـر بمساعـدتهـا نيجيريا الفيدرالية لإنهاء الحرب الأهلية في بيافرا فتح أمام مصر أيضاً أفاقاً جديدة لعلاقاتها الاقتصادية والثقافية مع نيجيريا .

الفصل الخامس

عبد الناصر وأزمة الكونغو

* بداية الأزمة الكونغولية وأسبابها .
* إرسال قوات مصرية إلى الكونغو .
* مهمة خاصة لمقابلة لومومبا .
* مقتل لومومبا واندلاع الثورة في الكونغو .
* رد عبد الناصر على مقتل لومومبا .
* عودة الحكم المركزي وإنهاء الانفصال في كاتنجا .
* اشتعال الثورة من جديد .
* موقف عبد الناصر من الغزو البلجيكي الأمريكي للكونغو .
* نهاية الأزمة الكونغولية ونتائجها .

كانت أزمة الكونغو في بـداية الستينـات علامـة بارزة في تـاريخ النضـال الافـريقي أدت إلى صـراع عنيف بـين قـوى الاستعمـار والامبريالية من ناحية وقوى التحرر الوطني في أفريقيا تسـاندهـا قوى التقدم العالمية من ناحية أخرى .

وقد كشفت أزمة الكونغو عن أبعاد جديدة لهذا الصراع ، حيث كانت هذه هي المرة الأولى التي تدخل فيها الولايات المتحدة الامريكية بثقلها في مجال السياسة الافريقية . وكان هناك قبل ذلك من يعتقد في تعاطف أمريكا مع الأماني الوطنية للشعوب وانـه في مقدور الحركات الـوطنيـة الاستفـادة من هـذا التعـاطف في معـركتهـا للتخلص من الاستعمار والاحتلال الأجنبي ، ولم يكن قـد سبق لأحد من الـزعماء الافريقيين ان اصطدم اصطداماً فعلياً بالسياسة الأمريكية سوى جمال عبد الناصر الذي كان قد خاض معركـة الأحلاف العسكـرية عنـدما حاولت أمريكا فرضها على المنطقة .

لقد كانت أزمة الكونغو صراعاً تجسد فيه أمام الافـريقيين المعنى الحقيقي للاستعمار الجديد . وقد لعبت مصر دوراً هـاماً ورئيسيـاً في هذا الصراع ، وقفت فيه إلى جانب القوى الوطنيـة . وكان لـدورها

هذا أثر كبير في سير الأحداث ليس في الكونغو فقط ولكن في أفريقيا كلها التي تأثرت كثيراً بأزمة الكونغو وبالصراع الدائر بسببها .

وقد أحدثت أزمة الكونغو انقسامات خطيرة بين دول أفريقيا وقامت بسببها تكتلات سياسية في القارة أدت في النهاية إلى قيام منظمة الوحدة الافريقية بمجرد انفراج هذه الأزمة . ولكن سرعان ما عادت أزمة الكونغو من جديد لتعيد الانقسام والتكتل مرة ثانية بين دول القارة ولكن داخل المنظمة الجديدة هذه المرة . وكادت الانقسامات أن تعصف بمنظمة الوحدة الافريقية الوليدة لولا تدخل الحكماء من رؤساء الدول الافريقية الذين استطاعوا أن يوجدوا الصيغة الملائمة للتعايش بين الاتجاهات المختلفة للدول الافريقية ووضع الحدود لهذا الصراع التي لا يجوز الخروج عنها .

بداية الأزمة الكونغولية وأسبابها :

بدأت قصة الكونغو والأزمة التي ألقت بظلالها على القارة الافريقية كلها وشغلت العالم لأكثر من خمس سنوات في ٨ يوليو ١٩٦٠ بعد ثمانية أيام من إعلان الاستقلال . وكان ذلك عندما تمرد الجيش الكونغولي بتحريض من ضباطه وكانوا جميعاً من البلجيك ـ ووزع الجيش أسلحته على المدنيين البلجيك فعمت الفوضى في البلاد وأنهار القانون والنظام .

بعد ثلاثة أيام من هذا التمرد أعلن مويس توشمبي حاكم إقليم كاتنجا انفصال الاقليم الذي تتركز فيه معظم ثروات الكونغو . وكان ذلك بتحريض من البلجيك الذين سارعوا بإرسال خمسة آلاف جندي إلى الكونغو ، رغم اعتراض رئيس الوزراء وحكومته التي أعلنت أن تصرف بلجيكا هذا عدوان على سيادة الكونغو .

واتضحت المؤامرة الاستعمارية التي استهدفت الاستيلاء على المناطق الغنية في الكونغو وذلك باختلاق بلجيكا للظروف والأسباب التي تبرر عودتها ثانية للسيطرة على مقدرات الكونغو من جديد . وقد جاء ذلك بعد أن كانت قد فشلت خطتها في السيطرة على الأحزاب الكونغولية حيث استطاع لومومبا أن يكتل عدة أحزاب ويكسبها إلى جانبه فحصل على الأغلبية البرلمانية التي تؤهله للحكم . ولم تجد بلجيكا مفراً من إسناد رئاسة الحكومة إليه .

وكان هذا مخالفاً تماماً لما أرادته بلجيكا ومخالفاً لتقديراتها عندما سبق أن سمحت بتكوين الأحزاب في الكونغو على أساس قبلي . فقد كانت تتصور حينئذٍ أن في استطاعتها ـ بواسطة المستوطنين البلجيك وإمكانياتهم الضخمة ـ السيطرة على هذه الأحزاب التي ستبقى محصورة في اتجاهاتها القبلية وانتماءاتها الاقليمية .

ولكن لومومبا الذي كان يدعو إلى إقامة حكومة موحدة مركزية على غرار حكومة الرئيس انكروما في غانا ، حقق بدعوته هذه نجاحاً لم يكن يتوقعه البلجيك الذين كانوا يساعدون الزعماء القبليين للابقاء على النفوذ القبلي في الأقاليم حتى يسهل لهم استمرار السيطرة . ومن المعروف ان بلجيكا طوال حكمها للكونغو لم تقم بأي محاولة جدية لتأهيل الوطنيين أو تدريبهم لتسلم السلطة أو الاشتراك فيها . ففي يناير سنة ١٩٦٠ عندما تقرر استقلال الكونغو بعد ستة شهور وكان ذلك في ما عرف باسم مؤتمر المائدة المستديرة ، لم يكن هناك أفريقي واحد من الوطنيين يشغل منصباً هاماً في الحكومة المحلية . وكان عدد الوطنيين في الجهاز الاداري كله ٦٤٠ أفريقي جميعهم في الوظائف الدنيا من ١٠,٠٠٠ إجمالي عدد المشتغلين في هذا الجهاز . كما لم يكن هناك اعداد تذكر من الافريقيين خريجي الجامعات . ولم يكن هناك

وطنياً واحداً برتبة ضـابط في الجيش الكونغولي حيث اقتصرت هـذه الرتب على البلجيك وحدهم .

وبناء على حالة الفوضى والنهب والسلب التي سادت العاصمة بعد انهيار الأمن في البلاد ، طلب لومومبا ـ في ١١ يوليو سنة ١٩٦٠ ـ من الأمم المتحدة إرسال قوة دولية لحفظ القـانون والنـظام في الكونغـو . وكان يبغي من وراء ذلك وقف التدخل البلجيكي ومنـع بلجيكا من العودة للسيطرة من جديد على مقدرات البلاد . وأبدى لومومبا رغبته لبعض الدول الافريقية في أن تشترك في هذه القوة وكانت مصر من بين هذه الدول .

وكانت القاهرة على صلة قديمة بلومومبا حيث كانت تقدم لحركته بعض المساعدات المادية وذلك منذ عام ١٩٥٨ عندما قابلت لومومبـا لأول مرة في أكرا في مؤتمر الشعوب الافريقية . وكانت هذه هي المرة الأولى التي يخـرج فيها لـومومبـا ليلتقي بعدد من الـزعـماء والسـاسـة الافريقيين الذين حضروا هذا المؤتمر . ونشأت بيننا منذ ذلك الـوقت علاقة قـوية أسـاسها من جـانب لومـومبا انبهـاره الشديـد بما حققـه عبد النـاصـر لتخليص بلاده من الاحتـلال الانجليزي وتـأميمه لقنـاة السـويس الأمر الـذي يعني الكثير من الأمـل بالنسبـة لبلد غني مثـل الكـونغو تمتلك الشـركات الأوروبيـة كل ثـرواته ، وكـذلـك لمـوقف عبد الناصر في مساندة حركات التحرير الافريقية ومساعـداته الفعـالة لها . أما من ناحيتنا فقد كنا نعلم أن حزب لومومبا « الحركة الـوطنية الكونغولية » Mouvement National Congalese «M. N. C. » هو أنسب الحركات والأحزاب الوطنية في الكونغو لقيادة الحـركة الـوطنية وأكثر هذه الأحزاب وضوحاً في مقاومة الاستعمار البلجيكي . كما كان لومومبا هو الزعيم الكونغولي الوحيد الذي تمتد شعبيته ويتواجد اتباعه

خارج نطاقه الاقليمي والقبلي ، بعكس بقية الزعماء الذين كانت تنحصر زعامتهم داخل الحدود القبلية فقط .

وكنت أراسل لومومبا قبل الاستقلال على عنوان صندوق بريد في برازافيل الخاضعة للاستعمار الفرنسي ويفصلها عن ليوبولدفيل (كينشاسا حالياً) نهر الكونغو ويبدو أنه اختار هذا العنوان لأن السلطات البلجيجية لم تكن لتسمح بمثل هذه الاتصالات أو لأنه أراد أن يخفي هذه الصلة عن الإدارة البلجيكية .

ومما لا شك فيه ان سرعة تطور الحركة الوطنية في الكونغو خلال السنتين الأخيرتين قبل الاستقلال مثيرة للدهشة . فقد كان هناك اعتقاد بتخلف الحركة الوطنية هناك عنها في أي مكان آخر من القارة بسبب اسلوب الحكم البلجيكي الذي كان يؤمن بسياسة « ملء البطون وقفل العقول » كما كانوا يسمونها . فقد كانت ثروات الكونغو الهائلة والعائد الكبير الذي يحصل عليه البلجيكيون يسمح لهم بأن يرتفعوا نسبياً بمستوى معيشة الوطنيين الافريقيين الذي يعملون معهم ولكنهم في نفس الوقت لا يسمحون لهؤلاء الوطنيين بأي مشاركة في الحياة السياسية .

وقد كان الذهن البلجيكي بطيئاً في هضم فكرة التخلص من المستعمرات حتى أن أحد البلجيك « A. A. J. Von Bilsen » وهو أستاذ في معهد انتويرب « Antwerp Overseas » كتب في عام ١٩٥٥ يدعو إلى استقلال الكونغو في خلال ثلاثين عاماً ، وطالب الحكومة البلجيكية بعمل خطة تستهدف تدريب الوطنيين وتأهيلهم للاشتراك في الحكم قبل انتهاء هذه المدة ، فاعتبرت هذه الأفكار ـ وقتها ـ أفكاراً ثورية هاجمها الكثير من البلجيك .

وقد سبق لشعب الكونغو أن تعرض لأبشع أنواع الاستعمار والاستغلال الذي لم يتعرض له شعب آخر في أفريقيا عندما كان تحت الحكم الشخصي للملك ليوبولد الثاني ملك بلجيكا . ففي خلال ١٥ سنة من حكمه قضى هذا الملك الذي كان يدعي دائماً تحمسه للنزعة الانسانية والذي كان يعتبر أحد عمد الكنيسة ـ على حوالي أحد عشر مليوناً من سكان مملكته الافريقية البالغ عددهم وقتئذٍ ٢٠ مليون نسمة بحيث لم يبق سوى تسعة ملايين فقط . ولكل هذه الأسباب كان هناك اعتقاد بأن الحركة الوطنية في الكونغو متخلفة جداً وأن ـ الكونغو سيكون من أواخر الدول الافريقية في الحصول على استقلاله .

ولكن رياح التغيير كانت قد هبت على افريقيا وحدث من الأحداث ما هز الوجدان الافريقي والهب الشعور الوطني في القارة . ففشل العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ وخروج عبد الناصر منتصراً ، والتقدم المستمر في ثورة الجزائر ثم استقلال غانا وغينيا ووقوف انكروما وسيكوتوري بجانب عبد الناصر في تأييد حركات التحرير الافريقية وإعلان وحدة النضال ضد الاستعمار والامبريالية . غير ذلك كله من إيقاع مسيرة التحرير في القارة الافريقية وامتد التأثير إلى أعماق الكونغو .

ولا شك أيضاً أن الحركة الوطنية في الكونغو قد تأثرت بشكل مباشر بالتطور الذي حدث في الكونغو الفرنسي وفي المستعمرات الفرنسية الأخرى المتاخمة للكونغو التي كانت قد حصلت على الحكم الذاتي . ثم جاء إعلان ديجول لسياسته الجديدة في المستعمرات الفرنسية ودستوره الجديد الذي أعطى هذه المستعمرات حق الاختيار بين الاستقلال التام أو الدخول في الرابطة الفرنسية ، وجاءت في أعقاب هذا الاعلان زيارة ديجول إلى برازافيل (عاصمة الكونغو

الفرنسي) والتي لا يفصلها عن ليوبولدفيل سوى نهر الكونغو . حدث هـذا في عام ١٩٥٨ ، وكـانت له أثـاره في الهاب الشعـور الوطني في الكونغو البلجيكي حيث أدرك الوطنيون مدى تعنت الحكم البلجيكي بمقارنته بموقف ديجول المتطور .

وبعد أن حضر لومومبا مؤتمر الشعوب الافريقيـة الذي عقـد في أكرا عام ١٩٥٨ والتقى بالثوار الأفارقة من كل أنحاء القارة ، عاد إلى بلاده ليعلن التزامه بقرارات المؤتمر الذي كان قد قرر تصفية الاستعمار من أفريقيا بصفة نهائية . وطالب لومومبا بالاستقلال الفوري للكونغو استناداً إلى هذه القـرارات . واستجاب الشعب الكـونغولي إلى نـداء لومومبا بالاستقلال استجابة واسعة وبطريقة لم تكن متوقعة . وحاولت السلطات البلجيكية قمع الحركة الوطنية بـالعنف والقوة التي عـرفت بها ، إلا أن الأمر كان قد خرج من يدها تماماً ، واضطرت بلجيكا إلى الدخول في محادثات المـائدة المستـديرة مـع الزعـماء الكونغـوليين كـما اضـطرت إلى تحديـد تاريـخ لاستقلال الكـونغـو (بعـد ستـة شهـور فقط) . وأعلن هذا التاريخ تحت الضغط المتعاظم للحـركة الـوطنية دون أن تكون السلطات البلجيكية قد استعدت استعداداً حقيقياً لمثل هذه الخطوة .

جمال عبد الناصر يرسل قوات مصرية إلى الكونغو :

بنـاء على طلب لـومومبـا قـوات من الأمم المتحـدة اجتمـع داج همرشولد السكرتير العام للمنظمة الدولية بمندوبي الدول الافـريقية في الأمم المتحدة طالباً مساهمة هذه الـدول في القوة الـلازمة لحفظ الأمن والنظام في الكونغو . وكان الاتجاه في بادىء الأمر إلى قصر تشكيل هذه القوة على الدول الافريقية وحدها .

ووصل عبد الناصر طلب الأمم المتحدة كما كانت قد وصلته رغبة لومومبا في أن تشترك مصر في القوة التي سترسلها المنظمة الدولية إلى الكونغو . ولم يتردد عبد الناصر في الموافقة على هذا الطلب ، واشتركت مصر بالفعل بقوة قوامها كتيبة من قوات المظليين بقيادة العقيد سعد الشاذلي (الفريق رئيس الأركان بعد ذلك) وضعت تحت القيادة العسكرية للأمم المتحدة في الكونغو .

وقد جاءت موافقة عبد الناصر السريعة على هذا القرار لأسباب عديدة أهمها :

أولاً : كانت هذه هي المرة الأولى التي يلجأ فيها زعيم أفريقي إلى الدول الافريقية الأخرى لحماية استقلال بلاده والحفاظ على وحدة أراضيها ، ورغم أن ذلك كان عن طريق الأمم المتحدة فإن تخلي الدول الافريقية وخاصة مصر عن تلبية رغبة لومومبا كان يعتبر في رأي عبد الناصر تجريداً للوحدة الافريقية من مضمونها الايجابي .

ثانياً : كان عبد الناصر يدرك تمام الادراك أن معركته ضد الاستعمار والامبريالية ليست بأي حال من الأحوال معركة محلية وإنما هي معركة ممتدة إلى أعماق القارة الافريقية كما هي ممتدة على طول الوطن العربي وإلى كل مكان يقاوم الاستعمار والسيطرة الأجنبية . وقد كان هذا خطاً رئيسياً في فكر عبد الناصر ، كما كانت المواجهة الجريئة لقوى الامبريالية والاستعمار الجديد منهجاً ثابتاً في سياسته باعتبار أن هذه القوى تشكل الخطر الأكبر الذي يهدد البلاد المستقلة حديثاً .

ثالثاً : أهمية الموقع الجغرافي في الكونغو بالنسبة لمصر . فتأمين منابع النيل هدف من أهداف الاستراتيجية المصرية تضمنته سياسة حكام مصر منذ عرف التاريخ ومنذ عرفت عبارة هيرودوت الشهير

« مصر هبة النيل » فقد كان عبد الناصر يعرف جيداً أن تأمين منابع النيل لا يتأتى إلا باستقلال الدول المشتركة معنا في نهر النيل وتخليصها من السيطرة الاستعمارية حتى نستطيع أن نقيم معها علاقات الصداقة وحسن الجوار .

رابعاً : متاخمة الكونغو لجنوب السودان تجعل له أهمية خاصة . فمشكلة الجنوب في السودان والمحاولات المستمرة للانفصال كان يغذيها الوجود الاستعماري في المناطق المحيطة به . وكان حل هذه المشكلة مرهون بوقف النشاط المعادي للسودان في الدول المتاخمة .

ولم يمض وقت طويل على وصول قوات الأمم المتحدة إلى الكونغو حتى ظهر خلاف شديد بين لومومبا وبين قيادة هذه القوات . وأرسل لومومبا إلى همرشولد السكرتير العام للأمم المتحدة في ٢٤ أغسطس ١٩٦٠ يتهمه باستخدام القوات الدولية للتأثير في الصراع الدائر بين كاتنجا والحكومة المركزية ، وان قيادة الأمم المتحدة في الكونغو لم تأخذ رأي الحكومة في إحلال قوات أوروبية محل بعض القوات الافريقية التابعة للأمم المتحدة ، وأنها بتصرفها هذا تحاول أن تجعل نفسها صاحبة السلطة الشرعية في البلاد ، كما هاجم لومومبا السكرتير العام علناً متهماً إياه بأنه ينفذ سياسة الدول الاستعمارية .

وكان هذا الخلاف مثيراً لقلق عبد الناصر . فهو خلاف بين قيادة الأمم المتحدة التي تتبعها القوة المصرية في الكونغو والتي تتلقى الأوامر منها وبين لومومبا الذي ذهبت هذه القوات من أجله وبناء على طلبه . وزاد قلق عبد الناصر عندما أصبح واضحاً أن لومومبا يريد المساعدة العسكرية من الدول الافريقية ولكن بصفة مباشرة هذه المرة وخارج نطاق الأمم المتحدة .

واتجه لومومبا إلى الدول الافريقية طالباً عقد مؤتمر قمة أفريقي بصفة عاجلة في ليوبولدفيل . وبناء على هذا الطلب تقرر عقد مؤتمر تحضيري من وزراء خارجية الدول الافريقية المستقلة في المدة من ٢٥ ـ ٣١ أغسطس ١٩٦٠ في ليوبولدفيل للتمهيد لمؤتمر القمة .

مهمة خاصة لمقابلة لومومبا :

في مساء يوم ٢٢ أغسطس ١٩٦٠ استدعيت لمقابلة الرئيس جمال عبد الناصر الذي كان وقتئذٍ في الاسكندرية ، وبعد بحث شامل للموقف في الكونغو كلفني عبد الناصر بالسفر إلى ليوبولدفيل عاصمة الكونغو لمقابلة الرئيس لومومبا وحملني رسالة إلى لومومبا الذي كنت على صلة سابقة به ، كما سبق أن أوضحت ، ولم تكن القاهرة قد أقامت تمثيلها الدبلوماسي في الكونغو حتى ذلك الوقت .

وقد وجدت جمال عبد الناصر في قلق شديد على الأوضاع في الكونغو . فلم يكن سعيداً بتطور العلاقة بين لومومبا والسكرتير العام للأمم المتحدة وكان يرى أن إرسال قوات عسكرية أفريقية إلى الكونغو خارج نطاق الأمم المتحدة كما يريد لومومبا سوف يعطي الفرصة لعودة القوات البلجيكية والتدخل السافر من جانب الولايات المتحدة الأمريكية .

وبسبب الخلاف الذي نشأ بين القيادة العسكرية للأمم المتحدة في الكونغو وبين لومومبا لم يعد عبد الناصر مطمئناً حتى للقوات الافريقية الموجودة هناك والتي ما زال معظمها يحتفظ بالقيادة العسكرية الأوروبيين . فغانا على سبيل المثال التي كانت أكثر الدول تحمساً في تأييد لومومبا ـ كانت قوتها الموجودة في الكونغو تضم قادة انجليز من الذين كانوا في جيش غانا قبل الاستقلال .

وكان عبد الناصر يعتقد أن اجتماع مؤتمر القمة الافريقي في ليوبولدفيل بسرعة وعلى الوجه الذي يريده لومومبا سوف يسفر عن انقسامات خطيرة بين صفوف الافريقيين ولن يستفيد منه لومومبا ، بل انه قد يشل حركته السياسية لأن مواجهة خطيرة قد بدأت بين لومومبا وقوى الاستعمار والامبريالية وهناك دول أفريقية لن تستطيع أن تقف في صف لومومبا وكان عبد الناصر يرى أنه بدلاً من الاعتماد على مؤتمر القمة الافريقي يستطيع لومومبا الاعتماد في حركته السياسية على مجموعة من الدول الافريقية الثورية مثل غانا ومالي وغينيا ومصر .

وكان واضحاً أن مشكلة الكونغو أصبحت تشغل حيزاً كبيراً من تفكير جمال عبد الناصر بعد أن تواجدت لنا قوات عسكرية في الكونغو ومطلوب تأمين سلامتها وضمان عدم استخدامها أو تكليفها بواجبات تتنافى مع الأهداف التي أرسلت من أجلها وهي مساندة القوى الوطنية بزعامة باترس لومومبا للمحافظة على استقلال الكونغو ووحدة أراضيه .

كان عبد الناصر مدركاً لأبعاد هذه المشكلة في ذلك الوقت المبكر . واذكر انه قال يومها ان لومومبا سوف يواجه معركة شرسة وسيحاول الاستعمار أن يجعل من حكومته أمثولة بقصد إرهاب الدول الافريقية التي استقلت والتي يريدون لها أن تكتفي بعلم ونشيد الاستقلال وأن تعرف أنه غير مسموح لها أن تفكر فيما هو أبعد من ذلك .

وكان عبد الناصر محقاً في قوله . فقد كان عدد الدول التي استقلت في هذا العام (١٩٦٠) ثمانية عشرة دولة معظمها من الدول التي كانت تحتلها فرنسا ، وقد وضع هذا التطور الفجائي أفريقيا كلها في وضع ومزاج يشجعها على التحرك نحو مزيد من التحرر . ونشطت

بالفعل حركات التحرر في المستعمرات الافريقية وارتفع صوتها . وأصبح هناك اعتقاد بأن كل شيء بات ممكناً أمام القوى الوطنية ، وان الاستعمار في طريقه إلى الزوال تماماً .

وكان الكونغو بثرواته الضخمة معقلاً للاحتكارات الاستعمارية الامبريالية ونموذجاً لتشابك المصالح ورؤوس الأموال الأوروبية والأمريكية . وكان ضرب الحركة الوطنية في الكونغو معناه تغيير الوضع والمزاج الذي وضعت فيه أفريقيا ليتناسب من جديد مع المصالح الاستعمارية والامبريالية التي تريد بقاء قبضتها وسيطرتها على مقدرات أفريقيا وإن كانت لا تمانع في رفع أعلام الاستقلال .

وكلفني عبد الناصر أن أنقل مخاوفه هذه إلى لومومبا وأن أتعرف على وجهة نظره مع إبلاغه أن القاهرة تقف معه بكل ما تستطيع كما كلفني بأن أبحث معه ما يمكن أن نقدمه له من مساعدة .

ولم ينس عبد الناصر أن يطلب إبلاغ لومومبا بأن القاهرة ترحب بأولاده وعائلته في أي وقت يراه وأنهم سيكونون تحت رعايته شخصياً . فقد كان عبد الناصر مدركاً للخطر الذي تتعرض له حياة لومومبا وأراد بهذه الدعوة أن يحرر لومومبا من عبء القلق على مصير عائلته . وقد حضر أولاد لومومبا وزوجته بالفعل إلى القاهرة ولكن بعد فترة وبعد أن ساءت الأحوال حتى اننا اضطررنا إلى تهريبهم بواسطة السفارة المصرية في ليوبولدفيل وبصحبة أحد الدبلوماسيين المصريين (المرحوم عبد العزيز اسحق) وبجوازات سفر مصرية على أنهم أبناء هذا الدبلوماسي . وادخل أولاد لومومبا المدارس المصرية واستمروا تحت رعاية جمال عبد الناصر وعلى صلة مستمرة بعائلته .

وصلت مطار ليوبولدفيل على طائرة خاصة صباح يوم ٢٧ أغسطس وكان على نفس الطائرة السيد عبد المجيد فريد سكرتير عام

رئاسة الجمهورية في ذلك الوقت والذي جاء لإعداد كل ما يتعلق بالشؤون الادارية الخاصة بزيارة عبد الناصر إلى ليوبولدفيل في حالة إصرار لومومبا على عقد مؤتمر القمة الذي كان قد دعي إليه .

واتضح لنا بمجرد الوصول ان الحكومة الكونغولية لا سيطرة لها على المطار . فكانت هناك قوات تابعة للأمم المتحدة تعسكر داخل المطار ولكنها لا تتدخل في حركة الطائرات ولا حركة المسافرين من وإلى المطار . وإلى أن أصبحنا خارج ليوبولدفيل لم نقابل مسؤولاً واحداً يسأل عن جوازات السفر أو إجراءات الجمارك أو غيرها من الاجراءات التي يقابلها أي مسافر عند الوصول إلى مطار من المطارات الدولية .

كان الشعور بمجرد أن وطأت أقدامنا مطار ليوبولدفيل أن هناك حالة من الفوضى ، لدرجة أن قائد الطائرة وطاقمها اضطروا للبقاء في المطار لحراسة الطائرة لحين انتهاء مأموريتنا ونقلع عائدين ، وافترشوا الأرض تحت ظل جناح الطائرة احتماء من حرارة الشمس المحرقة .

وهكذا كان حال الكونغو كله ، حالة من الفوضى ، فالأجهزة الادارية والفنية ما زال يرأسها ويتحكم فيها الاداريون والفنيون البلجيك وهم لا يتعاونون مع السلطة الشرعية . والوطنيون تسلموا الحكم ولكن الخيوط اللازمة لتشغيل دقة الأمور لم توضع في أيديهم ، وهكذا أراد البلجيكيون للبلاد أن تصل إلى حالة من الشلل والفوضى .

استقبلني لومومبا في مكتبه بمبنى رئاسة الوزراء بعد فترة وجيزة من الوصول إلى ليوبولدفيل ، وكان يصحبني السيد عبد المجيد فريد . وأبلغت لومومبا برسالة جمال عبد الناصر ثم بحثت معه النقاط التي كلفت بها . وقد بدت على ملامحه السعادة والارتياح لاهتمام

عبد الناصر بقضيته وتـأييده لـه . وتكلم لومـومبا كثيـراً عن الوحـدة الافريقية بمناسبة المؤتمر الذي كان مقرراً عقده في ليوبولدفيل وأوضح أن هذه الوحدة تعني لديه أول ما تعني وحدة النضال من أجل تخليص أفريقيا من السيطرة الأجنبية .

وتعرض لومـومبا للمشـاكل الـرئيسية التي عـاني منها الكـونغو . فشرح حالة الخراب التي ترك فيها البلجيك خزينـة الدولـة وعمليات النهب التي تمت في الشهـور القليلة التي سبقت الاستقـلال ، وكيف سحب البلجيك الأطباء والمعلمين حتى يظهر عجز الحكومة الوطنية في الوقت الذي يتصور فيه كل مواطن كـونغولي ان الاستقـلال يعني أن تتحسن حالته ومستواه المعيشي فوراً .

وشرح لومومبا موقف الأمم المتحدة وخلافه مـع السكرتـير العام وقيادة قوات الأمم المتحدة التي احتلت المطارات دون أن يـطلب منها ذلك . ثم انها تغير القوات الافريقية التي يطمئن إليهـا والموجـودة في بعض المناطق الحيوية وتضع بـدلاً منها قـوات أوروبية لا يثق فيهـا . وقال لومومبا ان ذلك كله يتم دون علمه أو استئذانه . وقال انه أصبح متـأكداً من أن الأمم المتحـدة تعمـل في مخـطط يبغي إبقـاء السيـطرة البلجيكيـة عـلى بـلاده ، وإنها لا تـريـد المسـاعـدة الحقيقيـة في إنهاء الانفصال في اقليم كاتنجا ، وهاجم لومومبـا السكرتـير العام لـلأمم المتحدة هجوماً عنيفاً أدركت معه أن العلاقة بينهما قد وصلت بالفعـل إلى نقطة اللاعودة .

وقال لومومبا انه لا يواجـه الاستعمار والأمم المتحـدة فقط ولكن هناك شخصيات كونغولية رسمية تعمل لحساب الاستعمـار وأمريكـا بالاتفاق مع قيادة الأمم المتحدة ، وان هذا هـو أخطر مـا يواجهـه في الوقت الحالي .

ورغم أن لومومبا لم يفصح عن أسماء هذه الشخصيات إلا أنني كنت أعلم أنه يقصد كازافوبو رئيس الجمهورية . فقد كان الخلاف قد احتدم بينهما . فهدف كازافوبو البعيد هو إقامة حكومة إقليمية في « باكونجو » منطقة نفوذه . وهو لذلك يرتاح لوجود الاتجاهات الانفصالية في الكونغو وكان يدرك في قرارة نفسه أن نجاح تشومبي في الانفصال بكاتنجا يمكنه من تحقيق هذا الهدف .

وكان هذا الخلاف بين لومومبا وكازافوبو ـ يعيد إلى الأذهان الخلاف القديم الذي كان قائماً بين الزعيمين قبل الاستقلال مباشرة . فقد كان كازافوبو يطالب بإقامة حكومة فيدرالية على غرار حكومة نيجيريا تسمح للأقاليم بالتمتع بالحكم الذاتي . وكان ذلك يتمشى مع عقليته وطبيعته القبلية وهو أيضاً ما كان يريده البلجيك . أما لومومبا فكان يريد دولة موحدة وحكومة على غرار حكومة الرئيس انكروما في غانا ، وهذا ما استطاع أن يحققه لومومبا بالفعل عند الاستقلال ، وهو أيضاً ما كانت تقاومه بلجيكا .

ورغم أن كازافوبو وقف مع لومومبا في بداية الأزمة عندما قطعت حكومة لومومبا علاقاتها مع بلجيكا وألغت معاهدة الصداقة التي كان قد اتفق عليها وعقدت قبل الاستقلال مباشرة ، نجد تحولاً واضحاً في موقفه هذا بعد وصول قوات الأمم المتحدة وتأييدها له . وتحالف كازافوبو من جديد مع المصالح البلجيكية والأمريكية التي وجدت فيه أداتها للقضاء على لومومبا وأفكاره الثورية .

أما لومومبا فقد كان شخصية مختلفة تماماً عن كازافوبو ، فهو عنيد إلى أبعد الحدود ، لا يقبل الحلول الوسط . وكان لومومبا يطالب منذ عام ١٩٥٩ بنظام اقتصادي سليم لا يسمح بالاستغلال ، فاتهمه البلجيك بالشيوعية . كما كان دائب التصريح بضرورة التخلص من

كل سيطرة أجنبيـة بما فيهـا الارساليـات التبشيريـة التي كان يـطالب بضرورة أبعادها عن ميدان التعليم .

ومن مواقف لومومبا المعروفة خطابه الشهير عندما وقف يـرد على ملك بلجيكا الذي كـان قد ألقى كلمـة بمناسبـة الاحتفال بـاستقلال الكونغو في ليوبولدفيل ذكر فيها الاصلاحات التي قامت بها بلجيكا في الكونغو ، فرد عليه لومومبا مشيراً بكل وضوح إلى مـا فعلته بلجيكـا بـالكونغـو والكونغـوليين من قتـل وتعذيب وسخـرة وظلم جاوز كـل الحدود ، وكانت هذه الكلمات بالنسبة لبلجيكا تجاسراً لا يغتفر .

كان هذا هو لومومبا . يريد كل شيء للكونغو ويطالب به في جرأة وعناد وشجاعة نادرة ، ولكنه للأسف لم يكن على دراية كافية بألاعيب الاستعمار ودسائسه .

كان هذان الزعيمان ، كازافوبـو وباتـريس لومـومبا ، نمـوذجين مختلفين ولكنهما صورتان متكررتان للزعامات التي وجدت في أفريقيا في ذلك الوقت . كـازافوبـو يمثل هؤلاء الـذين اختاروا الـطريق السهل واكتفـوا باعـلام الاستقلال ولـلأسف كان هـذا هو النمـوذج الأكـثر تكراراً . أما النموذج الآخر من أمثال لومومبا فقد كان قليـلاً نادراً في ذلك الوقت ، كان عبد الناصر وسيكوتوري وانكروما كل من هؤلاء واجه ظروفاً صعبة ، وكلهم يقاومون السيطرة الأجنبية بكل أشكالها في إصـرار عظيم حتى أثـاروا حفيظة الاستعمـار وتكتلت ضـدهم قـوى الامبرياليـة . ولكن هذه النمـاذج على قلتهـا كانت قـادرة على تعبئـة الجماهير وراءهـا ، ليس في بلادهـا فقط ، وإنما في القـارة كلها لأنها كانت تعبر عن أماني الشعوب الافريقية واستطاعت أن تعكس نبضها الحقيقي ، فألهبت المشاعـر الوطنيـة وأشعلت روح المقاومـة في القارة

كلهـا ، ولكنهـا لهـذا السبب أيضـاً تعـرضت لكثير من المخـاطـر والمؤامرات .

وأعود مرة ثانية لمقابلتي مع لومومبا ، فقد خرجت بانطباع جديد عن مدى الخطورة التي يتعرض لها لومومبا ، وخاصة لعبة الشرعية التي يحاول الاستعمار لعبتها للتخلص من زعيم الأغلبية وذلك باستخدام كازافوبو رئيس الجمهورية بدلاً من استخدام القوة المباشرة .

وكان تطور الأحداث يؤكد خطورة الدور الـذي يمكن أن تلعبه القوات التابعـة للأمم المتحـدة إذا استمر السكـرتير العـام في موقفـه المعادي للومومبا . وكان هذا ما نقلته لجمال عبد الناصر عند عودتي إلى القاهرة وأبديت تخوفـاً من أن تستغل قـواتنا المـوجودة هنـاك والتابعـة للأمم المتحدة في غير ما ذهبت من أجله هذه القوات .

وفي هذه المقابلة أيضاً طلب لومومبا مبلغـاً محدداً (عشـرين ألف جنيه استرليني) بصفة عاجلة كسلفة لحزبـه « حزب الحـركة الـوطنية الكونغولية » « M. N. C. » حيث كانت الـظروف تحتاج إلى تحـريك بعض أنصاره إلى مناطق معينة لمواجهة التكتلات الأخرى ، وضرورة توافر المال اللازم لإعاشتهم والانفاق عليهم ، وقد أرسل عبد الناصر هذا المبلغ إلى لومومبا بعد أيام قليلة مع السفير مراد غالب أول سفير لمصر في الكونغو .

وطلب لومومبا أيضاً أن تمده مصر ببعض الخبراء والفنيين ـ الذين تـم إرسالهم إلى الكونغو فوراً ـ وأخيراً أبلغني لومومبا أنه لن يدعو إلى مؤتمر قمة أفريقي في ليوبـولدفيـل إلا إذا جاءت نتـائج مؤتمـر وزراء الخارجية مشجعة .

وقـد تم خلال هـذه الرحلة إقـامة اتصـال لاسلكي مباشـر بين

ليوبولدفيل والقاهرة بواسطة جهاز وصل معنا على نفس الطائرة . منذ ذلـك الوقت بـدأت العلاقـة بين القـاهرة وقـوى التحريـر الوطني في الكونغو بزعامة لومومبا تدخل مرحلة جديدة من الدعم والتأييد زادت بعد وصول السفير المصري مراد غالب . واستمرت هذه العلاقة بعد مقتل لومومبا ، وظلت القاهرة لفترة طويلة هي السند الرئيسي للثورة الكونغولية ونافذتها على العالم الخارجي .

مقتل لومومبا واندلاع الثورة :

عقد مؤتمر وزراء خارجية الدول الافريقية الذي دعى إليه لومومبا في ليـوبولـدفيل في المـدة من ٢٥ ـ ٣١ اغسطس سنـة ١٩٦٠ بقصـد التحضـير لمؤتمر قمـة افريقي لبحث مشكلة الكـونغـو ، وقـد تحققت مخاوف عبد الناصر. فقد ظهر الانقسام بين الـدول الافريقيـة قبل أن تبدأ جلسات المؤتمر حيث لم يحضر هذا الاجتماع سوى ١٤ وفداً فقط من بينهم الحكومة المؤقتة للجزائر ، وتغيبت معظم الـدول الافريقيـة التي كانت تستعمرها فرنسا (حضرت منها الكاميرون وتوجو فقط) .

وكـان معنى ذلك أن هـذه الدول التي لم تحضـر المؤتمـر لا تؤيـد لومومبا .

ومن بين الحاضرين كان هناك مجموعة ثورية من بينها مصر تعتبر مشكلة الكونغو مشكلة أفريقيا كلها ، وأن ما حدث في الكونغو يمكن أن يتكـرر في أي دولة من دول القـارة ، ولذلـك كانت هـذه الـدول مستعدة لتحمل نصيبها في هذه المعـركة بـاعتبارهـا معركـة بين قـوى التحرير من جانب وبين الاستعمار والامبريالية من جانب آخر ، كـما كان في المؤتمر مجموعة دول أخـرى وان كانت تتعـاطف مع لـومومبـا

وتؤيد وحدة أراضي الكونغو ، إلا أنها كانت لا تريد أن تزج بنفسها في هذا الصراع .

ورغم أن قرارات المؤتمر النهائية كانت مؤيدة للحكومة المركزية في الكونغو وأدانت الحركة الانفصالية في كاتنجا إدانة صريحة ، إلا أن هذا المؤتمر كان مخيباً لرجاء لومومبا . أولاً لأن تغيب الأغلبية العددية للدول الافريقية قد حال دون تحقيق الهدف الرئيسي من الاجتماع وهو الضغط على الأمم المتحدة والسكرتير العام لتغيير سياسته في الكونغو . وعلى العكس من ذلك فإن النتيجة ربما تكون قد شجعت الأمم المتحدة على التمادي في مخططها والوقوف بشكل سافر بجانب كازافوبو رئيس الجمهورية . وثانياً لأنه اتضح جلياً للومومبا انه لا يستطيع الحصول على المساعدة العسكرية المباشرة من الدول الافريقية حيث لم تجد الفكرة الحماس الكافي حتى بين الدول التي حضرت المؤتمر .

ورغم أن وزراء الخارجية أوصوا بعقد مؤتمر قمة للدول الافريقية قبل دورة الأمم المتحدة التي تبدأ في سبتمبر ، إلا أن لومومبا كان قد اقتنع بعدم جدوى ذلك وصرف النظر عن هذه الفكرة .

وبعد أيام من انتهاء وزراء الخارجية من مؤتمرهم الذي عقد في ليوبولدفيل في ٥ سبتمبر سنة ١٩٦٠ على وجه التحديد ـ فوجىء العالم بقرار من كازافوبو رئيس الجمهورية يعزل فيه باتريس لومومبا رئيس الوزراء ويكلف ايليو رئيس مجلس الشيوخ بتأليف الوزارة .

ويبدو أن كازافوبو في قراره هذا كان معتمداً على تأييد موبوتو قائد الجيش وحاميته الموجودة في ليوبولدفيل ، كما كان كازافوبو يعلم أيضاً أن القيادة العسكرية التابعة للأمم المتحدة في الكونغو والتي كانت قواتها تحتل المطارات ودار الاذاعة الكونغولية سوف ترتاح لهذا القرار .

وقد رفض لومومبا زعيم الأغلبية البرلمانية هذا القرار واعتبره غير دستوري ، وأقر البرلمان وجهة نظر لومومبا في رفض هذا القرار . ولكن الكولونيل موبوتو قائد الجيش (رئيس الجمهورية بعد ذلك) أعلن استيلاءه على السلطة وحل البرلمان وأعلن أنه أنهى الخلاف القائم بين كازافوبو ولومومبا بطرد كليهما .

ثم سرعان ما وجدنا كازافوبو يعود من جديد ولكن في انسجام وتعاون كامل مع موبوتو ، كما وجدنا الأمم المتحدة تتعامل مع كازافوبو وكأنها اعترفت بهذا الوضع الجديد رغم اعتراض لومومبا الذي استمر في موقعه مصراً على الاحتفاظ بالرئاسة للحكومة الشرعية .

وأصبح في الكونغو سلطتان تدعى كل منهما الشرعية ، هذا بالاضافة إلى السلطة العسكرية بقيادة موبوتو ، وسرعان ما انتقل هذا الانقسام من الكونغو إلى الدول الافريقية نفسها عندما أرسل كل من كازافوبو ولومومبا وفداً يمثل الكونغو إلى الأمم المتحدة . فقد انقسمت الدول الافريقية هناك إلى مجموعتين الأولى ومنها مصر والدول الثورية تؤيد وفد لومومبا وتعتبره الوفد الشرعي والثانية ومعظمها من الدول الناطقة بالفرنسية وتؤيد وفد كازافوبو .

وأخيراً جاء قرار الأمم المتحدة باعتبار الوفد الأخير ـ وفد كازافوبو هو الوفد الرسمي والممثل المعترف به لدولة الكونغو ليوبولدفيل . وأصبح هناك وضعاً غريباً ، فقد صوتت معظم الدول الافريقية التي لها قوات في الكونغو ومنها مصر ضد هذا القرار ولصالح وفد لومومبا . وكان معنى ذلك أن قوات هذه الدول موجودة في الكونغو لمساندة سلطة لا تعترف بها . أصبحت هذه القوات معرضة لأن تقوم بتنفيذ سياسة تتعارض مع سياسة دولها وكان ذلك بطبيعة الحال مصدر قلق شديد لهذه الدول ، ومن هنا جاءت دعوة الملك محمد الخامس ملك المغرب

لعقد مؤتمر يحضره رؤساء الدول الافريقية التي تؤيد لومومبا وذلك لبحث موضوع الكونغو بصفة أساسية .

وعقد مؤتمر الدار البيضاء في المدة من ٣ ـ ٧ يناير سنة ١٩٦١ وحضره الرئيس جمال عبد الناصر ، والملك محمد الخامس والرئيس الغاني كوامي انكروما والرئيس الغيني أحمد سيكوتوري ، والرئيس المالي موديبوكيتا ، ورئيس حكومة الجزائر المؤقتة ، ووزير خارجية ليبيا ، كما أرسلت سيلان مراقباً . وقد أسفر هذا الاجتماع عن قيام تكتل سياسي أفريقي جديد حيث وقع ميثاق منظمة الدار البيضاء وعرفت مجموعة هذه الدول بعد ذلك باسم مجموعة الدول الثورية . أو دول الدار البيضاء .

وكان أهم ما أثار الجدل في هذا المؤتمر هو موضوع بقاء قوات هذه الدول في القوة العسكرية التابعة للأمم المتحدة في الكونغو . فقد كانت كل من مالي وغينيا قد سحبت قواتها بالفعل بعد أن اتضح موقف الأمم المتحدة من معاداة لومومبا . ولكن انكروما كان متحمساً لبقاء هذه القوات وعدم سحبها حتى لا يترك المجال خالياً أمام أعداء لومومبا .

وفي الحقيقة كان عبد الناصر يميل في ذلك الوقت إلى سحب القوات وخاصة أن شكوكه في القادة العسكريين لبعض هذه القوات كانت قد تأكدت . فالجنرال كتاني Kattani القائد المغربي كان مستشاراً عسكرياً لموبوتو قائد الجيش الذي أيد كازافوبو عندما عزل لومومبا . واتضح بعد ذلك أن هذا القائد كان على صلة مريبة بجهات أمريكية وبلجيكية ، وأثيرت كثير من الشكوك حول تواطؤه مع هذه الدول رغم سياسة المغرب الواضحة والتي كانت في ذلك الوقت تقف مع لومومبا . ورغم ذلك فقد وافق عبدضالناصر على البقاء للقوات

بعض الوقت وذلك تحت إلحاح انكروما . وكان ذلك ما اتفق عليه الرؤساء ولكنهم أعلنوا في قرارات المؤتمر عن نية الدول المجتمعة في سحب قواتها الموضوعة تحت قيادة الأمم المتحدة في الكونغو ، إلا إذا عدلت الأمم المتحدة سياستها وقامت فوراً بتأييد الحكومة المركزية في سحب الأسلحة من جيش موبوتو وتمكين البرلمان الكونغولي من العودة للاجتماع .

واستمر الصراع بين كازافوبو ولومومبا فقد أصبح وضعه في ليوبولدفيل غريباً هو وحكومته بعد أن فقد كل الخيوط التي يستطيع بها تصريف الأمور داخل عاصمته ولكنه كان في نفس الوقت يتمتع بنفوذ قوي في استانلي فيل التي انتقلت إليها أعداد كبيرة من أنصاره وكان هذا النفوذ هو مصدر قوته الذي يعتمد عليه أساساً .

وانقسمت السفارات في ليوبولدفيل ، بعضها يعترف بكازافوبو والبعض الآخر يعترف بلومومبا ، ومن بين هذه المجموعة الأخيرة دول الدار البيضاء بطبيعة الحال ، والتي كان سفراءها على صلة مستمرة ببعضهم البعض ويقومون بتقديم المشورة والعون للومومبا وحكومته .

وكان لومومبا قد طلب من القاهرة مستشارين عسكريين ، فبعثنا إليه اثنين من الضباط الأركان حرب هما العميد أحمد اسماعيل (المشير ووزير الحربية بعد ذلك) والمقدم ممدوح جبه (السفير بعد ذلك) ولكنهما الحقا على السفارة المصرية في ليوبولدفيل .

وكانت الأوامر لدى القوة المصرية التابعة للأمم المتحدة في الكونغو هي تنفيذ تعليمات القيادة العسكرية للأمم المتحدة إلا فيما يضر بموقف لومومبا حيث كانت مصر على استعداد لسحب قواتها فوراً إذا شعرت بأن قواتها ستستخدم ضد لومومبا بأي شكل . وكان وجود

المستشارين العسكريين في ليوبولدفيل وعلى صلة بلومومبا وبقـواتنا في الكـونغو في نفس الـوقت وهو الضمـان لتنفيذ هـذه التعليمات . ولم يحدث أن كلفت قواتنا بأي شيء يثير الشكوك ، ولكن الأمم المتحدة أيضاً كانت حريصة على أن تضع القوات المصرية في أماكن وتكليفها بمهام لا تستطيع من خلالها تقديم أي عون مباشر للومومبا .

أما موقف الأمم المتحدة بصفة عامة فقد استمر معـادياً للومـومبا ومتعاطفاً مع كازافوبو . فعلى سبيل المثال احتلت الأمم المتحدة الاذاعة الكونغولية (بواسطة قوات أوروبية) وحرمت كـلا الطرفـين لومـومبا وكازافوبو وأعوانهما من استخدام هذه الاذاعة ، حدث ذلك في الوقت الذي كانت الأمم المتحـدة تعلم جيداً أن كـازافوبـو يستخدم اذاعـة برازافيل التي لا يفصلها عن ليوبولدفيـل سوى نهر الكـونغو . وعـلى ذلك فقد كان هذا الاجراء موجهاً ضد لومومبـا وحده الـذي حرمتـه الأمم المتحدة من وسيلة الاتصال السريع بالجماهير من خلال الاذاعة في الوقت الذي لم تتأثر فيه مصالح كازافوبو . وحدث أيضاً أن احتلت قوات الأمم المتحدة المطارات ومداخل ومخارج المدينة وقطعت الاتصال بين العاصمة والأقاليم فعزلت لومومبا عن منطقة نفـوذه وعن أعوانـه الموجود غالبيتهم خارج العاصمة فتركت لومومبا وحيداً في العاصمة في الوقت الذي بقي فيه كازافوبو بين مؤيديه في داخل العاصمة .

وأخيراً وجد لومومبا أن بقاءه في ليوبولدفيل أصبح مستحيلاً فأراد الانتقال إلى استانلي فيل حيث يوجد أنصـاره وحيث يستطيـع أن يجد حرية العمل . وكان عليه أن يخترق الحصار الذي فرضته عليه قوات كازافوبو ، ولكن كازافوبو تمكن من القبض على لومومبا في ١٧ ينـاير سنة ١٩٦١ وهو يحاول الهرب إلى استـانلي فيـل وكان ذلـك بواسـطة قوات موبوتو . ثم أمر كازافـوبو بتسليم الـزعيم لومـومبا إلى أعـدائه

مويس تشومبي قائد الانفصال في كاتنجا . وقام تشومبي بقتل لومومبا على الفور ثم ادعى انه هرب من سجنه .

وبعد فترة قصيرة أصدر تشومبي بياناً سخيفاً لم يصدقه أحد . فقد أعلن أن القرويين الغاضبين على لومومبا قد هاجموه وأردوه قتيلاً . وتصور كازافوبو وتصور تشومبي معه انهما بذلك قد تخلصا من مشكلة الشرعية التي كان ـ يستند إليها لومومبا وان الأمر قد استتب لهما ان هما اتفقا .

ولكن الأمر سار على غير هواهما ، فقد تمكن عدد من وزراء لومومبا ومعاونيه من الوصول إلى ستانلي فيل . وبدأ جيزنجا نائب رئيس الوزراء واحد المخلصين للومومبا في تنظيم اللومومبيين وتنظيم المقاومة في أنحاء كثيرة من الكونغو . وظهرت الميليشيا التابعة للثورة واشتعلت المشاعر الوطنية في الكونغو وقامت ثورة حقيقية كرد فعل لمقتل لومومبا . واعتبر الثوار الكونغوليين أن الشريعة انتقلت من لومومبا إلى نائبه جيزنجا وهي وان لم تكن شرعية دستورية فهي بكل تأكيد شرعية ثورية .

رد عبد الناصر على مقتل لومومبا :

أصبح لومومبا بعد مقتله رمزاً للثورة والوحدة الوطنية ، ليس في الكونغو فقط ، ولكن في أفريقيا كلها بعد أن هز هذا الحدث وجدان الشعوب الافريقية كلها وعمق فيها الاحساس بالتمرد والكراهية ضد الاستعمار والامبريالية .

وما زلت أذكر ـ كما يذكر الكثيرون غيري بكل تأكيد ـ منظر لومومبا وهو يساق إلى حتفه ، وكانت شاشات التليفزيون قد عرضت فيلماً استطاع أحد المصورين التقاطه للومومبا بعد القبض عليه ، كان

مقيد اليدين يدفعه حراسه ويضربونه بكعوب بنادقهم فيسقط على الأرض ثم يجذبونه من شعر رأسه ليقف فيلاقي الضرب والركل من جديد . ولكن نظرات لومومبا وملامح وجهه كانت تعكس كل معاني التحدي والشموخ والكبرياء ، وإن كان قد بدأ على شاشات التليفزيون صامتاً مستسلماً لمصيره . وفي هذه اللحظات التي كنت أشاهد فيها هذه المأساة ، كنت أشعر أكثر من أي وقت مضى بالاعجاب والتقدير لهذا الرجل العظيم الذي استطاع أن يجسد معنى الاصرار والتضحية من أجل تحقيق الأهداف السامية التي يؤمن بها الانسان . وكان هدف لومومبا هو الاستقلال الكامل لبلاده وإنهاء السيطرة الأجنبية والاحتفاظ بوحدة الأراضي الكونغولية .

ان مقتل لومومبا الذي اعتبر في ذلك الوقت انتصاراً كبيراً لتشومبي وكازافوبو والقوى التي كانت تحركها ، لم يكن الا انتصاراً مؤقتاً فقط . فقد كان مقتل لومومبا في حقيقة الأمر وقوداً للحركة الوطنية في الكونغو ومبرراً لكثير من الدول ـ ومنها مصر ـ لكي تعلن عن وقوفها مع حكومة جيزنجا وتأييدها لها وللحركة اللومومبية وأن تقدم لها كل المساعدات الممكنة بدلاً من المساعدات المحدودة التي كانت تقدم للومومبا على استحياء حتى لا تتجاوز هذه المساعدات الحدود إلى ما يمكن اعتباره تدخلاً في الشؤون الداخلية للكونغو . فمهما كانت النظرة السابقة لشرعية وضع لومومبا قبل مقتله ، فقد كان من الصعب تجاهل شرعية كازافوبو .

وكرد فعل لمقتل لومومبا سحبت دول كثيرة ـ ومنها مصر ـ اعترافها بحكومة ليوبولدفيل وأعترفت بحكومة ستانلي فيل باعتبارها الحكومة الشرعية . أما رد الفعل الشعبي فقد كان عنيفاً في معظم عواصم العالم . فقد هوجمت السفارات البلجيكية في باريس ولندن وبلغراد

وطوكيو وموسكو ، كما هوجمت في القاهرة حيث زحفت الجماهير الغاضبة معتدية على مبنى السفارة وأدى ذلك إلى قطع بلجيكا لعلاقاتها مع مصر .

وفور مقتل لومومبا قرر جمال عبد الناصر سحب القوات المصرية التابعة للأمم المتحدة في الكونغو . كما عين سفيراً لمصر في استانلي فيل هو السيد ممدوح جبه الذي كان عليه أن يقوم هو وطاقم سفارته بمغامرة مثيرة للوصول إلى مقر عمله . فلم يكن أمامه إلا اتخاذ الطريق البري من جنوب السودان والمرور بمناطق لم يكن معروفاً وقتها مدى سيطرة حكومة جيزنجا عليها . وهكذا كانت السفارة المصرية من أول السفارات التي تواجدت في استانلي فيل واستطاعت هذه السفارة أن تقوم بدور هام في مساعدة الحركة الوطنية هناك بقيادة جيزنجا . وأقامت السفارة اتصالاً لاسلكياً بين استانلي فيل والقاهرة بمجرد وصول السفير ، وكانت بذلك ـ ولفترة طويلة ـ وسيلة حكومة الثورة في الاتصال بالخارج .

ووصل إلى القاهرة بعد مقتل لومومبا مباشرة أحد الزعماء الكونغوليين البارزين وهو بيير موليلي الذي كان وزيراً للتربية والتعليم في حكومة لومومبا . وكان موليلي مع لومومبا عندما قبض عليه وهو يحاول مغادرة ليوبولدفيل ولكن موليلي استطاع أن يفلت من الاعتقال كما استطاع الوصول إلى استانلي فيل . وحضر موليلي إلى القاهرة على رأس لجنة ثورية كلفت بالاقامة في العاصمة المصرية لتكون حلقة الاتصال بين حكومة الثورة في استانلي فيل والعالم الخارجي كما كانت هذه البعثة مكلفة بإعداد كل ما يلزم الثورة من الخارج . وكان موليلي يستقبل الوفود الأجنبية والسفراء الذين لم يكن من السهل عليهم القيام بهذا الاتصال في استانلي فيل نفسها .

وأصبحت القاهرة القاعدة الأساسية التي ترتكز عليها الثورة الكونغولية سواء في تدريب الكوادر العسكرية والامداد بالسلاح أو التحرك الدبلوماسي أو الاعلامي ، وخصصت إذاعة موجهة من القاهرة إلى الكونغو كانت تذيع باللغات الرسمية للبلاد ، وكان لهذه الاذاعة دوراً هاماً في تعبئة الشعور الوطني في الكونغو .

وكان طبيعياً أن تختار الثورة الكونغولية القاهرة لتجعل منها قاعدة ارتكازها حيث كانت مصر في ذلك الوقت أهم قاعدة للنضال الثوري في أفريقيا وتساند جميع حركات التحرير الافريقية وفي مقدمتها الثورة الجزائرية ، وفي ذلك الوقت أيضاً لم تكن العواصم المحيطة بالكونغو بقادرة على تقديم العون للثورة ، فتنجانيقا وأوغندا لم يكونا قد حصلا على استقلالهما بعد . أما برازافيل القريبة من ليوبولدفيل فكان بها حكم شديد الرجعية برئاسة الأب يولو . وهذا يجعلنا ندرك أهمية الدور الذي لعبته القاهرة في مساندة الثورة الكونغولية .

ولم يكن هذا هو رد الفعل الوحيد الذي قام به عبد الناصر بعد مقتل لومومبا . فقد أعلن عبد الناصر عن تأميم المصالح والأموال البلجيكية في مصر . وقد جاء هذا القرار رداً بليغاً من جانب عبد الناصر باعتبار أن المسؤولية الأولى عن أحداث الكونغو ترجع إلى الاحتكارات الرأسمالية هناك . والتي هي أوروبية أمريكية وان كانت بلجيكية في معظمها . وهي أيضاً التي لعبت دوراً خطيراً في نهب الكونغو وتخريب اقتصاده وتوصيل هذه البلاد الغنية إلى حافة الهاوية .

وقد ظهر هذا الدور التخريبي بوضوح قبل وعقب الاستقلال مباشرة ، فقد كانت الادارة البلجيكية في الكونغو قبل الاستقلال تمتلك جزءاً كبيراً من رأس مال الشركات والمشروعات الخاصة ، وهو وضع ورثته الادارة البلجيكية منذ كان الكونغو ملكاً خاصاً للملك

ليوبولد الثاني . كما كان هناك كثير من الأجهزة ذات الطابع الشبه حكومي تستطيع عن طريقها الحكومة أن تؤثر في الاقتصاد الكونغولي وتوجهه . كما كانت الحكومة تتمتع ببعض الحقوق التي تزيد من قدرتها في توجيه الاقتصاد مثل حق ترشيح مجالس الادارات وحق التصويت عند اختيارهم وذلك حتى في المشروعات التي لم تكن الادارة البلجيكية تساهم في رؤوس أموالها .

ورغم هذه السلطات الواسعة التي كانت تتمتع بها الادارة في الكونغو فقد كانت الشركات الكبرى بدورها تسيطر على الادارة البلجيكية نفسها سيطرة شاملة بعد أن تمكنت هذه الشركات من أن تخصص مزايا مادية ضخمة لممثلي الدولة من البلجيك فأصبحوا بذلك تحت أمرتها .

وقبل استقلال الكونغو مباشرة خشيت الشركات أن تنتقل تلك السلطات إلى الحكومة الافريقية الجديدة والتي قد يصعب السيطرة عليها بنفس الطريقة ، فعجلت هذه الشركات بمناورتها حتى تمنع الشعب الكونغولي من أن يسيطر على ثرواته وأمكن هذه الشركات الموجودة أن تحمل الحكومة البلجيكية على اتخاذ العديد من الاجراءات بقصد حرمان الحكومة الوطنية الجديدة من أدوات السيطرة القوية على اقتصاديات الكونغو .

ولإيضاح هذه الصورة نذكر على سبيل المثال شركة C. N. K. I وكان يطلق عليها اسم « اللجنة الوطنية لكيغو » وكانت مؤسسة شبه حكومية تمتلك الكثير من العقارات والمناجم والأراضي الواسعة . وفي ٣٠ مايو ١٩٦٠ أي قبل الاستقلال بشهر واحد صدر مرسوم تم بمقتضاه انهاء وضع حكومة الكونغو البلجيكي كشريكة في الامتياز بانسحابها وتنازلها عن حقها في المؤسسة .

وهكذا بجرة قلم فقدت الشركة وضعها كمؤسسة شبه حكومية ، وقرر حملة اسهمها تحويلها إلى شركة مساهمة عامة باسم « شركة كيغو البلجيكية الافريقية » .

وقد حدث نفس الشيء بالنسبة لشركة C. S. K. التي كانت أيضاً مؤسسة شبه حكومية تمتلك غالبية أسهم اتحاد المناجم الشهير . وكان من حق هذه الشركة التي تسيطر عليها الحكومة تعيين المجلس الاداري لاتحاد المناجم وتعيين عدد من المديرين ، وفي ٢٧ يونيو ١٩٦٠ ـ أي قبل إعلان الاستقلال بثلاثة أيام ـ صدر مرسوم يقضي بحل هذه الشركة وتقسيم أصولها بين شركتين من بينهما شركة كاتنجا . ومنح نفس المرسوم شركة كاتنجا فوائد ومزايا إضافية ضخمة ، واستولت هذه الشركة بناء على ذلك على ثلث الأراضي التي استصلحتها شركة C. N. K. I كما استولت على عقاراتها وأموالها في المصارف ، كما استولت أيضاً على حق حصولها على ثلث الايجارات التي كان ينتظر أن تحصل عليها شركة C. S. K. من امتيازات التعدين في المستقبل .

وهكذا تمكن البلجيكيون بألاعيب بهلوانية ومناورات وتحايل ، يدخل في عداد النصب ، من حل الشركات شبه الحكومية وحرمان الحكومة الوطنية من الكثير من الامتيازات التي كانت ستمكنها على الأقل من الاشتراك في توجيه الاقتصاد القومي للكونغو .

لقد أرادت بلجيكا أن تكون السلطة الحقيقية والسيطرة الكاملة لرأس المال والشركات ، وبذلك تستمر سيطرتها الفعلية على البلاد وان تغير وجه الحكومة بعد رفع اعلام الاستقلال .

ويلاحظ أن بلجيكا والشركات الأجنبية في الكونغو عملت على

جذب المزيد من رؤ وس الأموال الأمريكية للمساهمة في الاستثمارات الكونغولية وذلك قبل الاستقلال مباشرة .

فقد حصل بنك أمريكا منذ عام ١٩٦٠ على ٢٠ ٪ من مجموعة بنك لامبرت (سوكوبانك) ، وقام فورد بتأسيس شركة فورد موتورز بالكونغو وقام عام ١٩٦٠ أيضاً باستغلال منجم الكلور الحراري . وقد قام روكفلر بجولة في الكونغو عام ١٩٥٩ قامت جماعته بعدها مباشرة بشراء ١٠٣٠ سهماً من أسهم شركة البحوث والتنقيب عن البوكسيت في الكونغو (بوكسيكونجو) وفي يونيو ١٩٦٠ أعلن على عزمه شراء ٨ ٪ من رأس المال البالغ ٦٥ مليون دولار الخاص بشركة الكونغو للتجارة الصناعية . هذا علاوة على نشاط شركة « يور أفريكان الأمريكية » وشركات استثمار أمريكية أخرى بدأ نشاطها في الشهور القليلة قبل استقلال الكونغو .

وهكذا وجد التشابك في المصالح الرأسمالية البلجيكية والامريكية علاوة على المصالح الأوروبية الأخرى الموجودة من الأصل وخاصة في اتحاد المناجم الذي توجد فيه نسبة كبيرة لرأس المال البريطاني . وهذا بالاضافة إلى الشبكة المعقدة التي تربط بين المصالح المصرفية في أوروبا وأمريكا وبين المشروعات الصناعية في أفريقيا . وبذلك أصبح للولايات المتحدة الأمريكية هي الأخرى مصلحة ذاتية في حماية واستمرار سيطرة هذه الاحتكارات والشركات على مقدرات الكونغو .

ولم تكتف السلطات البلجيكية بذلك وإنما اتخذت عدة إجراءات من شأنها أن تجعل الكونغو غير قادر على الاستغناء عن معونة بلجيكا المالية . ومن هذه الاجراءات سحب مبالغ ضخمة من رؤ وس الأموال الموجودة في الكونغو . وقد تعرض الرئيس كوامي نكروما في كتابه

« الاستعمار الجديد آخر مراحل الامبريالية » إلى الكثير من هذه الاجراءات التي أدت إلى تخريب الاقتصاد الكونغولي قبل الاستقلال مباشرة . فعندما تسلم لومومبا الحكم كانت خزينة البلاد خاوية ومثقلة بالتزامات كثيرة ، والأسواق المحلية خالية من كثير من السلع والاحتياجات الضرورية كما كانت الشركات والمؤسسات الاجنبية تمتلك ثروة البلاد وتتحكم فيها .

لذلك كله جاء تأميم عبد الناصر للمصالح البلجيكية في مصر باعتبارها رمزاً للاحتكارات الرأسمالية في الكونغو . وكان ذلك يعني إدانة هذه الاحتكارات وتحميلها مسؤولية ما حدث في الكونغو . وقد أراد عبد الناصر أيضاً أن يلفت أنظار العالم والدول الافريقية على وجه الخصوص إلى خطورة الاحتكارات الرأسمالية ودورها في خدمة الاستعمار . وجاء هذا التأميم دعوة في نفس الوقت إلى ضرب هذه الاحتكارات باعتبارها أداة من أدوات الاستعمار .

عودة الحكم المركزي وإنهاء الانفصال في كاتنجا :

في فبراير سنة ١٩٦١ تقدمت مصر التي كانت تشترك وقتئذٍ في عضوية مجلس الأمن مع كل من سيلان وليبيريا ، بمشروع قرار إلى المجلس يخول قيادة الأمم المتحدة في الكونغو . . استخدام القوة إذا كان هذا ضرورياً كملاذ أخير . . « وذلك بقصد تحقيق وحدة الكونغو » . وقد وافق مجلس الأمن على هذا القرار بعد جهد شاق ونشاط واسع قامت به الدول الافريقية الثورية والدول التقدمية في الأمم المتحدة . وقد ساعد أيضاً على استصدار هذا القرار أن كينيدي كان قد استقر في البيت الأبيض وبدأت الولايات المتحدة تراجع سياستها الافريقية لتكون أكثر واقعية .

ورغم صدور هذا القرار إلا أنه مضت فترة دون أن تبدو أي بادرة من الأمم المتحدة لتنفيذه . وفي نفس الوقت كانت هناك محاولات تؤيدها بلجيكا والمؤسسات الرأسمالية في الكونغو للتقريب بين تشومبي وكازافوبو على حساب استانلي فيل بطبيعة الحال .

ففي مارس ١٩٦١ عقد مؤتمر مائدة مستديرة في تنتاريف (عاصمة مدغشقر) حضره كل من كازافوبو وتشومبي والرئيس سيرانانا رئيس جمهورية مدغشقر بدعوة من الأخير . وأعلن عقب هذا الاجتماع عن الموافقة على قيام اتحاد كونفيدرالي في الكونغو . وكان معنى ذلك تأكيداً لانفصال كاتنجا والتسليم لتشومبي بذلك .

وقد أثارت هذه المناورات هجوماً عنيفاً على السكرتير العام للأمم المتحدة لتقاعسه عن استخدام القوة في إنهاء انفصال كاتنجا . ففي نفس الشهر عندما اجتمع المؤتمر الثالث لكل الشعوب الافريقية في القاهرة (المدة من ٢١ ـ ٢٥ مارس ١٩٦١) والذي اشتركت فيه جميع التنظيمات والأحزاب الثورية في أفريقيا ، كما حضرته جميع حركات التحرير الافريقية ، كان موضوع الكونغو وموقف الأمم المتحدة في مقدمة الموضوعات التي بحثها المؤتمرون . وصدر بيان يدين السكرتير العام للأمم المتحدة داج همرشولد ويعتبره مسؤولاً عن مقتل لومومبا بجانب كازافوبو وتشومبي وموبوتو .

وفي مقابل هذا التيار الثوري المؤيد للثورة الكونغولية ظهر تكتل آخر يخشى هذا المد الثوري ويعمل على وقفه . فقد اجتمعت عشرون دولة أفريقية في منروفيا (مايو ١٩٦١) وكان أهم الموضوعات التي بحثت في هذا الاجتماع موضوع التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأعضاء وذلك بقصد وقف المساعدات التي تقدم لحكومة الثورة في

استانلي فيل واعتبارها هذه المساعدات تدخلاً في شؤون الكونغو الداخلية .

وكان حماس كثير من الرؤساء المشتركين في مؤتمر منروفيا لهذا الموضوع راجعاً إلى وجود معارضة قوية داخل دولهم ، وخوفهم من اندلاع الثورة على غرار ما حدث في الكونغو ، خاصة أن بعض هذه الدول مثل النيجر والكاميرون كانت المقاومة فيها منظمة وعلى صلة بالقوى التقدمية الثورية في العالم باعتبارها التنظيمات الرئيسية التي كانت تقف في وجه الاستعمار الفرنسي قبل الاستقلال والتي كانت في تقدير الكثيرين ما زالت تتمتع بتأييد الأغلبية في بلادها .

وهكذا جاء مولد تكتل جديد في أفريقيا وهو ما أطلق عليه مجموعة منروفيا ، تؤيد كازافوبو وتقف في مواجهة مجموعة الدار البيضاء التي تؤيد ثوار استانلي فيل . المجموعة الأولى تضم الحكومات المحافظة التي تهادن الاستعمار والثانية تضم الحكومات التي تقود الثورة الافريقية ضد الاستعمار الامبريالي .

ورغم الانقسام الذي حدث بين دول أفريقيا بالنسبة لقضية الكونغو إلا أن أحداً منها لم يؤيد تشومبي حتى ذلك الوقت . فلم يكن هناك من يستطيع أن يقف علناً بجانب فكرة الانفصال ، فهو أمر يهدد الكثير من الدول الافريقية الحديثة الاستقلال ، والتي ما زالت مجتمعاتها قبلية ، كما أن تشومبي كان قد أصبح مدموغاً بالخيانة ووجهاً كريهاً أمام الشعوب الافريقية كلها . . وحتى اتفاق المائدة المستديرة الذي تم بين كازافوبو وتشومبي بحضور رئيس جمهورية مدغشقر كان قد نسفه اجتماع آخر لاحق بعد شهرين اثنين .

وقد ازداد موقف الأمم المتحدة حرجاً في الكونغو بعد صدور قرار

مجلس الأمن بتخويل المنظمة الدولية حق استخدام القوة خاصة وانه كان قد مضى على وجود قواتها هناك وقت طويل دون أن تتمكن من تحقيق الأهداف التي ذهبت من أجلها بل أن الموقف ازداد سوءاً . فبعد أن كان الانقسام في كاتنجا فقط ـ عندما ذهبت قوات الأمم المتحدة إلى الكونغو ـ أصبح هناك ثلاث حكومات في استانلي فيل وليوبولدفيل واليزابث فيل (عاصمة كاتنجا) ثم أن أصابع الاتهام بدأت تتجه إلى همرشولد السكرتير العام باعتباره متقاعساً إن لم يكن متواطئاً .

وبازدياد ضغط الدول التقدمية على الأمم المتحدة لتنفيذ قرار مجلس الأمن أصبح من غير الممكن تجاهل هذا القرار . ومن هنا ظهرت فكرة التوفيق بين أنصار لومومبا في استانلي فيل بقيادة جيزنجا وبين كازافوبو على حساب تشومبي باعتبار أن ذلك أمر ضروري للتمهيد لاستخدام القوة لإنهاء الانفصال في كاتنجا . وكان ذلك تحولاً هاماً في سياسة الأمم المتحدة شجع الدول الافريقية بمجموعتيها بل واشتركت دول أفريقية في هذه الوساطة وبذلت جهودها من أجل التقريب بين الأطراف .

وفي ٢ أغسطس سنة ١٩٦١ اجتمع البرلمان الكونغولي بعد توحيده وانتخب سيرل أدولا رئيساً لحكومة الكونغو المركزية ، كما انتخب جيزنجا زعيم الثوار في استانلي فيل نائباً لرئيس الوزراء .

وانتهت بذلك الازدواجية بين ليوبولدفيل واستانلي فيل . وأصبح هناك حكومة مركزية يؤيدها اللومومبيون ولكنهم لا يرأسونها وبقي تشومبي وحده داعية الانفصال في كاتنجا والعميل الأول لبلجيكا والاحتكارات الأجنبية .

وجدت حكومة ليوبولدفيل المركزية ترحيباً من جميع الدول الافريقية وعملت دول الدار البيضاء على دعوة الحكومة الجديدة

لحضور مؤتمر عدم الانحياز الأول الذي عقد في بلغراد على مستوى الرؤساء في المدة من ١-٦ سبتمبر سنة ١٩٦١ كدليل على ثقتها في هذه الحكومة . وذهب إلى بلغراد كل من سيرل أدولا رئيس الوزراء وانطوان جيزنجا نائب رئيس الوزراء . وألقى كل منهما خطاباً أمام المؤتمر والتقى عبد الناصر بالزعيمين في بلغراد كل على انفراد . وكانت أحاديثهما توحي بكثير من التفاؤل كما أبدى كل منهما ارتياحه للمصالحة الوطنية .

بعد قيام الحكومة المركزية في ليوبولدفيل باشتراك جيزنجا وترحيب اللومومبيون بالمصالحة ، قامت مصر بإغلاق سفارتها في استانلي فيل ونقلها إلى ليوبولدفيل وأصبح تعاملنا مع الحكومة المركزية وفي نطاق العلاقات العادية .

وأسرعت حكومة الكونغو من جانبها بإقامة تمثيل لها في القاهرة . وقمنا بتصفية جميع العلاقات العسكرية التي كانت قائمة مع التنظيمات الثورية في الكونغو . وأوقفنا كل نشاط آخر يمكن أن يثير شكوك الحكومة الجديدة في ليوبولدفيل وذلك لرغبتنا في إتاحة الفرصة كاملة لنجاح المصالحة الوطنية .

وكانت حكومة الثوار في استانلي فيل قد نقلت كمية كبيرة من الذهب إلى القاهرة لمواجهة المصروفات المتزايدة لتوفير احتياجاتها من الخارج . . وقد تم إيداع هذه الكمية من الذهب في البنك المركزي المصري في القاهرة باسم حكومة الكونغو . وفتح حساب بضمان جزء من هذا الذهب باسم البعثة الكونغولية في القاهرة برئاسة موليلي وذلك للإنفاق منه حسب متطلبات حكومة الثورة .

وبعد المصالحة الوطنية تم تسليم كمية الذهب المودعة في القاهرة للحكومة الجديدة في ليوبولدفيل عدا الجزء المحتجز مقابل

المسحوبات . وأبدت القاهرة في نفس الوقت استعدادها لتسليم هذا الجزء المحتجز ، إذا قامت حكومة الكونغو بسداد المبالغ المسحوبة وفوائدها أو بيع هذا الجزء ـ إذا رغبت حكومة الكونغو في ذلك على أن يعاد أي فائض إلى حكومة الكونغو بعد سداد استحقاق البنك .

وقد اعترض موليلي في بادىء الأمر وطلب أن يبقى الذهب كله في القاهرة لحساب الثوار احتياطاً لما قد تتطور إليه الأمور ، ولكن جمال عبد الناصر رفض باعتبار ان هذا الذهب هو ملك لشعب الكونغو جاء باسم الحكومة التي كنا نعترف بها ، أما وقد أصبح في الكونغو حكومة واحدة يعترف بها الثوار أنفسهم فيجب أن يعود الذهب فوراً إلى هذه الحكومة التي نعترف نحن أيضاً بها .

وسويت الحسابات بالفعل بعد فترة من الزمن ولكن بعد أن كانت الفوائد قد أوصلت الدين إلى الحد الذي غطى فيه قيمة الجزء من الذهب المحتجز كله ، وكان قد زاد عنه بمبلغ بسيط . وكانت التسوية بأن تنازلت حكومة الكونغو عن هذا الجزء من الذهب للبنك المركزي المصري مقابل الدين ، وتنازل البنك عن الفرق بين ثمن الذهب والدين بعد تراكم الفوائد وما زال البنك المركزي في القاهرة يحتفظ بكل الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع .

وبعد أن تدعم موقف الحكومة المركزية أصبحت الأمور مهيأة لتقوم الأمم المتحدة باستخدام القوة لتعيد سيطرة هذه الحكومة على اقليم كاتنجا . وفي ديسمبر ١٩٦٢ قامت قوات الأمم المتحدة باحتلال الاقليم وانتهت بذلك قصة الانفصال في اقليم كاتنجا وعادت إلى الكونغو وحدته ولكن بعد أن كان همرشولد قد فقد حياته أثناء عمليات الأمم المتحدة وذلك في حادث طائرة اكتنفه كثير من الغموض . وهكذا شاء القدر للسكرتير العام الذي كاد أن يفقد سمعته بسبب

عدم استخدامه القوة في إقليم كاتنجا ، أن يفقد حياته عندما استخدم هذه القوة وحقق المهمة التي كلفه بها المجتمع الدولي .

وبانتهاء الانفصال في كاتنجا وعودة الوحدة إلى الأراضي الكونغولية ، زالت أهم الأسباب التي قسمت أفريقيا إلى مجموعتين ، مجموعة منروفيا ومجموعة الدار البيضاء . وكانت الجزائر قد حصلت على استقلالها وبذلك أصبح من الممكن عقد مؤتمر قمة يضم جميع الدول الافريقية المستقلة .

واجتمع ثلاثون رئيس دولة افريقية في اديس أبابا حيث وقعوا ميثاق الوحدة الافريقية التي قامت بمقتضاها منظمة الوحدة الافريقية في ٢٥ مايو سنة ١٩٦٣ . ولم يثر موضوع الكونغو في هذا الاجتماع فقد تحقق لمجموعة الدار البيضاء ما أرادته بالنسبة لإنهاء الانفصال في كاتنجا وعودة الوحدة للأراضي الكونغولية . كما أن مجموعة منروفيا كانت راضية هي الأخرى لوقف تدفق الأسلحة والمساعدات للثوار في الكونغو وأيضاً لبقاء كازافوبو رئيساً لجمهورية الكونغو الموحدة .

اشتعال الثورة الكونغولية من جديد :

بعد انتهاء الانفصال في كاتنجا ، كان هناك اعتقاد بأن أزمة الكونغو قد انتهت كمشكلة أفريقية ، وان ما تبقى من خلاف أو صراع بين الزعماء الكونغوليين إنما هو من شؤون الكونغو الداخلية .

وفي غمرة الابتهاج بعودة الوحدة للأراضي الكونغولية والترحيب الكبير الذي استقبلت به في جميع أنحاء القارة الافريقية ، قام أدولا بإخراج جميع أنصار لومومبا من حكومته .

ومرت فعلة أدولا هذه دون رد فعل يذكر سواء داخلياً أو خارجياً لأن سقوط تشومبي وخروجه إلى منفاه الاختياري في أوروبا قلل من

أهمية هذه الخطوة رغم انها كانت في واقع الأمر نقضاً صارخاً لروح اتفاق المصالحة الوطنية بين اللومومبيين وكازافوبو الذي تم في أغسطس سنة ١٩٦١ والذي أتى بأدولا إلى الحكم .

ولكن الأمور لم تقف عند هذا الحد ، ففي سبتمبر عام ١٩٦٣ قام كازافوبو رئيس الجمهورية بحل البرلمان الكونغولي وفي اليوم التالي اجتمعت الأحزاب اللومومبية في ليوبولدفيل وأدانت حل البرلمان ، وشكلت تنظيماً جديداً يضم هذه الأحزاب أطلق عليه اسم « المجلس الوطني للتحرير » « Conseil National de Liberation » وانتقل قادة هذا التنظيم الجديد إلى برازافيل التي لا يفصلها عن ليوبولدفيل سوى نهر الكونغو .

واشتعلت الثورة من جديد في الكونغو ، وظهرت حرب العصابات . وكانت البداية في اقليم « كويلو » بقيادة الزعيم « بيير موليلي » الذي سبق له الاقامة في القاهرة على رأس بعثة ثورية في الفترة التي أعقبت مقتل لومومبا وطوال بقاء حكومة جيزنجا في استانلي فيل وكان قد غادر القاهرة عائداً إلى بلاده بعد قيام حكومة أدولا المركزية .

وبنهاية عام ١٩٦٣ كانت حرب العصابات قد انتشرت في أماكن كثيرة من الكونغو . واستطاع الثوار الكونغوليون تحقيق انتصارات كثيرة في الشهور الأولى من عام ١٩٦٤ وأمكن لهم السيطرة على أجزاء كبيرة من الكونغو . وكانت قاعدة ارتكازهم هذه المرة وحتى ذلك الوقت هي برازافيل حيث كان الحكم قد تغير هناك بقيام الثورة على حكم الأب يولو وقيام حكم وطني بزعامة ماسيمباديبا وكان من السهل تدفق الامدادات والمساعدات المطلوبة للثورة عبر نهر الكونغو .

وفي الوقت الذي كانت فيه الثورة تحقق نجاحاً مستمراً وتسيطر كل يوم على أراضي ومناطق جديدة ، بدأت الحكومة البلجيكية

بالتعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية في سلسلة من المناورات السياسية التي كانت تبشر باستعدادها للتدخل من جديد في شؤون الكونغو بقصد عرقلة تقدم الثوار وفرض الأوضاع التي تلائم مصلحة هذه الدول . وظهر ذلك جلياً عندما استطاعت الولايات المتحدة أن تؤخر تاريخ انسحاب القوات التابعة للأمم المتحدة في الكونغو ـ والتي كانت قد انتهت مهمتها هناك ـ ولمدة ستة شهور تنتهي في ٣٠ يونيو ١٩٦٤ وذلك عن طريق نفوذها وضغطها المستمر داخل المنظمة الدولية .

وفي فبراير سنة ١٩٦٤ قامت طائرات الأمم المتحدة بمساعدة الجيش الكونغولي الذي يحارب الثوار وذلك بالمساهمة في أعمال الامداد والتموين .

وبحلول شهر يونيو سنة ١٩٦٤ كان البلجيك قد تعهدوا لحكومة الكونغو أن يحلوا محل الأمم المتحدة في امداد الكونغو بالطيارين البلجيك وكذلك الأفراد اللازمين لأعمال صيانة الطائرات .

ثم بدأت الصحافة ووسائل الاعلام البلجيكية والأمريكية تهتم فجأة بتشومبي الذي كان قد نسي تماماً وهو في منفاه الاختياري بأوروبا . وحاولت هذه الأجهزة تبرئته من دماء لومومبا ، كما استغلت رحلة فجائية قام بها تشومبي إلى مالي في يونيو سنة ١٩٦٤ بناء على دعوة الحزب الحاكم هناك ، لإقناع الرأي العام في أفريقيا بعودة الوجه الافريقي لتشومبي . . والذي سبق ان دمغته الشعوب الافريقية بالعمالة المطلقة للاستعمار . . حيث كانت مالي إحدى الدول الثورية في القارة .

والحق اننا فوجئنا في القاهرة بهذه الزيارة وأرسلنا إلى باماكو نستفهم عن هذه الزيارة وننبه إلى ما قد تسفر عنه من تعزيز لمركز أحد

عملاء الاستعمار وقبل أن يصلنا الرد أعلن الماليون في باماكو ان تشومبي حاول خداعهم وخداع العالم بهذه الزيارة وهاجمته أجهزة الاعلام المالية باعتباره عميلاً وعدواً لشعب الكونغو والشعوب الافريقية كلها .

وفي يوليو ١٩٦٤ فوجئنا في القاهرة ، كما فوجىء الأفارقة بتعيين تشومبي رئيساً لوزراء الكونغو . وكان من الواضح أن أصابع بلجيكا وأمريكا وراء هذا التعيين . وقد أوضح كازافوبو أمام البرلمان الكونغولي بعد ذلك أن سبب تعيين تشومبي هو خوفه من عودة انفصال كاتنجا . وقال أن المرتزقة من الأوروبيين الذين حاربوا مع تشومبي من أجل انفصال كاتنجا ما زالوا قابعين في إقليم مجاور هو أنجولا ، وأنهم يحملون سلاحهم ويتحينون الفرصة لمعاودة محاولاتهم لفصل اقليم كاتنجا من جديد . وانه يرى أن تشومبي هو الرجل الوحيد القادر على إعادة هذه القوات إلى صفوف الجيش الكونغولي .

والذي لم يقله كازافوبو ان هذه كانت رغبة بلجيكا وأمريكا وأنه بهذه الاستجابة كان يضمن مساعدة هاتين الدولتين له ولتشومبي في وقف تقدم الثوار الكونغوليين الذي أصبح يشكل خطراً حقيقياً على حكمه .

لقد كان تعيين تشومبي رئيساً للوزراء في هذا الوقت وبهذا الشكل تسليم من كازافوبو لبلجيكا والولايات المتحدة الأمريكية بالتحكم من جديد في مقدرات الكونغو ، كما جاء ذلك تحدياً للمشاعر الافريقية وخاصة للدول التي وقفت بجانب لومومبا وبجانب أنصاره من بعد إلى أن تحققت للكونغو وحدته . لقد أثارت عودة تشومبي الكثير من الشكوك لما عرف به من عمالة مكشوفة للاستعمار البلجيكي والاحتكارات الاستعمارية التي كانت وراء كل مشاكل الكونغو .

ويجدر الاشارة هنا إلى أن مصر - حتى ذلك الوقت ومنذ قيام حكومة أدولا . . . ابتعدت عن أي تدخل في شؤون الكونغو ، ودعمت علاقتها بالحكومة المركزية . ولكن تعيين تشومبي جاء قبل انعقاد مؤتمر القمة الافريقي الثاني في القاهرة والذي كان قد حدد موعده في يوليو سنة ١٩٦٤ . وكان معنى ذلك أن يحضر تشومبي إلى القاهرة إذا عين في وفد بلاده وهو ما لا يمكن أن يقبل به عبد الناصر الذي كان يرى في حضور تشومبي مؤتمر القمة الافريقي المنعقد في القاهرة نيلاً من كرامة مصر التي سبق أن أرسلت قواتها تحت علم الأمم المتحدة لمقاومة حركة تشومبي الانفصالية ، كما انه لم يكن يتصور أن يجلس تشومبي معه ومع الرؤساء الأفارقة الآخرين لأن معنى ذلك إذا حدث أن تقبل أفريقيا سياسة الأمر الواقع التي يعمل الاستعمار على فرضها . لقد رأى عبد الناصر أن حضور تشومبي إلى القاهرة فيه تحد للشعور الافريقي وينسف كل ما يريد عبد الناصر أن يحققه من وراء هذا المؤتمر .

وبناءً على ذلك قام الوفد المصري في مؤتمر وزراء الخارجية الذي عقد في القاهرة قبل مؤتمر القمة الافريقي مباشرة ، بإقناع الوفود الأخرى بأن ترسل برقية باسم المؤتمر إلى الرئيس كازافوبو تطلب منه عدم اشتراك تشومبي في وفد بلاده ، وقد وافقت جميع الدول الافريقية على هذا الاقتراح عدا وفد الكونغو الذي انسحب وحده من المؤتمر احتجاجاً على هذا القرار .

وأمكن بذلك تجنب الحرج ، فلم يحضر تشومبي المؤتمر كما لم يحضر كازافوبو . غير أن بعض الرؤساء الافريقيين في مؤتمر القمة أبدوا عدم ارتياحهم للبرقية التي أرسلت إلى كازافوبو باسم المؤتمر لمنع رئيس وزرائه من الحضور معتبرين ذلك تدخلاً في شؤون الكونغو .

وكان الرئيس سيرانانا رئيس مدغشقر هو الرئيس الوحيد الذي حاول الدفاع عن تشومبي . فجاء دفاعه بعيداً عن المنطق ومثيراً للضحك إذ قال : « لقد استنكرنا جميعاً مقتل لومومبا ولكن هذا لا يعطينا الحق في التدخل في شؤون الكونغو وطالما نحن بهدا الصدد فلنسأل ضمائرنا ، من منا لم يوقع على وثيقة باعدام أحد مواطنيه ؟ لسنا جميعاً ملائكة . فإذا كان تشومبي سيذهب إلى الجحيم فمن المؤكد أنه لن يكون وحده ، فالبعض سوف يكونون معه » وانتهى الأمر عند هذا الحد ومنع بذلك تشومبي من الاشتراك في مجلس رؤساء منظمة الوحدة الافريقية .

ولا شك ان هذا الأمر الذي حدث كان صفعة شديدة تلقاها تشومبي في الأيام الأولى من توليه رئاسة الحكومة . . وكان لذلك أيضاً تأثيره على نظرة الشعب الكونغولي لتشومبي الذي رفض الرؤساء الأفارقة إجلاسه معهم .

وفي الوقت الذي كان فيه الثوار الكونغوليون يحققون انتصارات متوالية وصلت ذروتها في أغسطس سنة ١٩٦٤ ، بدأ تشومبي في تجنيد أعداد كبيرة من المرتزقة الأوروبيين معظمهم من جنوب أفريقيا ، وتدفقت وراءهم المساعدات العسكرية من الولايات المتحدة الأمريكية .

وقد أثار تجنيد الأوروبيين ثائرة الكثير من الدول الافريقية وخاصة الدول المجاورة مثل الكونغو برازافيل وبورندي التي رأت في ذلك تهديداً لأمنها وسلامتها . وقد أسقط هذا العمل القناع الافريقي الذي حاول تشومبي أن يضعه بعد تعيينه رئيساً للوزراء في الحكومة المركزية ، فها هو يعود إلى نفس الأسلوب الذس سبق اتباعه عندما قام بحركته الانفصالية في كاتنجا ألا وهو استخدام المرتزقة . ثم انه فضح

بـذلك عمـالته من جـديد وكشف المخـطط الاستعماري الامبـريـالي للابقاء على سيطرة الاستعمار والاحتكارات الرأسمالية على مقـدرات الكونغو كله بعد أن فشلت فكرة الانفصال في كاتنجا الغنية .

لقد كان تجنيد المرتزقة وخـاصة من جنـوب أفريقيـا يعني في نظر الكثيـرين ، استجلاب العنصـريـين أعـداء الشعـوب الافـريقيـة ثم تسليحهم لقتل الأفارقة الكونغوليين ، كما كان في نظرهم عملاً يدخل ضمن إبادة الجنس الأمر الذي تحرمه المواثيق والقوانين الدولية . وبناءً على ذلك طلبت بعض الدول الافريقيـة ومنها مصـر ، عقد اجتمـاع استثنائي لمجلس وزراء منظمة الوحـدة الافريقيـة . وعقد المؤتمـر في اديس أبابـا في ٥ سبتمبر سنة ١٩٦٤ رغم محاولات حكومة الكـونغو اليائسة لتأجيل الاجتماع .

وصدر قرار عن المؤتمر أيدتـه الأغلبية السـاحقة يقضي « بـوقف تجنيد المرتزقة فوراً وطرد الموجود منهم في الكونغو مهما كانت جنسياتهم في أسرع وقت ممكن » كما طالب القرار بالمصالحة الوطنية وأنشأ لجنة من عشرة دول برئاسة الرئيس جومو كينياتا تكون مهمتها أولاً العمل على عودة العلاقات العادية بين الكونغو ليوبولدفيل والدولتين المجاورتين له وهما بورندي والكونغو برازافيـل وثانيـاً : مساعـدة وتشجيع حكـومة الكونغو في تحقيق المصالحة الوطنية .

ورغم أن هذا القرار أغضب الحكومة الكونغولية لما جاء فيه عن المصالحة الوطنية وتشكيل لجنة العشـرة التي أصبحت بعد ذلـك سيفاً مسلطاً على رقبة تشومبي ، إلا أن الاجتماع في حد ذاته أعطى تشومبي شرعية التواجد في المجتمع الافريقي حيث حضر هذا الاجتماع بصفته وزير الخارجيـة الكونغـولية ولم يعتـرض أحد عـلى حضوره . ووجـد

تشومبي في ذلك رداً لاعتباره بعد أن كان قد منع من حضور مؤتمر القاهرة .

وفي نفس الوقت الذي اجتمع فيه مؤتمر وزراء الخارجية للدول الافريقية أعلن المجلس الوطني للتحرير C. N. L. دستور جمهورية الكونغو الشعبية وأعلن حكومتها المؤقتة في استانلي فيل . ولكن لم تسحب أية دولة اعترافها من ليوبولدفيل لتعترف باستانلي فيل ، كما سبق أن حدث عندما قامت حكومة استانلي فيل في أعقاب مقتل لومومبا .

اجتمعت اللجنة الخاصة بالكونغو والسابق ذكرها برئاسة جومو كنياتا في ١٨ سبتمبر وكانت مصر بين أعضاء هذه اللجنة ، وأعلنت اللجنة انها لا تستطيع أن تجد الجو المناسب لتحقيق المصالحة الوطنية إلا بعد وقف كل تدخل عسكري أجنبي ، وبناءً على ذلك قررت اللجنة إرسال وفد من خمس مندوبين من الدول العشر أعضاء اللجنة لمقابلة الرئيس جونسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية لحثه على وقف المساعدات الأمريكية لحكومة تشومبي . وكان معنى ذلك أن اللجنة تتهم أمريكا بأنها العقبة الرئيسية التي تقف دون تحقيق المصالحة الوطنية .

وقد احتجت حكومة الكونغو على هذا الاجراء كما رفض الرئيس جونسون أن يستقبل الوفد باعتبار أنه لا يمكن بحث موضوع المساعدات الأمريكية للكونغو وفي غياب ممثلي حكومة الكونغو التي طلبت هذه المساعدات . وهكذا عادت مشكلة الكونغو لتصبح مشكلة أفريقية ومشكلة دولية من جديد رغم انتهاء الانفصال في كاتنجا . وعاد الانقسام إلى أفريقيا من جديد بسبب هذه المشكلة التي كادت أن تعصف بالمنظمة الافريقية الوليدة .

تشومبي في القاهرة :

في أكتوبر سنة ١٩٦٤ وقبل انعقاد مؤتمر القمة لدول عدم الانحياز بالقاهرة واجهت مصر نفس المشكلة التي سبق أن واجهتها في اجتماع مؤتمر القمة الافريقي في يوليو من نفس العام الا وهي حضور تشومبي ، فقد وجهت الدعوة لجميع الدول الافريقية أعضاء منظمة الوحدة الافريقية ومنها الكونغو بطبيعة الحال لحضور هذا المؤتمر من ٥ ـ ١٠ اكتوبر وكان عبد الناصر مصراً على ألا يحضر تشومبي هذا الاجتماع أيضاً .

وتكرر الاجراء السابق اتخاذه قبل مؤتمر القمة الافريقي ، فقد أرسل وزراء الخارجية الأفارقة برقية باسمهم إلى الرئيس كازافوبو رئيس جمهورية الكونغو يطلبون فيها عدم تعيين تشومبي في الوفد الكونغولي .

وكان من الصعب على تشومبي أن يقبل صفعة جديدة بالاستسلام لهذا الطلب ، خاصة وانه سبق له حضور أحد الاجتماعات الافريقية فكيف يسمح بضياع النصر الذي كان قد حققه من قبل . وأعلن في ليوبولدفيل تشكيل الوفد الكونغولي في مؤتمر عدم الانحياز برئاسة تشومبي .

أرسل تشومبي يطلب تأشيرة دخول إلى القاهرة من السفارة المصرية في ليوبولدفيل ، واعتذرت السفارة محتجة بأنها تنتظر رد القاهرة ، وقد أثار هذا الموقف من السفارة غضب تشومبي الذي قرر السفر إلى القاهرة دون أن ينتظر الاذن . وأخطرتنا سفارتنا في ليوبولديل بقيام طائرة تشومبي متجهة إلى القاهرة بالفعل .

وفي المساء حلقت طائرة تشومبي في أجواء القاهرة ولكن لم يؤذن

لها بالهبوط فاتجه تشومبي بطائرته إلى أثينا . وفي فجر اليوم التالي وصل تشومبي والوفد المرافق له على متن إحدى طائرات الخطوط العادية دون سابق إخطار وكان هذا التصرف متوقعاً من تشومبي وأعد له مسبقاً الترتيب اللازم .

توجه السيد عبد المجيد فريد سكرتير عام رئاسة الجمهورية إلى المطار لاستقبال تشومبي واصطحبه والوفد المرافق له بموكب عربات الرئاسة المعد لاستقبال الرؤساء واتجه به إلى قصر العروبة الذي كان قد أعد لإقامته على خلاف جميع رؤساء الوفود الأخرى الذين كانوا يقيمون في فندق الهيلتون .

وفي الصباح وبناء على تكليف من الرئيس جمال عبد الناصر اتجهت إلى قصر العروبة لمقابلة مويس تشومبي الذي استقبلني بحرارة رغم انها كانت المرة الأولى التي التقي فيها به . وكان تشومبي شديد المرح ، أو هكذا أراد أن يبدو ، كما كانت خطواته وحركاته تعكس زهواً بالنفس ربما كان سببه نجاحه في الوصول إلى القاهرة رغم المحاولات التي بذلت للحيلولة دون ذلك . ولكنه في نفس الوقت حاول أن يكون ودوداً للغاية .

ولم تمضي دقيقة واحدة على هذا الجو المرح المفتعل حتى أبلغته الرسالة التي جئت من أجلها والتي طالبته فيها باسم الحكومة ألا يغادر هذا القصر إلى أن يقرر الرؤساء الافريقيون الموجودون في المؤتمر ما إذا كان سيشترك هو في أعمال هذا المؤتمر .

وضاعت الابتسامة من وجه تشومبي وتبدد جو المرح المفتعل وتغيرت ملامح وجهه لتكون أكثر جدية . وتساءل تشومبي بصوت خافت متداعي بعد أن صدمته كلماتي . . عما إذا كان يفهم من ذلك أنه معتقل .

فأخبرته بأنه ليس معتقلاً لأنه يستطيع في أي وقت يشاء أن يتجه إلى المطار ويغادر القاهرة . . وان إجراء منعه من الخروج إلى أي مكان آخر يتعلق بأمنه وللمحافظة على حياته حيث أننا لا نضمن سلامته وسط جماهير القاهرة التي ما زالت تذكر ما حدث للومومبا .

وهنا حاول تشومبي أن يستجمع قواه من جديد وعلا صوته محتجاً على هذا التصرف فوقفت على الفور معلناً أنه ليس لدي ما أريد إضافته إلى ما سبق إبلاغه به . وكنت على وشك الانصراف عندما عاد تشومبي إلى لهجته الودية مرة أخرى ورجا أن أنتظر لأن لديه هو ما يريد أن يقوله هذه المرة .

وقال تشومبي أنه لم يحضر إلى القاهرة لحضور المؤتمر فقط ، ولكنه جاء أيضاً برغبة صادقة لتدعيم العلاقات مع مصر وخاصة العلاقات الاقتصادية وأنه جاء وهو مستعد وجاهز لعقد صفقات ستكون في صالح مصر كثيراً .

وأخرج بعض الأوراق وأخذ يقرأ منها قائمة السلع التي يريد استيرادها من مصر ، كما قال أنه يريد أن يجعل لمصر وضعاً خاصاً في الكونغو وانه مستعد لإعطاء مكاتبنا التجارية في ليوبولدفيل امتيازات لم تأخذها دولة أخرى وانه جاهز لتوقيع ما يضمن لنا هذه المزايا وهو في القاهرة ، ثم ختم حديثه يطلب مقابلة جمال عبد الناصر وألح في هذا الطلب .

وقلت لتشومبي أن مصر ترحب وتسعى دائماً لتدعيم علاقتها بالكونغو حكومة وشعباً ولكن ليس هذا هو الوقت المناسب للحديث عن العلاقات المصرية الكونغولية فهناك أمور يجب تسويتها أولاً . أما مقابلة عبد الناصر فهو أمر يصعب تحقيقه في الوقت الحالي لأنه قد

كرس وقته كله للمؤتمر ، وأضفت قائلاً أنني مع ذلك سوف أنقل لعبد الناصر كل ما دار في هذا الحديث تفصيلاً .

وخرجت وأنا أعجب لهذا الرجل الذي تصور أنه بهذه الطريقة يستطيع شراء سكوت عبد الناصر !! ولكن هكذا كان تشومبي .

كان تشومبي داخل قصر العروبة يعامل معاملة رئيس حكومة ، ولكن وضعت حراسة مشددة على القصر لا تسمح له بمغادرته واحتشد القصر بعدد كبير من السكرتيرات البلجيكيات اللاتي اصطحبهن تشومبي معه ضمن الوفد المرافق ، وكانت هذه هي عادته أينما ذهب ، كما كان من بين أعضاء وفده عدد من الخبراء البلجيك .

وقد أحضر تشومبي معه كميات كبيرة من المأكولات المعلبة ، وكان لا يأكل شيئاً يقدم له من غير ما استجلبه معه حرصاً على حياته ، ورغم ذلك كانت تعد له مائدة الطعام بانتظام وفي كل وجبة ولكنه كان يعتمد فقط على معلباته حتى مياه الشرب أحضرها معه معلبة .

وفي المساء استطاع عبد الناصر أن يحصل على موافقة إجماعية من جميع رؤساء الدول الافريقية التي حضرت المؤتمر ، بأن تشومبي ليس له الحق في حضور المؤتمر طالما أن اللجنة الخاصة بالكونغو التي يرأسها جومو كنياتا بتكليف من منظمة الوحدة الافريقية لم تنتهي من مهمتها ، وكلفني عبد الناصر مرة أخرى بأن أذهب لإبلاغ تشومبي بهذا القرار وذلك بصحبة دياللوتيلي سكرتير منظمة الوحدة الافريقية .

وكانت صدمة جديدة لتشومبي وخاصة عندما عرف ان هذا القرار اتخذ بالاجماع ، وحاول دياللوتيلي أن يقنع تشومبي بمغادرة القاهرة حتى لا تتعقد الأمور أكثر من ذلك ، ولكن تشومبي كان غاضباً واتهم دياللوتيلي بأنه يعمل لحساب دول الدار البيضاء وانه

يساعد مصر على تحقيق أهـدافها . وحـاول دياللوتيـلي أن يهدىء من روعـه ولكن دون جدوى . وانصـرفنا تـاركين تشـومبي وقد خـرجنا بانطباع انه لم يستسلم بعد لقرار المنع من حضور المؤتمر .

لم تمضي بضعة ساعات على إعلان قرار منع تشومبي من حضور مؤتمر القمة لعدم الانحياز حتى وصلتنا برقية من سفارتنا في ليوبولدفيل تفيد بأن القوات الكونغولية تحاصر السفارة وتمنع الدخول والخروج . وان بعض أفـراد العائـلات المصريـة حاولـوا إحضار بعض الأطعمـة والاحتيـاجات الضـرورية الـلازمـة لهم ولأولادهم ولكنهم منعـوا من ذلك . . وكانت السفارة تحتل مبنى كبيراً في ليوبولدفيل يضم مكاتب السفارة وبعض ملحقاتها وكذلك يسكن فيه عدد من أعضاء السفـارة وعائلاتهم .

بعد دقائق من وصول هذه البرقية كنت في طريقي إلى تشومبي مرة ثالثة بناء على تكـليف جمال عبد الناصر . وعندما دخلت على تشومبي هـذه المرة رفضت الجلوس وتحـدثت واقفاً وظـل تشومبي واقفـاً أيضاً يستمع إلى ما أقول وقد بدأ على ملامح وجهه علامات التعجب وكأنه لا يصدق ما يسـمع .

فقد أبلغت تشومبي بخبر الحصار الذي فرض عـلى سفاراتنـا في ليوبولدفيل وأضفت قائلاً أنني أبلغـه باسم الحكـومة المصـرية أنـه لن يخرج من هذا المكان إلاّ إذا خرج جميع أعضاء سفارتنا في ليوبولدفيل وعائلاتهم وتواجدوا جميعاً في برازافيل سالمين .

بعد فترة صمت قصيرة تكلم تشومبي متسائلاً عما يمكن أن ننتظره منه في ذلك الوقت وأي شيء يستطيع أن يفعله وهو في هذا المكان . فقلت له هذا شـأنك فـأنت رئيس الحكومـة التي أصدرت تعليمـاتها

بمحاصرة السفارة وان كل ما أستطيع أن أفعله من جانبي هو أن أدبر له اتصالاً تليفونياً بليوبولدفيل إذا رغب في ذلك .

وبعد دقائق من مغادرة قصر العروبة استدعاني جمال عبد الناصر ، وعندما ذهبت لمقابلته كان معه الرئيس الجزائري السابق أحمد بن بللا الذي علمت منه أن سفارة الجزائر في ليوبولدفيل هي الأخرى أصبحت محاصرة تماماً كما حدث بالنسبة لسفارتنا هناك . وكلفني عبد الناصر بالذهاب مرة رابعة لمقابلة تشومبي لأخبره بأن ما سبق قوله عن أعضاء السفارة المصرية وعائلاتهم ينطبق على أعضاء السفارة الجزائرية وعائلاتهم ، بمعنى ان تشومبي لن يخرج من قصر العروبة إلا إذا تواجد هؤلاء جميعاً في برازافيل .

وكان بن بللا ثائراً على تشومبي وتصرفاته وطلب بحماسه المعروف من جمال عبد الناصر أن يسلمه تشومبي ليقوم بمحاكمته في الجزائر على جرائمه العديدة ومنها مقتل لومومبا ويخلص أفريقيا من مشاكله ولكن عبد الناصر لم يكن ليقبل بطبيعة الحال أن يقوم بمثل هذا العمل .

بعد إبلاغ تشومبي بهذه الرسالة الجديدة طلب التحدث تليفونياً إلى مساعديه في ليوبولدفيل وتم له ذلك مباشرة . وفي هذا الحديث قال تشومبي أنه يعتقد أن القاهرة تدبر خطة لقتله ـ ويبدو أنه كان مقتنعاً بذلك وأعطى محدثه التعليمات لفك حصار السفارتين فوراً ونقل جميع أفرادها وعائلاتهم إلى برازافيل وأن تراعي كل الاحتياطات لوصولهم جميعاً سالمين . كما طلب منه أن يستدعي عدداً من الدبلوماسيين الأجانب المقيمين في ليوبولدفيل ليكونوا شهوداً على نقل أعضاء السفارتين وعائلاتهم ، لأنه كما قال يخشى أن يدعي المصريون باختفاء واحد من هؤلاء ويتخذون من هذا الادعاء ذريعةً لقتله هو .

كان هذا هو ما يفكر فيه تشومبي ولكن ذلك كان بعيداً عن تفكير أي أحد في القاهرة . فكل ما كان يهم عبد الناصر في ذلك الوقت هو سلامة أعضاء السفارتين المصرية والجزائرية . وقد استمر عبد الناصر يتابع بنفسه ساعة بساعة الموقف إلى أن أبلغتنا سفارتنا في برازافيل بوصول الجميع سالمين .

بعد ذلك أطلق سراح تشومبي ليعود إلى ليوبولدفيل بعد أن منى بهزيمة سياسية جديدة بمنعه من حضور مؤتمر القمة لعدم الانحياز رغم مغامرته الجريئة ووصوله إلى القاهرة دون إذن مسبق .

موقف مصر من الغزو البلجيكي الأمريكي لستانلي فيل :

خلال شهر اكتوبر ١٩٦٤ كان المرتزقة الذين جندهم تشومبي يحرزون تقدماً على الثوار الكونغوليين . وكان عدد هؤلاء المرتزقة يتزايد يومياً وتتدفق عليهم الأسلحة الأمريكية الأمر الذي دفع حكومة الثورة في ستانلي فيل إلى اعتقال جميع الرعايا البلجيك والأمريكان الموجودين في استانلي فيل وأعلنت الحكومة عن طريق إذاعتها في استانلي فيل انها سوف تحتفظ بهؤلاء الرعايا كرهائن إلى أن يقف العدوان الأجنبي على الكونغو قاصدة بذلك العمليات التي يقوم بها المرتزقة وتدفق الأسلحة الأمريكية على الكونغو .

حتى ذلك الوقت ومنذ المصالحة الوطنية التي تمت في اغسطس سنة ١٩٦١ كانت القاهرة قد أوقفت مساعداتها المادية للثوار باعتبار أن ما كان يحدث خلال هذه الفترة في الكونغو من صراع وقتال إنما كان من شؤونه الداخلية ، كما كانت القاهرة تريد بذلك أيضاً أن تعطي الفرصة كاملة لإنجاح المصالحة الوطنية . واكتفت مصر في هذه المرحلة بتحركها الدبلوماسي في نطاق منظمة الوحدة الافريقية والأمم المتحدة

محاولة إبعاد أي تدخل أجنبي في الكونغو .

وبعد ما حدث لتشومبي في القاهرة وقفل سفارتنا في ليوبولد فيل وجه جبيني رئيس حكومة ستانلي فيل الثورية نـداءاً من خلال إذاعة ستانلي فيل يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٦٤ طالباً من القاهرة أن تعترف بحكومته ولكن مصر لم تستجب لهذا النداء الذي وجه في نفس الوقت إلى كل من الجزائر وغانا وغينيا ومالي . ولم تعترف مصر بحكومة جبيني حتى ذلك الوقت التزاماً منها بسياسة عدم التدخل في الشؤون الداخلية للكونغو .

ولكن اعتقال الرعايا البلجيك والأمريكيين في ستانلي فيل كان بداية لتطورات خطيرة في الكونغو ، فقد تدخل الرئيس جوموكنياتا على الفور لتهدئة الموقف المتأزم والناجم عن هذه الاعتقالات فأصدر كنياتا نداءاً للأطراف المعنية يناشدها وقف العدوان فوراً وطالب حكومة ستانلي فيل بتأكيد سلامة المدنيين من الأجانب المعتقلين .

وفي ٢٣ نوفمبر جرت مباحثات في نيروبي عاصمة كينيا بين سفير الولايات المتحدة الأمريكية وبين وزير الخارجية في حكومة ستانلي فيل « توماس كانزا » تمت تحت رعاية الرئيس كنياتا شخصياً ودياللوتيلي سكرتير منظمة الوحدة الافريقية ، وفي اليوم التالي كانت المباحثات قد قطعت شوطاً لا بأس به وصدرت تأكيدات من ستانلي فيل بتأمين سلامة الرعاية الأجانب الأمر الذي أعطى الكثير من الأمل في انفراج الأزمة .

وفي نفس هذا اليوم ٢٤ نوفمبر ١٩٦٤ ووسط هذا الجو الجديد من التفاؤل فوجىء العالم بعملية غزو مسلح لستانلي فيل قامت بها بلجيكا والولايات المتحدة الأمريكية . فقد قامت قوات المظلات

البلجيكية محمولة بطائرات أمريكية بغزو المدينة واحتلال المطار والمرافق الهامة .

والعجيب انه أزهقت في هذه العملية أرواحاً كثيرة من المدنيين البلجيك والأمريكيين المحتجزين كرهائن كانت قد تأمنت سلامتهم بعد تدخل كينياتا وتعهدات حكومة ستانلي فيل لولا هذا الغزو الذي ادعت بلجيكا والولايات المتحدة الأمريكية أن الغرض منه كان إنقاذ حياة الرعاية المحتجزين .

اعتبرت القاهرة هذا العمل عملاً عدوانياً سافراً من جانب الاستعمار البلجيكي وأمريكا على شعب الكونغو . كما اعتبرته سابقة خطيرة يمكن أن يتعرض لها أي شعب آخر يريد الاستقلال الكامل ويرفض السيطرة الأجنبية وكانت هذه هي المرة الأولى التي تشهد فيها أفريقيا غزواً استعمارياً مسلحاً بعد أن ارتفعت أعلام الاستقلال الكثيرة في القارة الافريقية وما صاحب ذلك من اعتقاد بأن عصر الغزو قد انتهى إلى الأبد باعتباره لوناً من ألوان الاستعمار التقليدي القديم الذي انتهى عصره . كما فضح هذا العمل مرة أخرى السياسة الامريكية في أفريقيا وفي الكونغو على وجه الخصوص .

وتغير الموقف في الكونغو من وجهة نظر عبد الناصر بعد هذا الغزو . فلم تعد صرخة الثوار الكونغوليين واستغاثتهم بسبب حكم رجعي فاسد أو حتى بسبب عملاء تشومبي من المرتزقة العنصريين ، وإنما أصبح الثوار يواجهون غزواً أجنبياً مباشراً لا يمكن السكوت عليه وإلا كان إهداراً للكثير من القيم والمبادىء التي لم يمض على إعلانها من القاهرة إلا أياماً عندما عقد مؤتمر عدم الانحياز الثاني وقبله مجلس رؤساء منظمة الوحدة الافريقية .

ومن أجل هذه الاعتبارات هاجم جمال عبد الناصر الولايات المتحدة الأمريكية وبلجيكا هجوماً عنيفاً لقيامها بهذا الغزو ، وأعلن في خطاب شهير على العالم أجمع أن مصر تقف مع الثورة الكونغولية ضد هذا الغزو وانها ستقدم العون لشعب الكونغو ممثلاً في قيادته الثورية التي تقف في وجه الاستعمار البلجيكي والعدوان الأمريكي .

بدأت مرحلة جديدة في علاقة مصر بالثورة الكونغولية بعد الغزو الأمريكي البلجيكي . ففتحت القاهرة أبوابها من جديد للثوار الكونغوليين ليتخذوا منها مرة أخرى قاعدة لهم . وقد ساعد على ذلك قيام ثورة أكتوبر سنة ١٩٦٤ في السودان التي كانت قد أطاحت بحكم اللواء عبود وشكلت حكومة سر الختم من تحالف القوى الوطنية السودانية التي كانت تشتمل على عناصر تقدمية عديدة . وأعلن النظام الجديد في السودان وقوفه بجانب القوى التقدمية في أفريقيا ومساعدة حركات التحرير فيها .

وأمكن للقاهرة باتفاق مع حكومة السودان تأمين طريق اتصال بري من جوبا في جنوب السودان إلى المناطق التي كان يسيطر عليها اللومومبيون في الاقليم الشمالي الشرقي للكونغو المتاخم لحدود السودان . وقمنا بعمل مركز أمامي للاتصال والامداد في جوبا وبدأت حركة مستمرة لطائرات النقل التابعة للسلاح الجوي المصري بين القاهرة وجوبا . فتدفقت الأسلحة للحكومة السودانية التي كانت تخشى تسرب كميات من الأسلحة والذخيرة الكثيرة التي تمر عبر الجنوب إلى أيدي المتمردين السودانيين لأن ذلك كان يسبب مخاوف للحكومة السودانية . ولكن عبد الناصر كان يتدخل شخصياً كلما حاولت السلطات السودانية وقف هذا الطريق ، بعد التزامنا بوضع كل الضمانات التي تطمئن إليها الحكومة السودانية لتضمن أمنها

وسـلامتهـا دون أن تتـوقف عمليـة إمـداد الثـوار الكـونغـوليـين باحتياجاتهم .

واستؤنفت في القاهرة عمليات تدريب الكوادر العسكرية للثوار ووضعت الاذاعة الموجهة من القاهرة إلى الكونغو باللغات المحلية مرة ثانية في خدمة الثوار وعادت جميع المساعدات والتسهيلات التي كانت تقدمها القاهرة لهم من قبل .

وفي هذه المرة لم تكن القاهرة هي القـاعدة الـوحيدة التي تـرتكز عليها الثورة في الامداد والمساعـدة ، فقد كـانت هناك بـرازافيل ودار السلام . وأصبح بالكونغو ثلاث جبهات يقاوم فيهـا الثوار . الجبهـة الأولى في وسط الكـونغو وتـرتكز عـلى برازافيـل والثـانيـة في الشـرق وقاعدتها في دار السلام عـاصمة تنـزانيا والثـالثة في الاقليم الشمـالي الشرقي الذي أصبحت قاعدته القاهرة من خلال السودان .

وكانت هذه الجبهات الثلاث معزولة عن بعضها ، كما أن صفوف الثوار كان قد أصابها التفكك وظهرت بين قادتها الخلافات وذلك بعد النصر السريع الذي كـانت قد أحـرزته قـوات تشومبي من المـرتزقـة العنصريين وكـذلك لغيـاب القيادة القـادرة على تكتيـل كل العنـاصر الثورية وخاصة العسكرية حولها . وفي اعتقادي أن الشخصية الوحيدة التي كانت تستطيع ذلك حينئذٍ هو بيير موليلي ، ولكنه كان معزولاً في وسط الكونغو حيث كانت هذه أصعب الجبهات الثلاث في الاتصـال بالخارج وتلقى الامداد ، لأن تشومبي سرعان ما سيطر بقوات المرتزقة على المناطق المتاخمة لنهر الكونغو على حدود الكونغو برازافيـل وأصبح الاعتماد في الامداد والاتصال فقط على التسلل . ورغم ذلـك كانت منطقة موليلي هي أول من أشعل الثورة بعـد انهيار المصـالحة الـوطنية وكان ذلك في إقليم كويلو (Kuilu) كما كانت هذه المنطقة هي آخـر

المناطق التي ألقت السلاح في الكونغو بعد ذلك .

كان عبد الناصر يعلم أن الموقف العسكري في الكـونغو ليس في صالح الثوار ، ورغم ذلك قرر الوقوف بجانب الثـورة ومساعـدتها . وأعلن عبد الناصر موقفه هذا على العالم كله لإيمـانه بـأنه لا يجـوز أن يقف شعب الكونغو وحده طالما هو مستمر في المقاومـة وحمل السـلاح ضد غزو أجنبي مسلح بغض النظر عن النتيجة العـاجلة . فهذا هـو ما يفرضه التضامن بين القوى الثورية . ومهما يكن الأمر فإن الشعوب تجني دائماً ثمار نضالها في النهاية وإن طال الانتظار . هذا بالاضافة إلى أن عبـد الناصـر كان لا يـريد أن تمضي بلجيكـا والولايـات المتحـدة الأمريكية بفعلتها الشنعاء دون أن تجد رد الفعل الذي يتناسب مع هذه الفعلة داخل الكونغو وخارجه بغض النظر أيضاً عن النتيجة المباشرة . فالمعركة أصبحت شاملة بين الاستعمار والامبرياليـة في جانب وجميـع الشعوب التي تقاوم السيطرة الأجنبية في الجانب الآخر .

أما على الصعيد الدبلوماسي فقد أحدثت عملية الغزو الأمريكي البلجيكي أصداءاً واسعة . ففي الأمم المتحدة تقدمت ثمـانية عشـر دولة أفريقية منها مصر بمشروع قرار لمجلس الامن تدين فيه التدخـل الأمريكي البلجيكي . وهنا حـدث الانقسام مـرة أخرى بـين الدول الافريقية .

ففي الوقت الذي ظهر فيه حماس هذه الدول الثمانية عشر ضد الغزو الأجنبي للكونغو ، كانت هناك حكومات أفريقية أخرى قد ارتبطت بإتفاقيات عسكرية مع الدولة التي كانت تستعمر بلادها قبل الاستقلال . ومعنى ذلك أن هذه الدول كانت على استعداد لدعوة قوات الدولة الاستعمارية في حالة حدوث اضطرابات داخلية لا تستطيع

قمعها . وهي لذلك لا تريد الاعتراض على هذا الذي تسميه تدخُّلاً أجنبياً في الكونغو باعتباره قد تمّ بموافقة تشومبي رئيس الحكومة .

وإزاء هذا الانقسام بين الدول الافريقية عقد اجتماع لمجلس وزراء خارجية منظمة الوحدة الافريقية في نيويورك في المدة من ١٦ ـ ٢١ ديسمبر وبعد مناقشات حامية تم التوصل إلى صيغة تطالب مجلس الأمن بإدانة التدخل الأجنبي والتوصية بحل أفريقي لمشكلة الكونغو .

وأخيراً تمخضت هذه الجهود الافريقية عن صدور قرار من الأمم المتحدة في ٣٠ ديسمبر ولكنه جاء قراراً هزيلاً اكتفى « . . بالأسف للأحداث الأخيرة في الكونغو ، ويشجع منظمة الوحدة الافريقية لبذل جهودها من أجل تحقيق المصالحة الوطنية » .

وعملت الدول الافريقية الثورية ومنها مصر على إحياء اللجنة الخاصة بالكونغو والتابعة لمنظمة الوحدة الافريقية حيث كانت هذه اللجنة بمثابة السيف المسلط على رقبة تشومبي . فهي مكلفة بالمصالحة الوطنية وعليها تقديم تقريرها إلى مجلس رؤساء الدول الافريقية في دورته التي كان قد تقرر عقدها في أكرا (أكتوبر سنة ١٩٦٥) وكان معنى ذلك بحث مشكلة الكونغو في اجتماع رؤساء الدول الافريقية وهو ما لا يريده تشومبي بطبيعة الحال .

وقد حاول تشومبي عن طريق بعض مؤيديه في مجلس وزراء منظمة الوحدة الافريقية الذي عقد في نيروبي (٢٢ فبراير سنة ١٩٦٥ ـ ٩ مارس) أن يستصدر قراراً بإلغاء هذه اللجنة الخاصة . ولكنه فشل في الحصول على الأغلبية اللازمة لذلك .

ورغم أن هذه اللجنة كانت قد توقفت عن مباشرة أي عمل ، إلا

أن مجرد وجودها كان يزعج تشومبي . فعندما اتخذ الرؤساء الافريقيين قرارهم في القاهرة بمنع تشومبي من حضور مؤتمر عدم الانحياز ، تحججوا بأن هذه اللجنة الخاصة لم تنته بعد من مهمتها . ومعنى ذلك أن تشومبي قد يواجه نفس الموقف في اجتماع اكرا .

لم يستطع تشومبي أن يحقق نصراً دبلوماسياً داخل المنظمة الافريقية رغم أن قواته كانت تتقدم داخل الكونغو وتحقق انتصارات سريعة ، وأصبح واضحاً أن مجموعة دول الدار البيضاء هي الأقدر على الحركة داخل المنظمة وهي القادرة على جذبها في الاتجاه الذي تريده بعد أن انضمت إليها دول جديدة دخلت في عداد الدول الثورية مثل الكونغو برازافيل وبورندي ثم معظم دول شرق أفريقيا . وكانت دول هذه المجموعة تتشاور فيما بينها أثناء اجتماعات المنظمة ويجتمع مندوبوها بطريقة غير رسمية لتنسيق مواقفهم وخاصة بالنسبة للكونغو .

وقد بدأ هذا التقليد ـ الخاص بالتشاور ـ في القاهرة في أكتوبر سنة ١٩٦٤ أثناء انعقاد مؤتمر القمة لعدم الانحياز . إذ دعا جمال عبد الناصر رؤساء وفود الدول الافريقية الثورية التي لها مواقف متشابهة تجاه مشكلة الكونغو للاجتماع بشكل غير رسمي للتشاور . وتم الاجتماع الأول في الجناح الذي كان يقيم فيه عبد الناصر بفندق الهيلتون حيث كان ينزل جميع الرؤساء . وكان الغرض من هذا الاجتماع تأكيد تضامن هذه الدول وهي تواجه التحديات المختلفة نتيجة تأييدها للثورة الكونغولية ، وهو أمر كانت تحتاج إليه الدول المتاخمة للكونغو والتي كانت ترى في استخدام تشومبي للمرتزقة العنصريين تهديداً لأمنها وسلامتها .

نهاية الأزمة الكونغولية ونتائجها :

كان من نتيجة الانقسام في مواقف الدول الافريقية حيال مشكلة الكونغو داخل منظمة الوحدة الافريقية ان عادت دول المجموعة الفرنسية إلى التكتل من جديد مكونة المنظمة المشتركة الافريقية الملجاشية .

(O.C.A.M) Organization Commune Africaine et Malagache.

ولا شك أن تكتل هذه المجموعة من جديد وبالشكل الذي تم به كان على حساب الوحدة الافريقية الشاملة وأضعف من تماسك المنظمة الافريقية .

وقد أعلن عن قيام المنظمة المشتركة الافريقية الملجاشية في ١٢ فبراير سنة ١٩٦٥ في نواكشوت (عاصمة موريتانيا) حيث اجتمع رؤساء هذه الدول وكان موضوع الكونغو هو أهم موضوعات بحثهم . وفي اجتماعهم الثاني في ٢٦ مايو سنة ١٩٦٥ الذي عقد في ابيدجان تمت الموافقة على ضم الكونغو ليوبولدفيل إلى عضوية المنظمة ، وحضر تشومبي الجلسة الختامية لهذا الاجتماع . وتعهد المجتمعون بتقديم كل المساعدات الممكنة للكونغو ليوبولدفيل .

وقد اعتبر تشومبي دخوله هذه المجموعة انتصاراً دبلوماسياً كبيراً . فقد حصل بذلك على اعتراف وتأييد جزء من أفريقيا وهو أمر يعزز انتصاراته العسكرية التي كان يحرزها ضد الثوار .

ومرة أخرى وبسبب الكونغو أصبحت أفريقيا منقسمة على نفسها انقساماً خطيراً هدد منظمة الوحدة الافريقية وإمكانية استمرارها عندما أعلنت مجموعة دول المنظمة المشتركة الافريقية الملجاشية منذ اجتماعها

الأول انها ستقاطع اجتماع الرؤساء لمنظمة الوحدة الافريقية والذي كان قد تقرر عقده في أكرا متحججين بأن غانا تقوم بنشاط هدام في بعض دول هذه المجموعة .

ورغم أن تشومبي كان قد نجح في السيطرة على أهم المدن في الكونغو إلا أنه كان غير قادر على القضاء نهائياً على الثورة . فالثوار يدخلون حدود الدول المجاورة في تنزانيا وبرازفيل والسودان وأوغندا ويتخذون منها قواعد لهجومهم ومنها أيضاً تتسرب الأسلحة إلى أيدي الثوار . وأصبح التسلل إلى أي مكان في الكونغو ، أمر عادياً يحدث كل يوم .

وأدرك كازافوبو رئيس الجمهورية أن مشكلة الكونغو لن يكون لها حل طالما هو يتحدى المشاعر الافريقية باستخدام المرتزقة الأوروبيين وبوجود تشومبي رئيساً للوزراء . كما أدرك أنه غير قادر على إخماد الثورة طالما بقيت مساعدة الدول المجاورة وأن عليه أن ينهي مشاكله مع هذه الدول إذا أراد استقرار الأوضاع في الكونغو .

وقبل انعقاد مجلس رؤساء منظمة الوحدة الافريقية في أكرا (اكتوبر ١٩٦٥) بأيام قليلة قام كازافوبو بعزل تشومبي تمهيداً للتخلص من المرتزقة الأوروبيين وأصبح بذلك قادراً على حضور اجتماع اكرا دون أن يواجه المتاعب التي كانت تنتظره .

وحضر كازافوبو بالفعل اجتماع الرؤساء الافريقيين في اكرا بعد أن اشترط حذف موضوع الكونغو . وقد فسر الرؤساء الافريقيون موقف كازافوبو الجديد من عزل تشومبي والاعلان عن نيته في التخلص من المرتزقة الأوروبيين ، على أنه تحول من ناحيته نحو سياسة وطنية أفريقية وهكذا استقبل الرئيس الكونغولي في الاجتماع استقبالاً حسناً وأصبح مقبولاً على المستوى الافريقي كله . وانتهت بذلك

مشكلة الكونغو داخل منظمـة الوحـدة الافريقيـة كما انتهت كمشكلة أفريقية قسمت القارة فترة من الزمن .

واستطاع كازافوبو بهذا التحول في سياسته أن يعيد علاقته بكثير من الدول الثورية في أفريقيا ـ وخاصة الدول المجاورة للكونغـو ـ إلى حالتها الطبيعية وخصوصاً بعد أن بدأ في الاستعانة بكثير من العناصر اللومومبية في أجهزة الدولة .

وكانت القيادات اللومومبية نفسها قد تبعثرت ، بعضها تعاون مع كازافوبو واعتبر أنه بذلك يعود إلى وضع المصالحـة الوطنيـة التي سبق التوصل إليهـا عام ١٩٦١ . والبعض الآخـر تواجـد خارج الكـونغو رافضـاً كل الحلول الـوسط ولكن بعد أن كـان قـد فقـد فـاعليتـه في الداخل ، والقليل مثل بييرموليـلي الذي بقي في داخـل البلاد يقـاوم حكم كازافوبو .

ولكن الثورة الكونغولية كانت قد فقدت الدوافع الأساسيـة التي كانت تحرك بواسطتها جماهير الشعب الكونغولي . فوحـدة الكونغـو لم تعد مهددة وتشـومبي اختفى من المسرح السيـاسي وأصبح يعيش في منفاه في أوروبا . كما أن وجود المرتزقة الأوروبيين لم يعد مشكلة بعد أن وعد كازافوبو بالتخلص منهم جميعاً .

ولكن الأحوال لم تستقر كما أراد لها كازافوبـو ، ففي ٢٥ نوفمبـر سنة ١٩٦٥ قام الجنرال موبـوتو قـائد الجيش بعـزل كازافـوبو ونصب نفسه رئيساً للجمهورية . واعتبرت معظم الدول الافريقية ومنها مصر أن هذا الحدث من شؤ ون الكونغو الـداخلية ، وخـاصة أن مـوبوتـو حاول منذ البداية التأكيد على الوجه الافريقي للكونغو ، كما أنه لم يكن هناك في أفريقيا من يتباكى على اختفاء كازافوبو .

وفي نهاية الحديث عن الكونغو لنا أن نتساءل عما إذا كانت الأهداف التي من أجلها تدخل عبد الناصر في مشكلة الكونغو قد تحققت . فالمعروف ان لومومبا الذي ذهبنا لنجدته قد قتل ، كما أن القوى الثورية في الكونغو لم تحقق نصراً حاسماً .

والحقيقة أن لومومبا وان كان قد قتل فقد انتصرت مبادئه دون شك ، وبقيت هذه المبادىء أنشودة تتغنى بها أفريقيا إلى يومنا هذا ، وأصبح لومومبا اسطورة تتحدث عنها أفريقيا كلها وكرم الزعيم الكونغولي بعد مماته في كل أنحاء الدنيا كما لم يكرم زعيم أفريقي قبله .

أما على صعيد الكونغو فقد تحققت له وحدة الأرض وانتهت فكرة الانفصال أو البلقنة وهي أخطر ما واجهه لومومبا . ولولا وقفته الشجاعة منذ البداية وتضحياته التي توجها استشهاده لكان انفصال كاتنجا حقيقة قائمة الآن .

أما الاستقلال الذي أراده لومومبا للكونغو بعيداً عن أي سيطرة أجنبية فإنه وإن لم يكن قد تحقق حتى الآن ، إلا أن شعب الكونغو ما زال يناضل في سبيل تحقيق هذه الغاية ، وهو في ذلك شأنه شأن الكثير من الشعوب التي تقاوم الاستعمار الجديد وتقاوم السيطرة الأجنبية في جميع أشكالها وصورها من أجل أن تعود ثروة البلاد إلى الشعب مالكها الأصلي . ولا شك أن ثورة لومومبا ستبقى دائماً وقوداً ومحركاً لكل الثوار في الكونغو وفي كل مكان آخر .

والغريب أن موبوتو نفسه ـ وكان هو قائد الجيش الذي قبض على لومومبا وسلمه إلى تشومبي ـ قد بالغ في تكريم ذكرى لومومبا بعد أن أصبح هو نفسه رئيساً للجمهورية ، فأقام له تمثالاً ضخماً لتخليد ذكراه . وقد حضرت بنفسي الاحتفال بوضع أساس هذا التمثال ،

وحضره عدد كبير من رؤساء الدول الافريقية حيث كان ذلك أثناء انعقاد مؤتمر القمة الافريقي في كينشاسا في سبتمبر سنة ١٩٦٧ .

وقد تكلم موبوتو في هذه المناسبة عن لومومبا وبطولته فوضعه في صف الأنبياء والقديسين واعتبره أعظم زعيم أنجبته الكونغو وأفريقيا كلها ، وكان ذلك أمراً مثيراً للدهشة ، إلا أن موبوتو كان له تفسيره الذي كان يردده دائماً ، فهو عندما قبض على لومومبا كان مجرد رجل عسكري ينفذ تعليمات رئيس الجمهورية (كازافوبو في ذلك الوقت) وهذا ما كان يحتمه عليه ـ كما يدعي ـ واجبه العسكري . أما وقد أصبح رئيساً يتحمل المسؤولية كاملة يجب حسب قوله ـ أن نفتح له صفحة جديدة .

وقد بالغ موبوتو عقب توليه الرئاسة في التأكيد على الملامح الافريقية الخالصة لبلاده ، بعكس ما كان يسعى إليه تشومبي الذي كان يريد أن يسود كل ما هو أوروبي . ولكن موبوتو اهتم في ذلك بالشكل دون أن يهتم بالجوهر . فقد غير موبوتو اسم الكونغو ليأخذ اسماً أفريقياً خالصاً هو زائير كما غير اسم العاصمة ليوبولدفيل لتأخذ اسماً أفريقياً هو كينشاسا وامتدت الأفرقة إلى أسماء كثيرة أخرى من بينها اسمه هو شخصياً . فقد تخلص من اسمه المسيحي الأوروبي « جوزيف » ليصبح اسماً أفريقياً هو « سيسي سيكو » Sese Seko وتصوّر أنه يرضى القوى الوطنية في الداخل بهذه التغييرات الشكلية كما أرضى المجتمع الافريقي الذي أدان تشومبي من قبل ورفض سياسته .

ونحن وإن كنا نرى في ذلك شيئاً من السذاجة أو الاستخفاف بعقول الآخرين ، إلا أنه دون شك يوضح اتجاه الشعور الوطني في الكونغو وفي أفريقيا ، ذلك الشعور الذي كان يرفض السيطرة

الأوروبية ويتطلع إلى تأكيد ذاته الافريقية وهو ما ناضل من أجله لومومبا ومات في سبيله ، ولا شك أن الشعب الذي رحب يوماً من الأيام بالتغيير الذي أصاب الشكل ، ما زال ينتظر التغيير الحقيقي الذي يمتد إلى جوهر الأمور .

لقد مات لومومبا ولكنه دخل عالم الخلود وأصبح رمزاً للنضال والثورة وحقق لبلاده وحدة الأرض ، أما تشومبي الذي أصبح رمزاً للخيانة والعمالة فقد ظلت فعلته الشنعاء تطارده إلى أن لقي حتفه في معتقله بالجزائر ، فقد ضلت طائرته الطريق ودخلت خطأً في الأجواء الجزائرية فأجبرت على الهبوط وتم القبض عليه .

واحتارت حكومة الجزائر في كيفية التصرف معه فهي ان تركته أدانتها الشعوب الافريقية الساخطة على تشومبي وفي مقدمتها شعب الجزائر نفسه . وان سلمته لحكومة الكونغو التي كانت تلح في طلبه تكون قد خالفت العرف والأصول الدولية ، لأن معنى ذلك انها كانت ستسلمه لجلاديه وهي تعرف أن مصيره الاعدام حيث كان موبوتو يريد ذلك . فقد كان تشومبي يعمل من أجل الاطاحة بحكم موبوتو وينفق في سبيل ذلك بسخاء من ملايينه التي هربها إلى الخارج .

وانتهت حكومة الجزائر إلى الابقاء على تشومبي محددة إقامته في أحد المنازل إلى أن مرض ومات دون أن تشفع له ملايينه التي حاول دون جدوى أن يدفعها مقابل حريته .

وما لا شك فيه أن موقف جمال عبد الناصر من مشكلة الكونغو ومساندته الصريحة المخلصة لقوى الثورة هناك ، كان له الأثر الكبير في إيجاد علاقات وروابط قوية بيننا وبين عدد من الدول الافريقية الأخرى التي كانت قد بدأت ثورتها على السيطرة الأجنبية بكل أشكالها وأجبرت على خوض معارك ضارية مع الاستعمار مثل غينيا ومالي وغانا . وقد

كان تعاون مصر مع هـذه الدول في مساعدة الثـورة الكونغـولية هـو البداية الحقيقية لإيجاد مقاومة جماعية فعالة ضد الاستعمار في أفريقيا ، الأمر الذي أقرته منظمة الوحدة الافريقية بعد ذلك في اجتماعها الأول عندما أقرت تشكيل لجنة التنسيق أو لجنة تحرير أفريقيا ، مع تسع دول تعمل على تقديم العون المادي والمعنوي لحـركات التحـرير الافـريقية باسم أفريقيا كلها ومساهمة جميع دولها . وقد جاءت فكرة إنشاء هـذه اللجنة أساساً من الدول التي عملت متعاونة في تـأييد ثـورة الكونغـو ومنها مصر كما جاء تشكيلهـا في معظمـه من هذه الـدول وكان ذلـك بطبيعة الحال انتصاراً لقوى التحرر والثورة في أفريقيا .

كان أيضاً من النتائج المباشرة لما حدث في الكونغو ، انتقال الثورة إلى أنجولا . فقد بدأت الشرارة الأولى لحرب التحريـر الانجوليـة في ٤ فبراير سنة ١٩٦١ أي بعد مقتل لومومبا بأقل من شهر واحد ، وقد قامت بها الحركة الشعبية لتحرير أنجولا M. P. L. A. وهي الحـركة التي تسلمت الحكم بعد الاستقلال وكان ذلك في لواندا العاصمة . ثم امتدت الثورة في أول مارس ١٩٦١ لتشمل منـاطق انجوليـة جديـدة وكانت هذه المرة بواسطة حركة أخرى برئاسة روبرتو هولدن الذي قاد حملة ناجحة من حرب العصابـات متخذاً من الكـونغو نفسـه قاعـدة للهجوم والامداد بـالسلاح مستفيـداً بصلة القربى التي كـانت تربـطه بموبوتو قائد الجيش الكونغولي في ذلك الوقت .

وهكذا أراد الاستعمار أن يكون لومومبا أمثولة لمن تحـدثه نفسـه بالتمرد على الاستعمار والقوى التي يؤيدها ولكن الأمر جاء على عكس ذلك فقد أصبح لومومبا مثلاً يقتدى به وشجعت مواقفه البطولية على إسراع خطى التحرير في أفريقيا .

ولقد أحست النظم العنصـرية في أفـريقيا بخـطورة الموقف بعـد

أحداث الكونغو لاقتراب الثورة من حدودها وفشل قوى الاستعمار التقليدي في احتواء هذا التطور السريع للثورة الافريقية ، كما فشلت في مواجهته بالعنف . فقام تحالف خطير بين الأنظمة العنصرية الثلاثة في جنوب أفريقيا والمستعمرات البرتغالية وروديسيا لمقاومة هذا التيار التحرري الجامح في القارة . ولكن ذلك كله لم يمنع امتداد المقاومة إلى داخل هذه المناطق نفسها . وانتهى أمر التحالف تماماً بسقوط النظام الدكتاتوري في البرتغال وتحرر المستعمرات البرتغالية . وقد لعبت المقاومة الافريقية في هذه المستعمرات دوراً هاماً في تقويض دعائم النظام البرتغالي نفسه .

وهكذا كان الدور الذي قامت به مصر وموقف جمال عبد الناصر من مشكلة الكونغو دوراً وموقفاً إيجابياً ساهم في دفع حركة التحرر الوطني في أفريقيا نحو التخلص من السيطرة الأجنبية ومقاومة سياسة البلقنة التي يتبعها الاستعمار ضد الدول حديثة الاستقلال .

الفصل السادس

جمال عبد الناصر والوحدة الافريقية

* مفهوم الوحدة الافريقية
* مؤتمرات الدول الافريقية المستقلّة .
* ميثاق الدار البيضاء ومرحلة التكتلات السياسية في أفريقيا .
* قيام منظمة الوحدة الافريقية .
* أين تقع الوحدة الافريقية من الوحدة العربية ؟!

كانت الوحدة الافريقية من أهم الموضوعات التي شغلت أفريقيا في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات ، وملأت عقول الشعوب والحكام على حد سواء ، وألهبت مشاعر الجميع في أفريقيا كلها ، وتركت أثرها العميق في تطورات الأحداث خلال هذه الفترة .

وقد كان لمصر بزعامة جمال عبد الناصر دوراً تاريخياً بارزاً في بلورة مفهوم الوحدة الافريقية والطريق اليها . فعندما وقفت مصر بعد ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ مع حركات التحرير وساعدت الثورات الافريقية وفتحت القاهرة أبوابها لتكون قاعدة للنضال الثوري في القارة كلها ، كانت هذه هي أولى الخطوات الايجابية والعملية نحو وحدة القارة والأساس الذي قام عليه بعد ذلك بناء الوحدة الافريقية ، هذا البناء الذي ارتفع عام ١٩٦٣ ليصبح منظمة للوحدة الافريقية تضم جميع دول القارة . فقد كان موقف مصر هذا هو في واقع الأمر تجسيداً لوحدة العمل الثوري في أفريقيا .

مفهوم الوحدة الافريقية :

تكلمنا من قبل عن منبت هذه الظاهرة ـ ظاهرة الوحدة الافريقية ـ عندما كانت مجرد أفكار في عقول المثقفين من الأفارقة

والزنوج الذين عاشوا في أمريكا وانجلترا وفرنسا ، وأقصد بذلك حركة « ألبان أفركانزم » أو الجامعة الافريقية كما اصطلح على تسميتها ، وسلسلة المؤتمرات التي عقدت باسمها في عواصم هذه الدول .

وظلت هذه مجرد حركة فكرية إلى أن استقلت غانا عام ١٩٥٧ ثم استقلت بعدها أعداد كبيرة من الدول الافريقية عام ١٩٦٠ . فأصبحت هذه الحركة الفكرية حركة أفريقية جماهيرية لها أبعادها السياسية والاجتماعية وانطلقت في جميع أنحاء القارة الافريقية في شكل ثورة عارمة .

ورغم أن هذه الثورة من أجل الوحدة الافريقية ، والتي تعلقت بها جميع شعوب القارة ، فقد بقي مفهوم الوحدة غير محدد . وتعددت الآراء بالنسبة لها وبالنسبة للطريق إليها .

فظهرت كلمات واصطلاحات جديدة مثل « القومية الافريقية » و « الوطنية الافريقية » و « الشخصية الافريقية » عرفت بأنها مرادفات أو مشتقات لهذه الوحدة الافريقية ، ولكنها كلها لم تكن أقل غموضا من المدلول الذي كانت تتركه عبارة الوحدة الافريقية في الأذهان .

الوحدة الافريقية في الأذهان .

فلا يمكن أن تكون هناك قومية قارية تشمل أفريقيا كلها بطبيعة الحال ، فاللغات واللهجات الموجودة في القارة يتراوح عددها من ٧٠٠ إلى ١٠٠٠ لغة ولهجة أي أكثر من نصف اللغات التي عرفت في العالم كله .

وإذا كان من المعروف أن القوميات هي المحرك الأول لقيام الوحدات السياسية وإقامة الأوطان ، فالعكس كان هو الصحيح

بالنسبة لأفريقيا ، فالأوطان والدول الافريقية رسم حدودها الاستعمار دون اعتبار للتوزيع البشري أو مصلحة السكان . فأصبح الوطن الواحد يضم العديد من القبائل التي تختلف في لغاتها وعاداتها ودياناتها وأحياناً التكوين الانثروبولوجي نفسه . وفي نفس الوقت نجد أيضاً الكثير من الحدود السياسية التي أقامها الاستعمار وقد قسمت بين أبناء القبيلة الواحدة ليعيشوا في دولتين مختلفتين أو أكثر . لذلك أصبحت الأوطان الجديدة واللغات الجديدة التي أدخلها الاستعمار هي الوعاء الأساسي لخلق الوطنية والقومية الجديدة في هذه القارة .

والعجيب أن المشاكل الناتجة عن هذه الأوضاع - وأقصد بها تعدد الدول واختلاف القوميات وحالة البلقنة التي فرضها الاستعمار على القارة - لم تكن عبئاً على الوحدة الافريقية بمفهومها القاري ، بل على العكس من ذلك فقد كانت هذه نفسها من أسباب تعلق الأفارقة بالوحدة الافريقية الشاملة وتطلعهم إليها باعتبار أن في وحدة القارة حل لجميع هذه المشاكل بل ولمشاكلهم الأخرى كما يتصورون .

ففي وحدة القارة حل للمشاكل القبلية والمشاكل الناتجة عن بلقنة القارة وحدودها المصطنعة ، كما يجدون فيها حلاً لمشاكل التفرقة العنصرية ، وقبل كل شيء يجدون فيها القوة التي تجعل أفريقيا قادرة على مواجهة الاستعمار والتخلص من سيطرة الرجل الأبيض .

ورغم أن بعض الزعماء الأفارقة من أمثال أنكروما وسيكوتوري كانوا ينظرون إلى الوحدة الافريقية منذ البداية باعتبارها حركة تدخل في صميم الثورة الافريقية ووضعوا تصوراتهم للوحدة في شكل مشروعات محددة كما فعل انكروما حين طالب بمشروع الحكومة الواحدة لكل أفريقيا ، فقد ظل البعض الآخر وهو لا يرى من الوحدة الافريقية إلا ذلك الجانب الرومانسي والذي يجعله يردد - دون تفسير

أو تحديد ـ شعار « الاتحاد قوة » . ومن هؤلاء الرئيس توبمان الرئيس الراحل لجمهورية ليبريا والذي عبر عن هذا المعنى عندما وقف في جلسة افتتاح مؤتمر الدول الافريقية المستقلة في أكرا عام ١٩٥٨ ليقص علينا قصة قديمة عبر بها عن مفهومه للوحدة الافريقية .

ويتلخص مضمون هذه القصة انه حدث أن جلس أحد زعماء القبائل الافريقية مع حكماء القبيلة فاقتحم مجلسهم ثعبان كبير الحجم ، فقاموا جميعاً وتعاونوا على قتله ، وما أن فرغوا من هذه المعركة حتى تساءل الزعيم الافريقي إذا كان أحدهم يستطيع أن ينبئه عن السبب الذي أدى إلى مقتل الثعبان .

وبعد أن فشل جميع الحاضرين في إعطاءه الاجابة التي ترضيه قال متسائلاً عما كان يحدث لو أن الثعبان دخل عليهم ومعه عدة ثعابين أخرى .

فقالوا جميعاً أنه لو كان ذلك حدث لكانوا تركوا المكان فارين . وهنا قال الزعيم الافريقي : « إذن قتل الثعبان كونه وحيداً وبمفرده » .

وكان هذا المفهوم البسيط بجوانبه الرومانسية هو في حقيقة الأمر الذي حرك الأفارقة جميعاً وأثار حماسهم للوحدة الافريقية ـ وأقصد مفهوم الوحدة التي تعطي القوة لمواجهة جميع متاعبنا والتغلب عليها .

لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة عندما تعدت الأمور مجرد الأماني ، وعقدت المؤتمرات الافريقية وبدأ المسؤولون من الزعماء الافريقيين والحكومات الافريقية يضعون تصوراتهم ومشروعاتهم لهذه الوحدة ، فتصارعت الأفكار وتضاربت الآراء نحو تحديد مفهوم هذه الوحدة الافريقية وطريقة تحقيقها وممارستها .

وكانت التساؤلات كثيرة وتعكس هذا التضارب . فهل تكون

وحدة العمل الثوري هي المرك الأول للوحدة الافريقية ؟ وبالتالي هل تكون الوحدة هي وحدة الدول الثورية القادرة على تدعيم الثورة في أفريقيا حتى تتحرر القارة من جميع ألوان السيطرة الأجنبية ؟ وإذا كان الأمر كذلك ألا يؤدي ذلك إلى الصدام مع الحكومات الافريقية التي لا تستطيع أن تسير في ركب الثورة ؟ وما هو الموقف بالنسبة للحركات الثورية في مثل هذه الدول ؟ وما هي حدود التدخل في شؤون الغير ؟

أم أن الوحدة الافريقية تعني مجرد تجمع الدول المستقلة في القارة والتحالف فيما بينها فقط في حدود ما يمكن أن تتفق عليه جميع الدول الافريقية ؟ وإذا كانت هذه هي الوحدة ، ألا يكون ذلك تفريغاً للوحدة من مضمونها الثوري في سبيل التمسك بالشكل فقط ؟!

وما هو الموقف بالنسبة للوحدات الاقليمية ؟ أهي معاكسة للوحدة الشاملة أم أنها خطوة نحوها ؟ ثم ما هي الوحدة التي نريدها لدول أفريقيا أهي وحدة دستورية؟ وهل توجد المقومات الكافية بين الشعوب الافريقية لقيام مثل هذه الوحدة وضمان استمرارها ؟ ومئات الأسئلة الأخرى التي لم يكن من السهل أن نجد لها الاجابة التي يقبلها جميع الأفارقة .

واستمرت هذه التساؤلات والتناقضات والصراعات حول الوحدة الافريقية ومفهومها إلى أن استطاع الأفارقة في مايو سنة ١٩٦٣ أن يتوصلوا إلى صيغة قبلها الجميع وأصبحت هذه الصيغة دستوراً للوحدة الافريقية ألا وهي ميثاق منظمة الوحدة الافريقية .

وإلى أن تم ذلك شهدت القارة العديد من الاجتماعات والمؤتمرات بعضها على المستوى الرسمي وبعضها على المستوى الشعبي كما شهدت قيام التكتلات والتنظيمات السياسية التي تكونت كلها باسم الوحدة ومن أجلها .

ورغم أن هـذه الحـركـات الـواسعـة من المؤتمـرات والتكتـلات أظهرت الكثير من التناقضات والصراعات المـوجودة في أفـريقيا ، إلا أنها كانت ضرورية لبلورة الصيغة النهائية للوحدة ، كما كانت ضرورية لتحطيم الكثير من الحواجز التي أقامتها الأنظمة الاستعمارية المتبـاينة بين شعوب القارة .

وقد شاركت مصر وشارك عبد الناصر مشاركة إيجابية وفعالـة في الجهود التي بذلت من أجل بلورة الوحـدة الافريقيـة وكان دور مصـر دوراً بارزاً ومؤثراً في جميـع المراحـل التي أدت في نهاية الأمـر إلى قيام منظمة الوحدة الافريقية .

مؤتمرات الدول الافريقية المستقلة :

كانت مرحلة هامة في تاريخ الوحدة الافريقية تلك المـرحلة التي تمت فيها عدة لقاءات عرفت « بمؤتمـرات الدول الافـريقية المستقلة » C.I.A.S. وكـان أهمها أول هـذه المؤتمرات الـذي دعى اليه كـوامي انكروما وعقد في أكرا في أبريل سنة١٩٥٨ .

وجاء هذا الاجتماع إيذاناً بنقل الحركة الافريقية أو حركة « البان أفـريكانـزم » من عواصم أوروبـا وأمريكـا إلى قلب القارة الافـريقية نفسها . كما كان أول دعوة عملية لفكرة الوحدة الافـريقية ارتفـع في أعقابها شعار هذه الوحدة التي خفقت لها قلوب الأفارقة في كل مكان .

ورغم أن هذا المؤتمر شـأنه في ذلـك شأن الاجتمـاعات المنبثقـة عنه ، لم يحدد المفهوم الكامـل أو العملي للوحـدة الافريقيـة ، إلا أنه نجح في تأكيد معاني معينة ربطت بصفة نهائية بمفهوم هذه الوحدة .

فقد جاء هذا المؤتمر بمثابة الضـربة القـاضية لفكـرة الفصل بـين

أفريقيا العربية وأفريقيا السوداء . وسقطت الصحراء كعازل أريد له أن يفصل بين شمال القارة وجنوبها . وأخذت الوحدة الافريقية المفهوم القاري ، أو وحدة القارة بجميع أجزائها ، وذلك عندما اجتمعت الثمان دول الافريقية المستقلة في ذلك الوقت وكان بينها خمس دول عربية . وأنقذت بذلك الحركة الافريقية والوحدة الافريقية وبصفة نهائية من أن تكون مجرد رد فعل لما يلاقيه الأفارقة من مرارة التفرقة والاضطهاد العنصري .

وقد ذهب انكروما إلى حد بعيد في محاولة إبعاد شبهة التعصب العنصري عن الحركة الافريقية عندما وجه الدعوة أيضاً إلى حكومة اتحاد جنوب أفريقيا لحضور هذا المؤتمر . إلا أن جنوب أفريقيا اشترطت دعوة الدول الاستعمارية أيضاً باعتبارها « قوى مسؤولة في أفريقيا » فأسقط أنكروما دعوته التي لم تتكرر بعد ذلك .

والمعنى الآخر الذي تأكد منذ المؤتمر الأول للدول الافريقية المستقلة والتصق بصفة نهائية بمعنى الوحدة الافريقية هو العمل الافريقي المشترك من أجل إنهاء الاستعمار وتحميل الدول الافريقية المستقلة مسؤولية خاصة نحو المساعدة في تحرير الشعوب الافريقية التي ما زالت ترزح تحت نير الاستعمار ، سواء كان ذلك عن طريق الأمم المتحدة أو عن طريق تقديم المساعدة المباشرة . وكان هذا المفهوم هو أبرز الجوانب الايجابية الملموسة في مفهوم الوحدة الافريقية . وأعطى هذا المفهوم الدول الافريقية المستقلة الحق والشرعية في المطالبة باستقلال هذه الدول وتبني قضاياها في المحافل الدولية وخاصة في الأمم المتحدة .

وإذا كان لنا أن نرجع الكثير من الفضل في تحقيق هذه المفاهيم لرئيس غانا الراحل كوامي انكروما الذي وجه الدعوة للدول العربية

لحضور أول مؤتمر يأخذ الصفة الرسمية في أفريقيا باعتباره اجتماع حكومات ، فلا بد لنا أن نذكر أن الجهود التي كانت قد بذلتها مصر لتأكيد وجهها الافريقي وحركة عبد الناصر الواسعة في المجال الافريقي هي التي جعلت دعوة انكروما على هذا النحو أمراً ممكناً . ولذلك فقد جاءت نتائج هذا المؤتمر نجاحاً لسياسة عبد الناصر الافريقية وتتويجاً لجهوده المستمرة في مساعدة حركات التحرير الافريقية .

ولم يكن هذا هو المكسب الوحيد الذي خرجت به مصر والدول العربية من هذا المؤتمر وإنما كان أعظم ما حققه العرب هو الاهتمام البالغ والتأييد الذي حظيت به الثورة الجزائرية وتبني الأفارقة لها باعتبارها ثورة أفريقية .

فقد أتيح لممثلي جبهة التحرير الجزائرية فرصة عرض قضيتهم على المؤتمر . فقدموا ثورتهم باعتبارها ثورة أفريقية بجانب كونها ثورة عربية . وكان هذا خطاً ذكياً في استراتيجية الثورة الجزائرية استفادت منه الجزائر التي حصلت على تأييد الأفارقة كما أفاد ذلك كثيراً في تدعيم الصلة بين العرب وبقية الأفارقة .

وقد اعترف المؤتمر بجبهة التحرير الجزائرية باعتبارها الممثل الشرعي للجزائر ، كما أكد المؤتمر تصميم الدول الأعضاء على تقديم كل مساعدة ممكنة لشعب الجزائر لتحقيق استقلاله . وقرر المؤتمر أن تقوم ثلاث بعثات دبلوماسية مشتركة تتكون كل بعثة من ممثلي ثلاث دول من دول المؤتمر ، تطوف الدول الاسكندنافية ودول وسط أمريكا وأمريكا الجنوبية تدعوا للقضية الجزائرية في محاولة للحصول على أصوات هذه الدول لتأييد القرار الخاص بالجزائر في دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة .

وكان من نتيجة هذا التحرك أن أشار قرار الأمم المتحدة الخاص بالجزائر في هذه الدورة (عام ١٩٥٨) ولأول مرة إلى وجود الحرب الجزائرية ولم تعد الأمم المتحدة تنظر لما يحدث في الجزائر باعتباره من شؤون فرنسا الداخلية كما كان الوضع قبل ذلك .

وقد نجحت الحكومة المؤقتة للجزائر بعد ذلك في حمل وزراء خارجية الدول الافريقية المستقلة على الاجتماع اجتماعاً طارئاً لبحث المزيد من سبل التأييد والمساعدة للثورة الجزائرية وذلك في صيف عام ١٩٥٩ في منروفيا . واعترفت غينيا التي كانت قد استقلت بالحكومة الجزائرية المؤقتة أثناء انعقاد هذا المؤتمر كما اعترفت أيضاً من دول أفريقيا الغير عربية ، غانا ولكن قبل المؤتمر مباشرة .

وهكذا أصبحت الثورة الجزائرية في حركتها العالمية تعتمد اعتماداً كبيراً على تأييد الأفارقة بجانب التأييد العربي ، مستفيدة بذلك القدر من التضامن الافريقي الذي كان قد حققه مؤتمر الدول الافريقية المستقلة .

وكان من نتائج مؤتمر أكرا أيضاً ـ فيما يتعلق بالوحدة ـ ظهور الوجود الافريقي على المستوى الدولي ، أي اعتراف المجتمع الدولي بوجود كيان أفريقي يضم الدول الافريقية المستقلة . ولا شك أن ذلك كان في اتجاه تأكيد الشخصية الافريقية في المجال الدولي . فقد اتفقت الدول التي اشتركت في مؤتمر اكرا على أن تتكون « سكرتارية دائمة غير رسمية » من مندوبيها في الأمم المتحدة تكون مهمتهم التنسيق بالنسبة للمسائل ذات الاهتمام المشترك لدولهم ، والتحضير لاجتماعات الدول الافريقية المستقلة والعمل على تنفيذ قراراتها . وكان هذا هو بداية تكون المجموعة الافريقية في الأمم المتحدة والتي

استطاعت أفريقيا من خلالها أن تكون قوة لها تأثيرها في المجتمع الدولي .

وأصبحت الأمم المتحدة تعترف بأفريقيا كوحدة اقليمية واحدة فبعد أن كانت تتجه دائماً إلى إدخال شمال أفريقيا في منطقة الشرق الأوسط ـ وهو أمر كانت ترفضه الدول العربية حتى لا تشترك مع إسرائيل في منظمة إقليمية واحدة ـ نجد الأمم المتحدة في شهر مايو سنة ١٩٥٨ تنشىء اللجنة الاقتصادية وتضم جميع دول القارة بما فيها دول الافريقية التابعة لها شمال أفريقيا واتخذت أديس أبابا « E. C. P. » مقراً لهذه اللجنة .

وجاء المؤتمر الثاني للدول الافريقية المستقلة في اديس ابابا (يونيو ١٩٦٠) وفي هذا المؤتمر ظهرت التناقضات والصراعات لأول مرة حول مفهوم الوحدة الافريقية . فقد كان السؤال الذي فرض نفسه على كل مناقشات المؤتمر ثم بقي مطروحاً بعد انتهاءه يثير كثيراً من الجدل والنقاش في أفريقيا ، هو ما إذا كانت الوحدة التي ينشدها الافريقيون ستكون وحدة العمل الثوري ، أم أن الأفارقة سوف يكتفون بأن تكون هذه الوحدة مجرد تجمع لجميع الدول الافريقية المستقلة بقصد تنمية التعاون فيما بينها فحسب .

وقد كانت دول جديدة قد استقلت وتحضر المؤتمر لأول مرة ، ومنها غينيا التي كانت بحكم ظروف استقلالها ومعركتها مع فرنسا من أكثر الدول الثورية راديكالية وأكثرها حماساً لوحدة العمل الثوري في أفريقيا . ومنها أيضاً الكاميرون التي كانت قد قبلت الارتباط مع فرنسا . وحضرت نيجيريا باعتبار أنه قد تحدد تاريخ استقلالها في نفس العام وكانت قد قررت هي الأخرى الارتباط مع المملكة المتحدة باتفاقات عسكرية وروابط اقتصادية وسياسية أخرى .

كان التباين الصارخ في سياسة هذه الدول مدعاة لظهور التناقض والصراع على مفهوم الوحدة الافريقية عند بحث موضوعات معينة . وكان أهم هذه الموضوعات هو طلب اتحاد شعب الكاميرون (حزب الـ «U. P. C .» حضور المؤتمر بصفة مراقب أو على الأقل عرض قضية بلاده على المؤتمر وهو إجراء سبق أن اتخذ في اجتماع الدول الافريقية المستقلة الأول في أكرا .

وتحمس وفد غينيا لهذا الطلب ، فقد كان سيكوتوري قد فتح بلاده لحركات التحرير والتنظيمات المعارضة في الأقاليم الفرنسية ومنها حزب اتحاد شعب الكاميرون الذي كان يقود الثورة في بلاده منذ اشتعالها عام ١٩٥٦ . ولكن بعد أن استقلت الكاميرون وأصبحت عضواً في هذا المؤتمر أصبح من غير المعقول أن يجلس وزير خارجيتها ليستمع لمن تعتبرهم بلاده خارجين على القانون .

وطرحت غينيا القضية على انها اختيار أمام المؤتمر لنوع الوحدة التي يريدها الأفارقة . فأما أن تكون وحدة تكتفي بالشكل فقط فيأخذون بوجهة نظر حكومة الكاميرون في استبعاد ممثلي الثورة ، ويكون المؤتمر بذلك ـ على حد تعبير وفد غينيا ـ قد أفرغ الوحدة الافريقية من مضمونها الثوري ، أو أن يكون اهتمام المؤتمر بجوهر الوحدة ومضمونها فيستمر تأييد المؤتمر للثورة الكاميرونية كما يريد حزب اتحاد شعب الكاميرون ويريد وفد غينيا .

ولكن المؤتمر لم يأخذ بوجهة نظر غينيا واستبعد ممثلي الثورة الكاميرونية ورغم أن هذا القرار من المؤتمر كان يوحي بانحسار وتراجع فكرة وحدة العمل الثوري ، إلا أن السبب الحقيقي كان يكمن في رغبة الدول الثورية الأخرى وعلى رأسها مصر أن يكون العمل الجماعي الثوري في أفريقيا موجهاً في هذه الحقبة ضد

الاستعمار مباشرة وليس ضد حكومات أفـريقية مهـما كان اتجـاهها . وهي بـذلك تتجنب إثـارة مخـاوف بعض الـدول الافـريقيـة حـديثـة الاستقـلال من الوحـدة الافريقيـة ، وتشجع هـذه الدول وتفتـح لها الطريق للانتقال إلى معسكر الدول الثورية وهي لذلـك ترى انـه من الضروري إعطاء الدول حديثة الاستقلال الوقت والفرصة لتستجمع قواها وتصبح أكثر قدرة على مواجهة الاستعمار .

وقد هاجم ثوار الكاميرون المؤتمر بسبب هذا القرار في المجلة التي كان يصدرونها قائلين : « سوف تشهد الشهور والسنوات القادمة مولد حكومات مستقلة اسـماً ولكنها ستبقى خـاضعة لنفـوذ الامبريـالية من الناحية الفعلية . وان التضامن الافريقي سوف يصبح مجرد عاطفة في خدمة الامبريالية إذا كانت الدول الافريقية المستقلة استقلالاً حقيقيـاً ستظل تنشد الوحدة ـ كما حدث في اديس أبابا ـ بأي ثمن » .

ولكن المؤتمر نفسه استطاع أن يصدر قراراً آخر ثـورياً وهـاماً في صالح وحدة العمل الثوري الا وهو قبـول الحكومـة المؤقتة للجـزائر كعضـو كامـل في مؤتمرات الـدول الافريقيـة المستقلة والاجتماعـات المنبثقـة عنها . وقـد حـدث ذلـك وسط المعـارضـة الشـديـدة لـوفـد الكاميرون . فقد كان هذا القرار خطيراً بالنسبة للدول التي ارتبـطت مع فرنسا داخل ما سمي بالمجتمع الفرنسي ، وكان عدد كبير منها قد تقرر استقلاله في نفس العام .

ومنذ هذا التاريخ وإلى أن استقلت الجزائر عام ١٩٦٣ أصبحت مواقف الدول الافريقية المختلفة من ثورة الجزائر أحـد العوامـل التي وقفت عقبة أمام تحقيق الوحدة الافريقية الشاملة .

وكـان آخر اجتمـاعات الـدول الافـريقيـة المستقلة هـو اجتمـاع

ليوبولدفيل عندما دعا لومومبا إلى اجتماع طارىء عقد في ٢٥ اغسطس سنة ١٩٦٠ عقب أحداث الكونغو الشهيرة ومحاولة انفصال اقليم كاتنجا . وقد امتنعت عن حضور هذا المؤتمر الدول التي استقلت عن فرنسا منذ مؤتمر اديس أبابا .

وكان واضحاً أن هذه الدول كما سبق أن أوضحنا عند الحديث عن الكونغو لا تريد أو بالأحرى لا تستطيع أن تساند لومومبا وثورته لارتباطها بفرنسا التي كان لها الفضل في مساعدة حكامها في الوصول إلى الحكم . كما أنها كانت تعرف ان مساندة الثورة الكونغولية قد يجر عليها الكثير من المشاكل ، بل انه قد ينقل المعركة إلى داخل هذه البلدان نفسها . علاوة على أن هذه الدول لم تكن تنظر بعين الارتياح إلى مؤتمرات الدول الافريقية المستقلة بعد أن أصبحت الحكومة المؤقتة لجمهورية الجزائر تتمتع بعضويتها الكاملة ، الأمر الذي تحدد معه وبصفة قاطعة موقف هذه المؤتمرات ليكون معادياً لفرنسا .

ثم تصاعدت الأزمة في الكونغو وتطورت الأحداث بسرعة حتى أصبحت الدول الافريقية الثورية وفي مقدمتها مصر طرفاً في هذا الصراع وخاصة بعد أن أرسلت قواتها لتعمل هناك تحت علم الأمم المتحدة وتلبية لرغبة لومومبا وتضامناً معه .

وقد دفع هذا التطور للأحداث دول المجموعة الفرنسية إلى الاجتماع في أبيدجان في أكتوبر سنة ١٩٦٠ بناء على دعوة الرئيس هوفويه بوانيه لبحث موضوعات ثلاث بقصد اتخاذ موقف موحد منها في دورة الأمم المتحدة . وكانت هذه الموضوعات هي الكونغو والجزائر وقبول موريتانيا في عضوية الأمم المتحدة (وهو موقف كانت تعارضه دول الجامعة العربية) .

وبالنسبة لموضوع الكونغو فقد قرر المؤتمر مساندة كازافوبو ضد لومومبا . أما بالنسبة للجزائر فقد تقرر اتخاذ موقف متحفظ في الأمم المتحدة من هذه القضية وكان ذلك بطبيعة الحال في صالح فرنسا . وأخيراً بالنسبة لموريتانيا تقرر تأييد انضمامها إلى عضوية الأمم المتحدة .

وكان نتيجة هذه القرارات ان حدث انقسام خطير بين المجموعة الافريقية في الأمم المتحدة ترتب عليه اعتراف المنظمة الدولية بوفد كازافوبو ممثلاً شرعياً للكونغو ضد رغبة الدول الافريقية الثورية التي كانت تريد أن يكون الاعتراف بوفد لومومبا . كما ترتب على هذه القرارات أيضاً أضعاف تأييد الأمم المتحدة للقضية الجزائرية في تلك الدورة . وقد اعتبرت هذه النتائج نجاحاً للمجموعة الفرنسية التي أثبتت قدرتها وفاعليتها في الأمم المتحدة .

ورغم أن موريتانيا لم تحصل على عضوية الأمم المتحدة في تلك الدورة إلا أن ذلك كان نتيجة استخدام الروس لحق الفيتو في مجلس الأمن تأييداً لموقف الدول العربية من هذه القضية .

وقد أدى انقسام المجموعة الافريقية في الأمم المتحدة إلى انقسام خطير في أفريقيا نفسها وبدء ظهور التكتلات الافريقية المتصارعة .

ففي ديسمبر من نفس العام (١٩٦٠) اجتمع رؤساء دول المجموعة الفرنسية في برازافيل ـ ولابد أنهم كانوا يشعرون بنوع من الزهو لما حققوه من نتائج في الدورة الأخيرة للأمم المتحدة ـ وأدى هذا الاجتماع إلى تكوين ما سمي « بمجموعة برازافيل » وإعلان هذا التكتل الجديد بصفة رسمية وهو ما أصبح يعرف بعد ذلك بالاتحاد الافريقي الملجاشي U. A. M. .

واعتبر هذا التكتل نكسة كبيرة للوحدة الافريقية ، فهو تكتل قائم على وحدة اللغة ووحدة الانتماء لاستعمار واحد قبل الاستقلال . وهذا مفهوم يؤدي انتشاره دون شك إلى قيام تكتلات أخرى متنافرة ، وهو تكتل يرفض تماماً وحدة العمل الثوري .

وكان من الطبيعي أن يقوم في مواجهة هذا التكتل تكتل آخر من الدول الافريقية التي تؤمن بوحدة العمل الثوري . فقد أعلن بالفعل ميثاق الدار البيضاء في يناير سنة ١٩٦١ بين خمس دول هي مصر وغانا وغينيا ومالي والمغرب وبالاضافة إلى حكومة الجزائر المؤقتة . وكانت هذه هي الدول التي قادت الثورة في أفريقيا - وجميعها كانت تؤيد الثورة في الكونغو بزعامة لومومبا وتؤيد بطبيعة الحال الثورة الجزائرية .

وبظهور هذه التكتلات انتهت بصفة نهائية مؤتمرات الدول الافريقية المستقلة التي كان أولها في أكرا عام ١٩٥٨ وآخرها في ليوبولدفيل في أغسطس سنة ١٩٦٠ .

وقد جاء مكملاً لهذه المؤتمرات التي قامت على المستوى الرسمي ، سلسلة أخرى من المؤتمرات ولكن على المستوى الشعبي عرفت باسم « مؤتمر كل الشعوب الافريقية » A.A. P. C. عقد أولها في أكرا في ديسمبر سنة ١٩٥٨ . وأريد لها أن تكون التنظيم الشعبي لمؤتمرات الدول الافريقية المستقلة وقاعدتها العريضة التي تشمل كل اتحاد القارة لاقتصار الأولى على الدول الافريقية المستقلة فقط .

وقد حضر المؤتمر الأول وفود عن ٢٨ اقليم ودولة أفريقية ممثلين للأحزاب السياسية وحركات التحرير ونقابات العمال . وتقرر عمل سكرتارية دائمة لهذا المؤتمر ومقرها أكرا .

وعن الوحدة الافريقية ذكر المؤتمر ولأول مرة فكرة إقامة

« كومنولث للدول الافريقية » كهدف نهائي يجب العمل على تحقيقه . كما شجع قيام الاتحادات الفيدرالية الاقليمية بشرط ألا تتعارض مع الفكرة النهائية لإقامة الكومنولث الافريقي ، واعتبر مثل هذه الاتحادات الاقليمية خطوة أولى نحو تحقيق الهدف النهائي .

وقد جاء هذا المؤتمر الأول لكل الشعوب الافريقية أشبه ما يكون بمظاهرة سياسية شعبية على مستوى القارة كلها لتأكيد حق الشعوب الافريقية في الاستقلال وإعلان تصميمها على نيل حريتها واعتبار ذلك أمراً ضرورياً لتحقيق الوحدة الافريقية . وقد كان هذا المؤتمر فرصة عظيمة التقى فيها زعماء حركات التحرير بعضهم ببعض كما التقوا بزعماء ومسؤولين سياسيين من الدول الافريقية المستقلة . فقد كانت هذه المرة الأولى التي التقي فيها بباتريس لومومبا الزعيم الكونغولي الذي كان يخرج من بلاده للمرة الأولى وكانت هذه بداية علاقة متينة بين مصر والحركة الوطنية في الكونغو.

وقد جاء هذا المؤتمر أيضاً فرصة لانتقال الأفكار الثورية الى داخل القارة وتشجيعاً لزعماء حركات التحرير الذين اكتشفوا انهم لم يعودوا يناضلون بمفردهم. وقد ذكرنا من قبل كيف تطورت الحركة الوطنية في الكونغو بعد عودة لومومبا من هذا المؤتمر وإعلانه تأييد الشعب الكونغولي لقرارات مؤتمر أكرا التي تطالب بالاستقلال الفوري لكل أفريقيا ، فكانت هذه هي البداية التي أدت إلى أحداث يناير سنة ١٩٥٩ وتطورت بعدها الحركة الوطنية تطوراً سريعاً أدى إلى استقلال الكونغو بطريقة مفاجئة أذهلت العالم كما سبق أن أوضحنا من قبل .

وعقد المؤتمر الثاني لكل الشعوب الافريقية في تونس في يناير سنة ١٩٦٠ وكان هذا المؤتمر أقل في أهميته من المؤتمر الأول ، كما جاءت

قرارته أقل منه ثورية . فبالنسبة للكاميرون على سبيل المثال اتخذ قراراً مائعاً مراعاة لحكومة الكاميرون التي كانت قد استقلت . ولم يستثنى من ذلك سوى قرار عن الجزائر جاء غاية في الثورية إذ اشتمل على توصية بتكوين فرقة من المتطوعين الأفارقة لحرب التحرير الجزائرية وناشد المؤتمر الدول الافريقية المستقلة أن تقدم التسهيلات اللازمة لتحقيق هذه التوصية . إلا أن الحبيب بورقيبة عاد وأفسد هذا القرار عندما أعلن عن استنكاره له واعتبره مجرد دعاية ، وأعلن أن تونس لن تسمح بتواجد مثل هذه الفرقة على أرضها .

وقد كان هذا المؤتمر هو الأخير في سلسلة مؤتمرات الشعوب الافريقية التي عقدت تحت مظلة مؤتمرات الدول الافريقية المستقلة . ولكن عقد مؤتمر ثالث وأخير جاء بعد انتهاء مؤتمرات الدول الافريقية المستقلة وظهور التكتلات السياسية في القارة .

ميثاق الدار البيضاء ومرحلة التكتلات السياسية في أفريقيا :

جاء إعلان ميثاق الدار البيضاء من خمس دول أفريقية هي مصر والمغرب وغانا وغينيا ومالي والحكومة المؤقتة لجمهورية الجزائر ، علامة بارزة في تاريخ الوحدة الافريقية فقد جسد هذا الميثاق الفكر الثوري الوحدوي في أفريقيا دون أن تفسده تنازلات تمليها الرغبة في الحفاظ على الشكل العام لوحدة الدول الافريقية بجميع اتجاهاتها وذلك بعد أن كان قد تحطم هذا الشكل بالفعل منذ قيام تكتل برازافيل ومقاطعة دوله من قبل لاجتماعات الدول الافريقية المستقلة .

فقد جاء هذا اللقاء في الدار البيضاء بين دول سبق أن التقت إرادتها بالفعل من خلال مواقف ثورية واحدة في أزمة الكونغو التي اعتبرتها هذه الدول معركة بين القوى الوطنية الثورية في أفريقيا من

جانب وقوى الاستعمار والامبريـالية والاحتكـارات الاستعمارية من جانب آخر . كـما انها جميعاً عنـدما هبت لمسـاندة القـوى الوطنيـة في الكونغو ممثلة في لومومبا ، فعلت ذلك باسم الوحدة الافريقية وتأصيلاً للمفهوم الثوري لهذه الوحدة .

وعنـدما اجتمـع رؤساء هـذه الدول في الـدار البيضاء في ينـاير سنة ١٩٦١ بناءً على دعوة الملك محمـد الخامس ملك المغـرب ، كان ذلك بقصد بحث موقف بلادهم من أزمة الكونغو ومن تواجد قواتهم تحت قيادة الأمم المتحدة في الكونغو . وكانت هذه الدول نفسها ترى ضرورة اتخاذ موقف موحد لوقف المد الرجعي في أفريقيا الـذي كانت قد ظهرت بـوادره في دورة الأمم المتحدة الأخيـرة بتواجـد تكتل دول المجموعة الفرنسية ثم قيام مجموعة برازافيل بعد ذلك بصفة رسمية . وكان هذا هو السبب الرئيسي الذي وقع الرؤساء من أجله ميثاق الدار البيضاء وقامت بسببه منظمة سياسيـة تضم دولهم لتتولى قيـادة العمل الثوري في أفريقيا وتدعم الوحدة الافريقية بمفهومها الثوري .

وقد نص ميثاق الدار البيضاء عـلى قيام لجنة سياسية من رؤساء الدول المشتركة ولجنة اقتصادية من وزراء الاقتصاد ، وأخرى ثقافية من وزراء التعليم . كما نص على إنشاء قيادة أفريقية مشتركة عليا من رؤساء الأركان في جيوش هذه الدول بقصد : .. الدفاع المشترك عن أفريقيا في حالة العـدوان على أي جـزء من القارة وكـذلك حمـاية استقلال الدول الافريقية ».

وكان أهم ما تميزت به منظمة الدار البيضاء فيـما يتعلق بالـوحدة الافريقية :

أولاً : انها تشتمل على دول ناطقة بالفرنسيـة مثل غينيـا ومالي ،

وأخرى ناطقة بالانجليزية مثل غانا ، علاوة على دول عربية . وكان في ذلك تأكيد على استمرار التمسك بالوحدة القارية بعكس مجموعة برازافيل التي جعلت من اللغة أساساً لوحدتها (وحدة الفرانكوفون) .

وقد نص البروتوكول المنفذ لميثاق الدار البيضاء الذي وقع في القاهرة في مايو سنة ١٩٦١ على فتح باب العضوية لجميع الدول الافريقية التي تقبل احكام الميثاق والبروتوكول الخاص به . وبذلك اعتبرت هذه الدول ان تنظيمها هذا هو النواة الحقيقية لتحقيق الوحدة الافريقية الشاملة . وقد نص ميثاق الدار البيضاء على « تأكيد دوله لثقتها في مؤتمرات الدول الافريقية المستقلة ومناشدتها لجميع الدول الافريقية المستقلة مشاركتها جهودها من أجل تحرير أفريقيا وبناء وحدتها » .

ثانياً : أعلن ميثاق الدار البيضاء ـ بكل وضوح ـ التزام دوله الكامل بالخط الثوري وتعهد دوله متضامنة بتصفية الاستعمار . فقد نص الميثاق على : « التصميم على تحرير الأراضي الافريقية التي ما زالت تحت السيطرة الأجنبية وذلك بإعطائها العون والمساعدة لإنهاء الاستعمار والاستعمار الجديد في جميع أشكاله . . » ثم نص كذلك على « . . الاعلان عن ضرورة توجيه الدول الافريقية المستقلة لسياستها الاقتصادية والاجتماعية بالشكل الذي يضمن استغلال ثرواتها الوطنية من أجل صالح شعوبها وضمان توزيع هذه الثروات توزيعاً عادلاً بين رعاياها » .

وكان معنى ذلك أن الوحدة التي اختارتها هذه الدول هي وحدة قائمة على الثورة بأبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ولا شك أن الدعوة لإضافة البعد الاجتماعي للثورة الافريقية والوحدة

الافريقية كان أمراً له جاذبيته وتأثيره لصدور هذه الدعـوة من دول في معظمها كانت قد خطت بالفعل خطوات واسعة نحو تحقيق العـدالة الاجتماعية وكان ذلك واضحاً في حالة مصر وغانا وغينيا .

ثالثاً : أعلن الميثاق التزام دوله بسياسـة عدم الانحيـاز كما أعلن عن « معارضة دوله لتواجد القوات الأجنبية وإقامة القواعد التي تعتبر خطراً على تحرير أفريقيا » .

وكـانت هذه هي المـرة الأولى التي ينص فيها عـلى سياسـة عدم الانحياز باعتبارها سياسة تدخل في صميم الحركة الافريقية واعتبارها أساساً من الأسس اللازمة لتحرير أفريقيا والحفاظ على استقلال دولها وتخليصها من الاستعمار والاستعمار الجديـد . وكانت منـظمة الـدار البيضاء بذلك هي أول تنظيم يقوم في أفريقيا يتبنى هذه السياسة .

ومنذ هذا التاريخ اعتبرت هذه الدول ـ أعضاء الميثاق ـ سياسة عدم الانحياز إحدى الدعائم الأساسية للوحدة الافريقية وناضلت من أجـل تأكيـد هذا المفهـوم باعتبـاره أمراً ضـرورياً لتـأكيـد الشخصيـة الافريقية المستقلة .

وقد كان هذا نجاحاً كبيراً لعبد الناصر شخصياً وتعـزيزاً لمكـانته الدولية باعتباره أحد الأقطاب الثلاثة في العالم لهذه السياسة وخاصة وان المؤتمـر الأول لرؤسـاء دول عدم الانحيـاز لم يكن قد عقـد بعد « وكانت سياسة عدم الانحياز ما زالت فكرة يتبناها ويتولى مسؤوليـة الدعوة لها الزعماء الثلاثة نهرو وتيتو وعبد الناصر .

وهكذا نجد أن الاعلان عن ميثاق الدار البيضاء جاء بمثابة تكوين قيادة جديدة في أفريقيا من زعماء الثورات الوطنية الأساسية في القارة ، عبد الناصر ونكروما وسيكوتوري ومديبو كيتا وقيادة الثورة الجزائرية ،

وهي زعامات استحوذت على إعجاب الشعوب الافريقية كلها لمقاومتها للاستعمار والسيطرة الأجنبية ، ولما حققته داخل بلادها من انتصارات في هذا المجال .

وكانت الجماهير الافريقية مهيئة للسير وراء هذه القيادة التي أعلنت اهتمامها بالثورة في أفريقيا كلها وعزمها على تحرير القارة من السيطرة الأجنبية . وقد كان ميثاق الدار البيضاء في حقيقة الأمر يخاطب الشعوب الافريقية قبل مخاطبته لحكوماتها ، وكان يستحثها على الثورة ضد كل ألوان السيطرة الأجنبية بجميع أشكالها باعتبار أن ذلك هو السبيل إلى تحقيق وحدة أفريقيا .

ولتأكيد هذا المعنى الشعبي والثوري عقد في القاهرة في مارس سنة ١٩٦١ المؤتمر الثالث لكل الشعوب الافريقية ، حضره حوالي ٢٠٠ وفد ممثلين لجميع حركات التحرير الافريقية والتنظيمات الوطنية في المناطق الغير مستقلة والتنظيمات السياسية في الدول الثورية . كما حضرته تنظيمات معارضة من الدول الافريقية التي عرفت بالحكومات المتحفظة ، وكان من بينها تنظيمات ثورية وطنية راديكالية لا تعترف بالحكومات الجديدة في بلادها وتعتبرها حكومات عميلة للاستعمار . من أمثال هذه حركة SWABA بزعامة جيبو بكاري في النيجر وحزب اتحاد شعب الكاميرون U. P. C. الذي كان يقود الثورة في الكاميرون حتى ذلك الوقت .

وقد جاءت قرارات هذا المؤتمر متطرفة وقاطعة في ثوريتها ، ولم يؤخذ بأي حلول وسط مراعاة للحكومات الرجعية أو المعتدلة على غرار ما حدث في مؤتمر الشعوب الافريقية الثاني في تونس (يناير سنة ١٩٦٠) .

واتخذ المؤتمر قراراً قوياً بالنسبة للكونغو أيد فيه الثورة ، وذهب إلى حد تحميل السكرتير العام للأمم المتحدة « داج همرشولد » مسؤولية مقتل لومومبا واعتبر باتريس لومومبا بطل أفريقيا . وجاءت جميع القرارات عاكسة لحقيقة الثورة الافريقية في كل مكان من القارة .

وقد كان أهمّ قرارات هذا المؤتمر على الاطلاق ذلك القرار المتعلق « بالاستعمار الجديد » الذي عرفه المؤتمر تعريفاً ما زال يوصف بأنه أهم وأدق تعريف للاستعمار الجديد الذي ارتبط ـ حسب هذا التعريف ـ بدول الاستعمار الغربي بالاضافة إلى الولايات المتحدة الامريكية وإسرائيل وجنوب أفريقيا .

وكان واضحاً أن مؤتمر كل الشعوب الافريقية قد أصبح التنظيم الشعبي لمنظمة الدار البيضاء ، بعد أن كان يعتبر من قبل امتداداً لمؤتمرات الدول الافريقية المستقلة أو التنظيم الشعبي لها .

وترتب على ميثاق الدار البيضاء أن أطلقت كل من غانا وغينيا يدها في مساعدة الحركات المعارضة الراديكالية في دول غرب أفريقيا وخاصة في الدول الناطقة باللغة الفرنسية .

أما مصر فقد ركزت على مساعدة الحركات الوطنية والتحريرية في المناطق الغير مستقلة ومساعدة الثورة في الكونغو ، وزادت من مساعداتها هذه . كما وضعت القاهرة الكثير من إمكانياتها في خدمة الثورة الافريقية . وقدمت المساعدات الاقتصادية للدول الافريقية التي كانت تعمل على تحرير اقتصادها ـ وقد أفردنا فصلاً خاصاً بهذا الموضوع .

ولا شك أن قيام منظمة الدار البيضاء قد أعطى الثورة الافريقية دفعة قوية أوقفت المد الرجعي الذي كان يخشى منه بعد ظهور مجموعة

برازافيل ـ وأصبحت مجموعة دول الدار البيضاء هي التجسيد الحي لضمير الشعوب الافريقية المعبرة عن أمانيها . هذا في الوقت الذي أصبح من الواضح فيه أن مجموعة برازافيل ما هي إلا تكتل لبعض الدول التي لم يكتمل استقلالها ، وان كل ما بينها ما هو إلا مجرد اتفاق بين حكومات تخشى ثورة شعوبها أكثر من أي شيء آخر ، وكانت معظم هذه الحكومات ما زالت تعتمد على القوات الفرنسية لحماية وجودها واستمرارها في السلطة .

وبقيام منظمة الدار البيضاء اشتعل الحماس من جديد للوحدة الافريقية وظهرت جهود كثيرة لإعادة توحيد دول القارة بعضها كان مخلصاً لفكرة الوحدة كتلك الجهود التي كان يقوم بها سيلفانوس أوليمبيو رئيس التوجو ، وهيلاسيلاسي امبراطور أثيوبيا ، وبعضها كان يريد بها أصحابها القضاء على تكتل الدار البيضاء بأي شكل . فقد أراد تفاوا باليوا رئيس وزراء نيجيريا على سبيل المثال أن يدعو لمؤتمر تحضره جميع الدول الافريقية المستقلة جنوب الصحراء ، وكان يقصد بذلك إبعاد الدول العربية والعودة إلى فكرة وحدة أفريقيا السوداء . ولكنها كانت دعوة قد سبق لها أن هزمت ولم يعد من الممكن بعثها من جديد .

وكانت هناك مبادرات ومحاولات أخرى أقل أهمية قام بها آخرون من أمثال هوفويبه بوانييه رئيس جمهورية ساحل العاج والرئيس السنغالي ليوبولد سنغور .

وأخيراً وجّهت الدعوة لمؤتمر منروفيا الذي عُقد في ٨ مايو سنة ١٩٦١ . وجهت هذه الدعوة باسم رؤساء دول ليبريا وتوجو ونيجيريا وساحل العاج والكاميرون ودعيت جميع الدول الافريقية وكان عددها وقتئذٍ ٢٧ دولة ـ فيما عدا الكونغو وحضر المؤتمر عشرون

دولـة أفريقيـة ، وامتنعت ست دول هي دول الدار البيضـاء الخمس بالاضافة إلى السودان الذي أعلنت حكومته انها قاطعت المؤتمر تضامناً مع المغرب احتجـاجاً عـلى دعوة مـوريتانيـا . أما دول الـدار البيضاء الخمس فلم تكن ترغب في تمييع مـوقفها من جـديد من أجـل وحدة شكلية تكون الدول الثورية فيها قلة . وعندما اجتمعت دول منروفيا للمرة الثانية في لاجوس (في ٢٥ يناير سنة ١٩٦٢) امتنعت أيضاً دول الدار البيضاء عن الحضور محتجة هذه المرة بعدم دعوة الحكومة المؤقتة لجمهورية الجزائر .

وهكذا نشأ تكتل جديد في أفريقيا هو ما عرف بمجموعة منـروفيا وهو تكتل قام في واقع الأمر في مواجهة مجموعة الدار البيضاء .

وكـان من أوجه الخـلاف الرئيسيـة بين المجمـوعتين هـو مفهـوم الوحدة الافريقية أو التضامن الافريقي . فمجمـوعة منـروفيا اهتمت بالشكل العام للوحدة وكـان تركيـزها الأسـاسي كما وضـح في إعلان منروفيا (١٢ مايو ١٩٦١) على مبدأ عدم تدخل الدول الافـريقية في شؤون بعضها الداخلية . ووضع الاعلان ست مبادىء تحكم عـلاقة الدول الافريقية ببعضها هي :

١ ـ المساواة التامة بين جميع الدول الافريقية .
٢ ـ عدم التدخل في شؤون الدول الداخلية .
٣ ـ احترام سيادة كل دولة .
٤ ـ إدانة أي أعمال تخريبية خارجية تتم بواسطة دول مجاورة .
٥ ـ تنمية التعاون بين الدول الافريقية على أن يكون هذا التعاون مبنياً على أساس التسامح والتضامن وحسن الجوار وتبادل الآراء وعدم قبول زعامة أي دولة .

٦ ـ ان الوحدة المنشودة حالياً ليست الوحدة السياسية الاندماجية بين الدول الافريقية ذات السيادة .

كما نص الاعلان كذلك على تعهد دوله بالامتناع عن تشجيع الجماعات والأفراد المنشقة وعدم السماح لهم باستخدام أراضيها كقاعدة لنشاطهم التخريبي والامتناع أيضاً عن تمويل هؤلاء المنشقين أو تقديم أي مساعدة لهم .

ويلاحظ من هذه المبادىء التي أعلنها المؤتمر أن تجربة الكونغو كانت ماثلة دائماً أمام هذه الدول وهي تتخذ قراراتها . فهي بهذه المقاييس التي أعلنتها تدين المساعدات الافريقية التي قدمت لثورة الكونغو وكذلك المساعدات التي كانت تقدم لثوار الكاميرون وللمعارضة في النيجر وأماكن أخرى . كان تركيز هذه الدول الأساسي على أمن وسيادة الحكومات القائمة .

أما مجموعة الدار البيضاء فقد كان اهتمامها أساساً بمضمون الوحدة وليس بشكلها وهي لم تعد تعتبر الوحدة الافريقية في حد ذاتها هدفاً ، وإنما أصبحت تعتبرها وسيلة لتحقيق الثورة الافريقية بأبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ولذلك جاء تركيزها الأساسي على تحرير القارة من الاستعمار ومقاومة الاستعمار الجديد وكل أنواع السيطرة الأجنبية .

وكان أهم ما تميز به تجمع الدار البيضاء هو التجانس بين دوله ، فهناك تطابق في سياساتها الخارجية وتشابه في ظروفها الاقتصادية والاجتماعية وتجمعها قبل كل شيء روح التحدي للاستعمار والقوى الأجنبية التي تريد استمرار سيطرتها على مقدرات أفريقيا . وقد جعل هذا التجانس من منظمة الدار البيضاء بناءاً متماسكاً قادراً على تنفيذ

الأهداف التي قامت من أجلها ، كما جعلها صالحة لأن تكون نواة لوحدة أفريقية قائمة على أساس ثوري .

ورغم تفوق مجموعة منروفيا من ناحية عدد الدول المشتركة ، إلا أن بناءها جاء مفككاً ضعيفاً للتباين الكبير بين دولها ولارتباط كثير من هذه الدول بقوى استعمارية واحتكارية متعددة تختلف مصالحها في كثير من الأحيان . ولم يذب تكتل برازافيل داخل مجموعة منروفيا ، ولكنه بقي متماسكاً وان كان مبعث هذا التماسك في حقيقة الأمر هو ارتباط جميع دوله بفرنسا واعتمادها عليها اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً . وهكذا ظهرت التكتلات السياسية في أفريقيا واستمرت قائمة إلى أن قامت منظمة الوحدة الافريقية .

قيام منظمة الوحدة الافريقية :

رغم الانقسامات التي كانت قائمة في أفريقيا ووجود المجموعات المتعارضة إلا أن الحماس للوحدة الافريقية لم يفتر أبداً . واستمرت الجهود من أجل تحقيق هذه الوحدة تتخذ أشكالاً ومجالات عديدة بعضها متعارض وبعضها متجانس ، ومنها ما هو إقليمي وما هو قاري ، والبعض يرتبط بنشاط الحكومات والآخر شعبي عبرت عنه اتحادات العمال والتنظيمات الشبابية والنسائية وغيرها مما لا يتسع المجال لسرده في هذا البحث .

وقد كان هذا التفاعل أو الفوران من أجل الوحدة الافريقية أمراً ضرورياً ومرحلة لازمة ليكسر فيها الأفارقة الحواجز التي أنشأها الاستعمار فيما بينهم وحتى تتبلور فيها الصيغة المناسبة والممكنة لهذه الوحدة .

وفي ٢٥ مايو سنة ١٩٦٣ أمكن عقد مؤتمر على مستوى القمة

لجميع دول القارة في اديس ابابا بعد أن أصبح ذلك ممكناً بالانتهاء المؤقت لمشكلة الكونغو عندما انتهى الانفصال في إقليم كاتنجا وهرب تشومبي إلى أوروبا . كما كانت الجزائر قد حصلت على استقلالها وبذلك زالت أهم العقبات التي حالت من قبل دون عقد هذا الاجتماع والذي كان الغرض الأساسي منه إيجاد الصيغة المناسبة لوحدة أفريقيا .

وعندما وصل الوفد المصري برئاسة جمال عبد الناصر إلى اديس أبابا كان المشروع الذي يحمله لتحقيق هذه الوحدة يتلخص في إقامة جامعة أفريقية على غرار الجامعة العربية . وكان عبد الناصر يرى أن هذه هي الصيغة الوحيدة الممكنة في ذلك الوقت للحفاظ على الاطار القاري للوحدة . وأصبح متحمساً لتحقيق هذه الفكرة حتى ولو كان ذلك على حساب منظمة الدار البيضاء وذلك للأسباب التالية : ـ

أولاً : أن كثيراً من المبادىء الرئيسية التي أقرتها مؤتمرات الدول الافريقية المستقلة ومنظمة الدار البيضاء ، مثل تصفية الاستعمار ، ومقاومة السيطرة الأجنبية ومحاربة العنصرية وحتى سياسة عدم الانحياز أصبحت مبادىء مستقرة في ضمير الشعوب الافريقية ولم يعد من الصعب إقرارها داخل هذا التجمع الافريقي الشامل .

ثانياً : ان هذا التجمع الشامل إذا قام فمن المؤكد أن القيادة فيه ستكون للدول الثورية فهي الأكثر قدرة على الحركة والتعبير عن أماني الشعوب الافريقية ، كما أن عدد هذه الدول الثورية كان قد زاد باستقلال دول شرق أفريقيا .

ثالثاً : أن قيام مثل هذه الجامعة الافريقية سيمكن أفريقيا من أن تلعب دوراً هاماً ومؤثراً في السياسة الدولية وتحقيق السلام العالمي اللازم لتأمين سلامة دول العالم الثالث .

رابعاً : كان الصراع بيننا وبين إسرائيل في أفريقيا قد أصبح على أشده ، ووجد عبد الناصر أن ارتباطنا بجميع دول أفريقيا في منظمة سياسية واحدة من شأنه أن يعطينا ميزة هامة في التغلب على اسرائيل ويمكن استغلال هذه الميزة في مقاومة التوسع الاسرائيلي في القارة الافريقية .

وانتهى مؤتمر القمة في اديس ابابا حاوياً لجميع المبادىء الأساسية التي نادت بها الدول الثورية في أفريقيا ، بل ذهب الميثاق إلى حد إنشاء لجنة تحرير أفريقيا عرفت باسم « لجنة التنسيق » تألفت هذه اللجنة من تسع دول منها مصر بهدف تقديم كل المساعدات الممكنة لحركات التحرير الافريقية وتنسيق العمل العسكري وتنشيط حروب التحرير . وتقرر أن تساهم جميع الدول الافريقية في تمويل هذه اللجنة ونشاطها .

وكان معنى ذلك إطلاق يد الدول الثورية والتي تألفت منها لجنة التحرير في معظمها للعمل على تصفية الاستعمار وذلك باسم دول أفريقيا كلها بل ومساهمتها ومشاركتها . واتخذت دار السلام مقراً لهذه اللجنة . ولا شك في أن هذه كانت خطوة كبيرة نحو تعزيز الثورة الافريقية فقد فتحت تنزانيا أبوابها لحركات التحرير وأقامت المعسكرات باسم لجنة التحرير لتدريب آلاف الافريقيين .

وأقر ميثاق المنظمة سياسة عدم الانحياز وجعلها ركناً من أركان السياسة الخارجية للدول الافريقية . وصحيح أن بعض الدول الافريقية وقتئذٍ لم تكن مستوفية للشروط الواجب توافرها في دولة عدم الانحياز بالمقاييس التي وضعتها مؤتمرات عدم الانحياز من قبل ، إلا أن إقرار هذه السياسة في ميثاق المنظمة وبموافقة هذه الدول نفسها كان

يعني تعهداً منها بالعمل على التخلص من أي ارتباطات تجعلها في عداد الدول المنحازة .

ولا شك أن دخول أفريقيا كلها في هذا النطاق ، نطاق دول عدم الانحياز كان كسباً عظيماً لهذه السياسة كما كان انتصاراً كبيراً لجمال عبد الناصر ولمصر التي وضح مدى قدرتها على التأثير في مختلف المجالات الدولية .

وقد جاء ميثاق المنظمة مرضياً أيضاً لمجموعة دول منروفيا . فقد تضمّن الميثاق الكثير من المبادىء الأساسية التي كانت محوراً لنشاط هذه المجموعة عندما اجتمعت في منروفيا ولاجوس من قبل ، وأقصد بها مبادىء عدم التدخل في الشؤون الداخلية وإثارة الفتن في الدول الأخرى. كما أقرّ الميثاق أيضاً مبدءاً هاماً في هذا الاتجاه، وهو احترام الحدود السياسية القائمة في أفريقيا . حيث أن معظم الحدود بين الدول الافريقية قد قامت على أساس المصالح الاستعمارية فقط دون اعتبار حقيقي للأوضاع الجغرافية أو لتوزيع السكان ، الأمر الذي جعل من النادر أن ترى دولة أفريقية وقد خلت من مشاكل الحدود مع جيرانها . ولذلك فقد كان إقرار هذا المبدأ ضرورياً لمنع التدخل في شؤون الغير ووقف أعمال التخريب واستضافة الدول لعناصر الهدم والتخريب من الدول الأخرى المجاورة . وهذا ما كانت تسعى إليه دائماً دول منروفيا وخاصة دول المجموعة الفرنسية التي كانت تتهم غانا وغينيا باستضافة القوى المضادة وتشجيعها على أعمال التخريب .

وبقيام منظمة الوحدة الافريقية انتهى عمل منظمة الدار البيضاء وانتهى كذلك عمل مؤتمر كل الشعوب الافريقية وانتهت التكتلات السياسية من أفريقيا التي قسمت القارة إلى كتلة الدار البيضاء وكتلة منروفيا .

أما المجموعة الفرنسية أو اتحاد أفريقيا وملجاش .U. A. M فلم يعلن حلها إلا في مارس سنة ١٩٦٤ في داكار : وقامت بدلاً منها منظمة غير سياسية أطلق عليها الاتحاد الافريقي الملجاشي للتعاون الاقتصادي وأعلن الرئيس الموريتاني وقتئذٍ مختار ولد داده « . . أن المجال السياسي يجب أن يترك لمنظمة الوحدة الافريقية » .

وأصبحت المنظمة هي الصيغة المعترف بها من جميع دول أفريقيا والتي تعمل الوحدة الافريقية في إطارها . ولكن ذلك لم يعن انتهاء الصراع بين الدول التقدمية الثورية والدول المحافظة ، فقد انتقل هذا الصراع إلى داخل المنظمة نفسها ، فالمجموعة الأولى تريد أن تجذب أفريقيا كلها من خلال المنظمة نحو الثورة الشاملة والتحرير الكامل والمجموعة الثانية تريد أن تجعل من المنظمة قيداً للحد من اندفاع الثورة . وكان هذا هو الذي دفع بعض التنظيمات المعارضة وخاصة في دول المجموعة الفرنسية إلى مهاجمة فكرة التقاء الدول الثورية بالدول المحافظة خوفاً من أن يكون ذلك على حساب الثورة الافريقية نفسها .

وقد كتب هاماني ديوري رئيس حزب سوابا Swaba[١] في النيجر مقالاً بعنوان « الوحدة الثورية » نشر في جريدة الثورة الافريقية الجزائرية (فبراير ١٩٦٣) قال فيه : « . . وأخيراً يجب ألا تصبح الوحدة الافريقية نوعاً من الاتحاد النقابي لرجال السلطة يبتغون تأييد بعضهم البعض لمقاومة التيارات الشعبية » .

ولكن السنوات التالية أثبتت أن هذه التخوفات لم تكن في محلها فقد انتعشت الثورة الافريقية بشكل ملحوظ في أعقاب قيام منظمة

(١) الكلمة بلغة الهوسا معناها أرض الوطن .

الوحدة الافريقية وذلك في المناطق الغير مستقلة في انجولا ومـوزمبيق وغينيا بيساو وجنوب أفريقيا . كما ظهرت عدة انقلابات وثورات في أفريقيا الفرنسية اختفت على أثرها بعض الحكومات الرجعية كما حدث في الكـونغو بـرازافيل التي كـانت تسمى المجموعـة الفـرنسيـة بـاسم عاصمتها . فقد قامت في برازافيل حكـومة ثـورية بعـد الاطاحـة في أغسطس سنة ١٩٦٣ بحكم الأب يولو أهم زعماء المجموعة المرتبـطة بفرنسا الأمر الذي أفقد هذه المجموعة توازنها لبعض الوقت وخـاصة وأن انقلاباً آخر حدث في داهومي في أكتوبر من نفس العام . وحدثت محاولتا انقـلاب فشلتا إحداهما في سـاحل العـاج في أواخر أغسـطس والأخرى في السنغال في ديسمبر من نفس العام ثم انقلاب عسكري في جابون أحبطه تدخـل القوات الفـرنسية بنـاءً على طلب نـائب رئيس الجمهورية هناك وذلك في فبراير سنة ١٩٦٤ .

أما داخل المنظمة نفسها فقد أمكن اتخاذ قرارات ثورية في جميـع القضايا الافريقية الخاصة بـالاستعمار والاستعمـار الجديـد والتفرقـة العنصـريـة . ووصـل الأمـر إلى حـد اتخـاذ قـرار بقـطع العـلاقـات الـدبلومـاسيـة مـع المملكـة المتحـدة لمسؤوليتهـا عن إعـلان النظـام العنصـري في روديسيا لـلاستقلال من جـانب واحـد وعـدم تـدخـل بريطانيا عسكرياً لمنع ذلـك (وكان ذلـك في نوفمبـر سنة ١٩٦٥) . ورغم أنه لم يستطع تنفيذ هذا القـرار سوى عشـرة دول أفريقيـة فقط منهـا : (مصر ، الجـزائر ، كـونغو بـرازافيل ، غـانا ، غينيـا ، مالي وموريتانيا والسودان وتنزانيا علاوة على الصومال التي كانت قد قطعت علاقاتها من قبل لأسباب أخرى) ، إلا أن مجرد اتخاذ هذا القرار داخل المنظمة كان يعكس المدى الذي وصلت إليه سيطرة الاتجاهات الثورية على منظمة الوحدة الافريقية وقراراتها .

وقد أزعجت سيطرة هذه الاتجاهات مجموعة الدول الفرنسية التي ارتفعت منها أصوات تتهم المنظمة بأنها أصبحت خاضعة لدول الدار البيضاء فقال المسؤ ولون في ساحل العاج أنهم يأسفون للعجلة التي تم بها حل منظمة اتحاد أفريقيا وملجاش تحت ضغط منظمة الوحدة الافريقية وانتهى الأمر بإعادة هذه المجموعة لتكتلها السياسي من جديد وإقامة منظمة سياسية جديدة باسم « المنظمة المشتركة لأفريقيا وملجاش » ضمت مجموعة الدول الفرنسية .

وعندما عادت أزمة الكونغو من جديد واندلعت الثورة مرة أخرى لم تتردد الدول الثورية وفي مقدمتها مصر في تأييد الثوار الكونغوليين بكل قوة . ولم تكن دول الدار البيضاء هذه المرة وحدها فقد انضم إليها ـ في هذا التأييد ـ دول جديدة مثل تنزانيا وأوغندا وكينيا وموريتانيا وكونغو برازافيل والصومال وبورندي وزامبيا والسودان ووصل الأمر إلى حد منع تشومبي وكان رئيساً لوزراء الكونغو ـ من حضور اجتماعات المنظمة في القاهرة عام ١٩٦٤ وذلك بموافقة أغلبية أعضاء المنظمة .

وبعد الغزو البلجيكي الأمريكي للكونغو في عام ١٩٦٤ صوتت عشرون دولة أفريقية (من مجموعة ٣٥ دولة مستقلة) في الأمم المتحدة ضد هذا الغزو الذي تم بالاتفاق مع تشومبي رئيس الوزراء .

وكان هذا كله دليلاً كافياً على أن منظمة الوحدة الافريقية لم تصبح قيداً على الثورة الافريقية . فلم يكن عبد الناصر ولانكروما ولا سيكوتوري ولا نيريري . . من القادة الذين يمكن أن يتركوا الجوهر الثوري للوحدة الافريقية من أجل الحفاظ على مجرد شكل هذه الوحدة . فعندما اصطدم الجوهر بالشكل كانوا دائماً مع الجوهر ،

وهذا ما حدث تماماً في أزمة الكونغو التي كادت أن تعصف تماماً بمنظمة الوحدة الافريقية الوليدة .

وقد حرص عبد الناصر على حضور جميع اجتماعات منظمة الوحدة الافريقية على مستوى القمة منذ قيامها حتى نكسة يونيو سنة ١٩٦٧ . وكانت هذه الاجتماعات دائماً فرصة يلتقي فيها عبد الناصر ببقية الرؤساء الأفارقة الأمر الذي أفاد كثيراً في إقامة علاقات ثقافية ممتازة بين مصر ومعظم دول القارة كما أفاد في إيجاد التقارب بيننا وبين دول المجموعة الفرنسية التي استطاعت الدعاية الفرنسية ، طوال فترة حرب الجزائر ، أن تصور عبد الناصر لدى رؤساءها بصورة الزعيم المثير للمتاعب والمحرض على الانقلابات والذي يريد دائماً أن يفرض رأيه وسياسته على الغير ، فكانت مفاجأة لهم جميعاً في عام ١٩٦٣ اجتمعوا بعبد الناصر وشاهدوه في مؤتمر القمة وهو يقوم بدور بناء في المؤتمر يتفهم مشاكل الآخرين ويحترم آراءهم ويعرض أراءه دون أدنى صلف أو غرور . رأوا عبد الناصر في صورة تختلف تماماً عن تلك الصورة التي رسمتها لهم الدعاية الفرنسية طوال سنوات عديدة . وكان هذا ما قاله الرئيس الموريتاني مختار ولد داده لعبد الناصر نقلاً عن زملائه رؤساء دول المجموعة الفرنسية في أول لقاء لهما .

وعقد أول اجتماع لمجلس رؤساء منظمة الوحدة الافريقية في القاهرة في يوليو سنة ١٩٦٤ فكان هذا تأكيداً لدور مصر الفعال والمؤثر في العمل من أجل تحقيق الوحدة الافريقية . وانتخب جمال عبد الناصر رئيساً للمنظمة في دورتها تلك . وإذا كانت منظمة الوحدة الافريقية وقد ولدت في اديس ابابا فإنه قد تم بناء كيانها في اجتماع القاهرة حيث اتفق على تشكيل لجانها المختلفة .

وتم اختيار دياللو تيلي من غينيا سكرتيراً للمنظمة ، ولم يكن

الرئيس سيكوتوري نفسه متحمساً لهذا الترشيح وأراد أن يسحبه في آخر لحظة بحجة أن أي مرشح من غينيا سيجد معارضة شديدة من دول المجموعة الفرنسية . . وكان عبد الناصر هو الذي أقنع سيكوتوري بالعدول عن ذلك بعد أن أوضح له أن اتصالاتنا تؤكد أن ديالو تيلي سيحصل على أغلبية كبيرة وكانت مصر قد وقفت منذ البداية وراء ترشيحه لما كان يتمتع به ديالو تيلي من كفاءة وديناميكية لاتجاهاته الثورية التي عرف بها أثناء وجوده في الأمم المتحدة مندوباً دائمًا لبلاده .

وبقيام الوحدة الافريقية (منظمة الوحدة الافريقية) ساد شعور عام بالرضا في كل أنحاء القارة واعتبر الأفارقة أنهم توصلوا إلى الصيغة المناسبة لتحقيق الوحدة الافريقية . وهدأت نسبياً الدعوة إلى هذه الوحدة باعتبار أن ما تحقق منها كان كافياً ـ على الأقل في ذلك الوقت ـ بل وربما أكثر مما توقعه الكثيرون . وأصبح شغل الزعماء الافريقيين المهتمين بالوحدة الافريقية هو الحفاظ على هذا الاطار إلا واحداً هو الرئيس كوامي نكروما الذي لم يكتف بما تحقق بإقامة المنظمة وظل يدعو لمشروعه في إقامة الوحدة الافريقية في حماس زائد دون كلل أو ملل .

فقد كان نكروما يحلم بإقامة الولايات المتحدة الافريقية وكان يريد حكومة واحدة لكل أفريقيا تقوم بشؤون الدفاع والخارجية كما يريد إقامة نظام نقدي واحد للقارة وبرلماناً لأفريقيا كلها . واستمر نكروما في عرض مشروعه هذا للوحدة في جميع الاجتماعات الافريقية مردداً كلماته المشهورة في طلب الوحدة « هنا والآن » حتى أصبح هذا المشروع من المشاكل المزمنة داخل منظمة الوحدة الافريقية .

فقد كان مشروع نكروما للوحدة يثير شكوك عدد كبير من الدول

وخاصة الناطقة بالفرنسية التي كانت ترى أنها ذهبت إلى أبعد مما تريد بقبولها عضوية منظمة الوحدة التي سيطرت عليها الدول التقدمية ، ولم تكن مستعدة لمجرد مناقشة فكرة الوحدة حتى لا تجر على نفسها المزيد من المشاكل .

وقبل انعقاد مجلس رؤساء الدول الافريقية في أكرا عام ١٩٦٥ أوفدني جمال عبد الناصر لمقابلة نكروما وتبادل الرأي معه حول ما يمكن عمله لإنجاح المؤتمر حيث كانت هناك محاولات من مجموعة الدول الفرنسية لإفشاله ، وكان من بين ما نقلته إلى نكروما رأي عبد الناصر في مشروع غانا للوحدة .

فقد كان عبد الناصر يرى إرجاء هذا المشروع في ذلك الوقت وعدم مناقشته في مؤتمر أكرا لأن الدول الافريقية لم تكن مهيئة بعد لمثل الخطوة الدستورية . كما كان يرى أن الاصرار على فرض الوحدة أصبح يهدد وجود المنظمة ، فقادة أفريقيا من الزعماء المعروفين بحماسهم الشديد للوحدة من أمثال سيكوتوري وموديبوكيتا ونيريري هم أنفسهم لا يؤيدون هذا المشروع .

وقلت لنكروما أن عبد الناصر يعتبر الوحدة الدستورية أصعب وأعقد مراحل الوحدة وان الاصرار عليها أو حتى تحقيقها قبل الأوان يؤدي حتماً إلى انتكاس هذه الوحدة وانه يرى ذلك من منطلق تجربته العملية من الوحدة العربية . وأنه من أجل هذا المفهوم يفضل تأجيل التفكير في أي وحدة دستورية عربية في الوقت الحالي إلى أن تتهيأ لها الظروف الكاملة التي تضمن نجاحها واستمرارها .

وكان عبد الناصر يريد أن يجنب نكروما معركة فاشلة وأن يقلل من نقاط الصدام داخل منظمة الوحدة الافريقية .

وكان عبد الناصر لا يرى غضاضة في قيام الوحدات الاقليمية التي تقوم على أساس جغرافي في أفريقيا ولا يرى فيها أي تعارض مع وحدة أفريقيا الشاملة إذا قامت هذه الوحدات من أجل المصلحة الحقيقية لشعوبها وليس خدمة لمصالح الاستعمار وبشرط ألا يكون في قيامها ما يعارض المبادىء الأساسية لمنظمة الوحدة الافريقية .

وكان عبد الناصر لهذا السبب شديد الاعجاب بالرابطة التي قامت لفترة طويلة بين دول اتحاد شرق أفريقيا (كينيا وأوغندا وتنزانيا) والتي استطاعت في وقت من الأوقات أن توجد التكامل الاقتصادي فيما بينها فكانت لها عملتها المشتركة ووحدت الكثير من الخدمات في الأقطار الثلاثة . وعندما اختار عبد الناصر شكلاً للوحدة بين مصر وكل من ليبيا والسودان في عام ١٩٧٠ لإقامة ما سمي « ميثاق طرابلس » كان في ذهنه هذا الاتحاد الذي قام وربط بين دول أفريقيا الشرقية الثلاث اعتقاداً منه أن هذا النموذج هو أفضل السبل لتنمية الوحدة والوصول بها إلى الوحدة الشاملة .

ويجدر بنا الاشارة هنا إلى أن الانهيار الذي أصاب اتحاد شرق أفريقيا بعد ذلك ووصل إلى حد وقف الخدمات المشتركة بين دوله في عام ٧٧ ثم إلى حد الحرب بين دولتين من دوله هما أوغندا وتنزانيا في عام ١٩٧٩ هو اختلاف العقيدة بين نظم الحكم في الدول الثلاث ، فالنظام في كينيا سار في طريق رأسمالي واعتمد في التنمية على القطاع الخاص وحده . وفي تنزانيا اتجه نيريري نحو نظام اشتراكي نظم فيه ٩ مليون فلاح (من التعداد الكلي ١٦ مليون) في وحدات جماعية تعاونية . أما أوغندا فإن طرد عيدي أمين لـ ٥٠,٠٠٠ أسيوي كانوا ركيزة أساسية لاقتصاد البلاد دون الاعداد الكافي لذلك ترك أوغندا في حالة من الفوضى من الناحية الاقتصادية حتى أن ضروريات

الاستهلاك لا يمكن الحصول عليها إلا من السوق السوداء . وكانت هذه التناقضات هي التي قضت على هذا النموذج الذي ثبت نجاحه وفعاليته في وقت من الأوقات وقبل أن يصل التباين في العقيدة بين نظم الحكم إلى ما وصل إليه .

أين تقع الوحدة الافريقية من الوحدة العربية :

قد لا يكون لهذا السؤال معنى أو للاجابة عليه ضرورة الآن . ولكنه كان مطروحاً وبشكل ملح عندما بدأ البحث عن الخطوات العملية لتحقيق الوحدة الافريقية في أواخر الخمسينات وبداية الستينات . وقد كان هذا هو الوقت نفسه الذي توجت فيه الجهود الوحدوية في العالم العربي بإعلان الوحدة بين مصر وسوريا .

فعندما توجه الوفد المصري لحضور أول مؤتمر للدول الافريقية المستقلة في أكرا عام ١٩٥٨ برئاسة الدكتور محمود فوزي وزير الخارجية وقتئذٍ ، كان أعضاء الوفد يحملون أول جوازات سفر تخرج باسم الجمهورية العربية المتحدة . وأذكر أنه عندما استقبل كوامي نكروما الدكتور فوزي ـ وكنت بصحبته ـ طلب منه إبلاغ عبد الناصر أن اسم مصر عزيز على الأفارقة وأنه يرجو ألا يختفي هذا الاسم بعد أن تغير اسم الجمهورية . ثم قال انه لا يتصور أفريقيا بدون مصر .

وكان حديث نكروما في حقيقة أمر يحمل هذا التساؤل : أين ستكون الوحدة الافريقية في سياسة مصر ؟ خصوصاً وأنه كان يحلم بحكومة واحدة لكل أفريقيا .

ولم يكن الرد اللبق من الدكتور فوزي هو الذي أقنع نكروما بأن مصر لم تتخل عن دورها ومسؤولياتها الافريقية رغم الوحدة العربية الجديدة وامتدادها الجديد خارج أفريقيا ، وإنما كانت سياسة مصر

الافريقية واستمرار دورها في مساندة حركات التحرير هو الذي أقنع نكروما بعد ذلك وأقنع معه الأفارقة في جميع أنحاء القارة بأن الوحدة العربية لا تصرف مصر عن الاهتمام والسير في طريق الثورة الافريقية وطريق الوحدة الافريقية .

وإذا كان نكروما قد أثار تساؤلاته هذه بحسن نية ، فقد كانت هناك محالاوت أخرى خبيثة قامت بها القوى الاستعمارية في أفريقيا وبعض الجهات التي تعمل لحسابها لمحاولة تشويه صورة العرب في القارة وإثارة الكراهية ضدهم بعد أن فشلت فكرة تقسيم القارة بواسطة الصحراء شمالها عربي وجنوبها أفريقي .

فكنا نرى في جامعة ماكيريري بأوغندا على سبيل المثال لوحة وضعها الانجليز في مكان بارز تمثل الارساليات التبشيرية الأوروبية وقد جاءت إلى أفريقيا لتخلص الأفارقة من الأغلال التي قيدهم بها العرب وقصد بها هنا تجارة الرقيق . وكنا نرى نفس الشيء في لوحة أخرى بعرض الحائط في متحف لننجستون بزامبيا ، وهكذا في أماكن كثيرة وبوسائل عديدة منها مناهج التعليم التي وضعتها إرساليات التبشير وكلها تؤكد هذا المعنى ، فالعرب هم تجار الرقيق والأوروبيون هم المخلصون .

ولا أريد أن أترك هذه الاشارة دون أن أوضح أن العرب استخدموا الرقيق لأغراض تعتبر كمالية لا يقدر عليها سوى العدد القليل من أمراء الاقطاع والأثرياء ، ولذلك كانت أسواق الرقيق في العالم العربي محدودة جداً إذا قيست بأسواق الرقيق في أمريكا وبعض الموانىء الأوروبية . كما أن العرب الذين اشتغلوا بتجارة الرقيق كانوا يعملون لحسابهم كأفراد لا علاقة لهم بالحكومات العربية بعكس الدول الغربية التي كانت تتولى حكوماتها مسؤولية هذه التجارة تنظمها

وتحميها لفترة طويلة من الزمن . حدث ذلك بالنسبة للبرتغال واسبانيا وانجلترا وهولندا ، وحققت هذه الحكومات أرباحاً خيالية من وراء هذه التجارة .

كما أن تجارة الرقيق في العالم العربي لم تكن مقصورة على العنصر الأسود وإنما تعدت ذلك إلى الجواري والحسان من جنسيات مختلفة . فقد كانت مشكلة الرقيق في العالم العربي مشكلة اجتماعية في المقام الأول ولم تكن في يوم من الأيام مشكلة عنصرية كما كان الحال بالنسبة لأمريكا وأوروبا الغربية .

وبلغت هذه المحاولات التي تهدف إلى إظهار التناقض بين العرب والأفارقة مداها بعد قيام الوحدة بين سوريا ومصر مباشرة فكنا نسمع الأسئلة الخبيثة التي تحاول إظهار التناقض بين القوميتين العربية والافريقية . وكانت تظهر هذه الجهود مركزة في بلاد مثل الصومال وموريتانيا التي لم تكن قد حددت بعد مصيرها من القومية العربية . وحتى السودان لم يسلم من هذه الحملة الخبيثة ، فقد كانت هناك محاولات فاشلة تطرح فكرة القومية الافريقية دائماً كبديل للقومية العربية وكان على السودان أن يختار بين هاتين القوميتين . وكانت هذه محاولات لإبعاده عن مصر .

ولكن هذه المحاولات كلها لم تستطع أن تبعد مصر أو عرب أفريقيا عن المضي في طريق الوحدة والتضامن الافريقي كما أن تأثيرها على الأفارقة كان محدوداً . ففي حقيقة الأمر لا توجد قومية أفريقية ـ كما سبق أن أوضحنا ـ حتى تتعارض مع القومية العربية . أما إذا أريد تفسير القومية الافريقية على أنها قومية الرجل الأسود ، فنستطيع القول بأن الحركة الافريقية قد تجاوزت هذا التفكير الضيق منذ الخمسينات كما سبق وأوضحنا تفصيلاً من قبل .

ورغم فشل هذه الحملة في وقف مسار حركة الوحدة الشاملة في أفريقيا إلا أنها كانت تسبب لنا أحياناً كعرب بعض المشاكل العارضة وذلك في بداية تكوين منظمة الوحدة الافريقية . ولكن سرعان ما اختفت هذه المشاكل تماماً بعد أن توطدت صلتنا بالأفارقة داخل المنظمة وزالت كثير من الشكوك التي كانت قد بنيت على غير أساس إلا من الدعايات المغرضة التي صورت بغير حق العرب وخاصة مصر على أنها تريد إعادة امبراطوريتها القديمة في أفريقيا .

ففي عام ١٩٦٣ على سبيل المثال عندما اجتمعت الدول الافريقية في اديس ابابا لوضع ميثاق المنظمة اعترضت بعض الوفود مثل أثيوبيا ونيجيريا وكثير من الدول الناطقة بالفرنسية على النص الذي يجعل من اللغة العربية لغة عمل مع الانجليزية والفرنسية في اجتماعات وأعمال المنظمة . وكانت معظم الوفود المعترضة هي من البلاد التي يكثر فيها المسلمون الذين يتكلمون اللغة العربية ، وربما كان ذلك يعكس مخاوف هذه الدول من تزايد الصلة بالعرب وانعكاس ذلك على أوضاعها الداخلية .

وعندما عجزنا عن إيجاد حل لهذه المشكلة في اللجان الفرعية ، عرض الموضوع في اجتماع الرؤساء حيث خفت كثيراً حدة المعارضة في وجود جمال عبد الناصر شخصياً وامتنع عن الاعتراض كثيرون ممن عارضت وفودهم من قبل مثل هيلاسيلاسي . لكن سيكوتوري انبرى - بطريقته الثورية والعنيفة - يؤيد ويطالب بضرورة استخدام اللغة العربية وهاجم الرافضين لذلك ثم ذهب إلى حد الاعتراض على النص الذي لم يكن واضحاً - من وجهة نظره - الوضوح الكافي وطلب أن ينص صراحة على استخدام اللغة العربية شأنها في ذلك شأن اللغة الانجليزية والفرنسية .

ولم يعترض أحد على اقتراح سيكوتوري سوى عبد الناصر الذي رجا سيكوتوري الا يصر على تغيير النص لأن تلك العبارة والتي كانت تقول : « . . . لغة العمل في المنظمة هي اللغات الافريقية كلما أمكن والانجليزية والفرنسية » . هي النص الذي وضعته مصر وتريد الابقاء عليه كما هـو . وكان المقصـود هو لفت الأنـظار إلى أن اللغة العـربية ليست لغة دخيلة على أفريقيا مثل الانجليزية والفرنسيـة وإنما هي من لغات القارة الأصلية ، وهي بطبيعـة الحال اللغـة الافريقيـة الوحيدة الممكن استخدامها كلغة في المؤتمرات . وأصبحت اللغة العربيـة منذ ذلك الوقت لغة رسمية ولغة عمل داخل منظمة الوحدة الافريقية .

وحدث أيضاً في أحد الاجتماعات التابعة لمنظمة الوحدة الافريقية وأثناء إحدى المناقشات الحـادة ، أن انفعل أحـد الأعضاء ـ منـدوب السنغال ـ بعد أن اختلف مع الوفد المصري وهاجم مصر متهماً إياهـا باستغلال المنظمة لفرض سياستها على الأفارقة ، ثم تسـاءل مستنكراً عما إذا كانت مصر تنتمي حقيقة إلى أفـريقيا أم أن انتـماءها هـو انتماء عربي .

ورغم أن رئيس اللجنة وكان وزير خارجية مالي ـ أوقف المندوب عن الكلام بحجة أن حديثه خارج عن موضوع المناقشة كما أنـه ليس من حقـه أن يشكك في الانتـماء الافريقي لإحـدى الدول الافـريقيـة المؤسسة لمنظمة الوحدة الافريقية ، فقد وجدتها فرصة وقتئذٍ لأوضح أمام هذا الجمع الافريقي رأي مصر وإجابتها على هذا السؤال الخبيث الذي كان يتردّد تارة بحسن نية وتارة أخرى بسوء نية .

قلت وقتها ان انتماءنا عربي وأفريقي في نفس الوقت فالعالم العربي هو العائلة التي ننتمي إليهـا . والولاء للعـائلة لا يتعارض مـع الولاء للمجتمـع الأكبر سـواء كـان القبيلـة أو العشيـرة أو الـوطن ، وهـذا

ما نجده في أفريقيا مجتمعنا الأكبر . ثم ان الدعوة للوحدة العربية شأنها في ذلك شأن الدعوة للوحدة الافريقية ليست دعوة عنصرية تتعارض مع بعضها . فإذا قرأنا ميثاق الجامعة العربية لن تجد فيه ما يتعارض بأي شكل من الأشكال مع ميثاق منظمة الوحدة الافريقية، بل اننا سنجد تشابهاً كبيراً بين المبادىء التي يدعو لها كلا الميثاقين .

ولا شك أن وحدة مصر مع العرب تعتبر قوة لأفريقيا فامتدادها إلى العالم العربي خارج القارة الافريقية يضيف قوة جديدة إلى القارة ، وقد لمسنا أهمية ذلك في تأييد العرب لجميع القضايا الافريقية داخل الأمم المتحدة وخارجها . ونفس الشيء بطبيعة الحال بالنسبة للوحدة الافريقية التي تعتبر قوة العالم العربي .

كما قلت اننا إذا كنا جميعاً نؤمن بالتضامن الافريقي الآسيوي لأسباب عديدة نسلم بها فإن العرب هم همزة الوصل بين أفريقيا وآسيا .

وما أن فرغت من كلمتي هذه حتى تتابع معظم الحاضرين في توضيح ما فعلت مصر من أجل أفريقيا ومساهماتها في حركة التحرير ومساعدة الدول في الحصول على استقلالها . وجاءت الكلمات وكأنها مظاهرة لتمجيد دور مصر في القارة وتأكيد أفريقيتها . وفي نفس اليوم اعتذر وزير خارجية السنغال الذي لم يكن حاضراً هذه الجلسة ـ عما قاله مندوبه ووصفه بأنه لم يعبر فيما قال عن رأي حكومته .

ورغم أن مثل هذا الحادث لم يتكرر بعد ذلك داخل المنظمة إلا أنه كان يعكس شيئاً من المحاولات التي كانت تبذل ضد مصر لإقصائها عن دورها الافريقي .

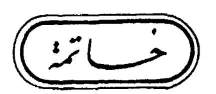
أما في مصر نفسها فقد كانت صورة الحياة التي يراها ويعيشها

المواطن المصري ويلمسها ويحسها الوافد عليها وخاصة من الأفارقة لا تعكس الهوية الافريقية بالقدر الكافي الذي يتناسب مع حقيقة ما كانت قد وصلت إليه مصر من مكانة خاصة في أفريقيا .

فقد جاءت صورة هذه الحياة والتي يمكن أن تراها في مختلف دروب الفن والفكر والأدب وتعكسها نشاطاتنا الثقافية والاعلامية ، جاءت في تعبيرها دون الواقع الافريقي لمصر ، ولا تعكس حقيقة انتماءنا للقارة الافريقية ، هذا في الوقت الذي كانت تفيض فيه دائماً الشخصية العربية على الفكر والوجدان المصري وتعكس الحياة المصرية عروبتها في أصالة وسخاء عظيمين .

ورغم أن هذا الوضع كان أمراً طبيعياً لأسباب عديدة منها حداثة الدعوة للانتماء الافريقي والوحدة الافريقية ، إلا أن ذلك كان أمراً مقلقاً لمن يهتم بأمر هذه الدعوة ويتعجل نتائجها .

وقد أبديت هذا القلق أمام جمال عبد الناصر في بداية عام ١٩٦٧ فوجدته مدركاً لهذه الحقيقة وراغباً في علاجها ولكن جاءت الهزيمة العسكرية في عام ١٩٦٧ بعد ذلك مباشرة لتؤخر الكثير من مشروعاتنا في هذا الطريق .



مصر بثقلها البشري والحضاري وبموقعها الجغرافي المتميز هي أكثر دول القارة الافريقية قدرة على القيام بدور قيادي فعال ومؤثر في سياسة القارة بشرط أن يكون هذا الدور متفقاً مع حركة التاريخ ومتمشياً مع روح العصر وفي اتجاه رياح التغيير المتعاطفة التي اجتاحت أفريقيا منذ الخمسينات وأحدثت في القارة هذا التحول العظيم الذي ارتفعت في أعقابه أعلام الاستقلال وانطلقت بسببه الثورات من أجل التحرر والخروج من سيطرة الاستعمار والامبريالية .

ولا شك أن مصر في عهد جمال عبد الناصر استطاعت أن تلعب ذلك الدور وتصبح محوراً للأحداث في القارة ومحركاً لها . فقد وقف عبد الناصر دائماً إلى جانب قضايا الشعوب الافريقية ضد السيطرة الأجنبية ، وقضايا التقدم ضد التخلف ، وقضايا التحرر وتقرير المصير ضد الاستعمار والامبريالية والعنصرية الظالمة .

وكان لعبد الناصر حس مرهف في قدرته على استشفاف نبض الجماهير وتلمس احتياجاتها . فكان أعظم ما تميزت به سياسته الخارجية هو الارتباط الوثيق بحركة الشعوب في العالم العربي وفي أفريقيا وفي العالم الثالث كله ، ثم القدرة على تحويل هذه الحركة إلى قوة يواجه بها خصومه .

فكانت حركة الشعب المصري والشعوب العربية هي التي أعادت عبد الناصر عندما تنحى في أعقاب هزيمة مصر العسكرية عام ١٩٦٧ وكانت هي القوة التي استند إليها ليواصل تحديه لقوى العنصرية والاستعمار والامبريالية .

ثم جاءت الثورة في السودان والثورة في ليبيا والثورة في الصومال ، جاءت هذه الثورات وهي تعلن أنها امتداد لثورة ٢٣ يوليو المصرية التي اعتبرتها الثورة الأم . وجاء ذلك في أعقاب هزيمة ٦٧ العسكرية ليؤكد أن عبد الناصر ما زال يحتفظ بنبض الشعوب ويرتبط بحركتها الثورية .

واستمر عبد الناصر في مواجهته الجريئة للاستعمار والامبريالية فلم يتخل ـ وهو في هذه الظروف الصعبة ـ عن دوره التاريخي في أفريقيا والوقوف بحزم لمساعدة الشعوب التي تتعرض لمؤامرات الاستعمار والامبريالية . فكانت وقفته الشجاعة لمساعدة نيجيريا في القضاء على مؤامرة الانفصال في بيافرا التي حركها ومولها تحالف الاحتكارات الرأسمالية والاستعمار بالتعاون مع إسرائيل . كان هذا ومرارة الهزيمة العسكرية ما زالت تملأ الحلوق ، فجاء ذلك تعبيراً عن فهمه الصحيح لشمولية النضال ورؤيته الصحيحة لأبعاد المعركة ضد قوى الاستعمار والامبريالية .

وكما وقف عبد الناصر بجرأة وصراحة ضد الاستعمار التقليدي في أفريقيا حتى أصبحت القاهرة القاعدة الأساسية لحركات التحرير في القارة ، وقف عبد الناصر أيضاً ضد الاستعمار الجديد بجميع أشكاله وصوره . فرأينا كيف وقفت مصر مع جميع الدول الافريقية التي تعرضت للضغوط الاستعمارية والامبريالية سواء في المجالات الاقتصادية أو السياسية أو العسكرية . وكان هذا خطأً أساسياً في

سياسة عبد الناصر الافريقية وانعكاساً طبيعياً وصحياً لما كان قد تحقق على أرض مصر التي كانت قد حررت إرادتها كاملة .

وقد ساهم عبد الناصر في بناء الشخصية الافريقية بأكثر مما ساهم به أي زعيم أفريقي آخر . وكان ذلك بإصراره على جعل سياسة عدم الانحياز جزءاً لا يتجزأ من هذه الشخصية وأساساً بنيت عليه منظمة الوحدة الافريقية .

ولا شك أن سياسة عدم الانحياز كانت هي الطريق الوحيد المفتوح أمام الدول الحديثة الاستقلال التي تريد أن تخرج بالفعل من دائرة نفوذ الدول المستعمرة محتفظة بإرادتها كاملة . فلم يكن في استطاعة دولة صغيرة من قبل أن تنتزع نفسها من دائرة نفوذ الدول الكبرى دون أن تقع في دائرة نفوذ جديدة حتى ظهرت سياسة عدم الانحياز فاستطاعت الدول حديثة الاستقلال أن تحمي استقلالها بالوقوف مجتمعة في مواجهة أي تدخل أجنبي . وهذه هي الفلسفة التي قامت عليها سياسة عدم الانحياز منذ نشأتها عندما وجد فيها الزعماء الثلاثة نهرو وتيتو وعبد الناصر وسيلتهم لمقاومة سياسة الأحلاف .

وكان هذا هو الدافع الرئيسي للمساعدات التي قدمتها مصر لكل دولة أفريقية تقاوم الاستعمار والامبريالية . وهكذا استطاعت أفريقيا أن تحقق ذاتها بعد أن حققت قدراً من الاستقلال وحرية الارادة كان ضرورياً لبلورة الشخصية الافريقية وهو أمر لم يكن ليتحقق على هذه الصورة لولا وجود قادة من أمثال عبد الناصر وأنكروما وسيكتوري ومديبو كيتا ونيريري وغيرهم من الزعماء الذين التزموا بسياسة عدم الانحياز وناضلوا من أجل دعم هذه السياسة في القارة الافريقية .

ومما لا شك فيه أن إحدى الانجازات العظيمة لعبد الناصر كانت

تلك الصداقة الندية للاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي . وهي صداقة استفادة منها أفريقيا كلها عندما كانت مشكلتها الأساسية هي تصفية الاستعمار وإنهاء الحكم الأوروبي لأفريقيا . واستمرت مصر ولفترة طويلة صلة أفريقيا إلى المعسكر الاشتراكي بعد أن نجحت في وضع الأسس السليمة والصحيحة لهذه الصلة والصداقة الندية ومنها تدعمت بعد ذلك العلاقة بين دول هذا المعسكر ودول أفريقية أخرى .

وقد استطاع عبد الناصر وزملاؤه من قادة عدم الانحياز في أفريقيا أن يبقوا القارة بعيداً تماماً عن الصراع الساخن للقوى العظمى وبعيدة عن مشاكل الحرب الباردة وذلك من خلال القدرة على التحرك الجماعي لمقاومة أي تدخل سافر من خارج القارة تقوم به قوى الاستعمار والامبريالية .

وقد كانت أزمة الكونغو في الستينات مثلاً حياً لإثبات القدرة على مواجهة التدخل الأجنبي في أفريقيا وذلك عندما تحركت الدول الثورية في أفريقيا بإرسال قواتها إلى الكونغو ثم مساعدة الثورة بكل الوسائل الممكنة ومقاومة الغزو البلجيكي الأمريكي ، ثم نجاحها في خلق رأي عام أفريقي لا يسمح بهذا التدخل ولا يقبل به . وعرفت الدول الاستعمارية أن مثل هذا التدخل في أي مكان آخر من أفريقيا سوف يثير لها المتاعب ويخلق تياراً معادياً لها في أنحاء القارة .

وعندما رحل عبد الناصر واختفى من قبله انكروما وتقوقع زعماء آخرون اختل التوازن باختفاء أهم القوى الافريقية التي كانت تشد أفريقيا إلى سياسة عدم الانحياز وظهر الصراع الساخن في أفريقيا ، فما حدث من حروب في القرن الافريقي وفي زائير وفي تشاد لم يكن بعيداً

عن صراع القوى العظمى ، وأصبحت أفريقيا مسرحاً للحرب الباردة والساخنة معاً .

وكانت البداية في أنجولا . فعندما تحدد موعد استقلالها في عام ١٩٧٥ كانت الحركة الشعبية لتحرير أنجولا وهي حركة ماركسية تسيطر على العاصمة وعلى معظم البلاد والموانىء الهامة . وتحركت حكومة زائير التي يرأسها موبوتو لتساعد الجبهة الوطنية لتحرير أنجولا المتمركزة في المنطقة الشمالية حيث قبائل الكيكونجو الممتدة داخل زائير بزعامة روبرتو هولدن صهر موبوتو الذي كان يعيش في كينشاسا وتساعده وتؤيده الولايات المتحدة الأمريكية وبلجيكا .

كانت الولايات المتحدة الأمريكية بطبيعة الحال لا تريد أن ترى نظاماً ماركسياً يقوم في أنجولا الغنية بالمواد الأولية من ماس وفوسفات ونحاس وزنك ونيكل وبترول ، وكان موبوتو أيضاً لا يريد أن يرى دولة ماركسية على حدود بلاده التي اختل فيها ميزان العدل الاجتماعي ربما أكثر من أي بلد أفريقي آخر ، وحيث أصبح التفاوت بين الثراء الفاحش والفقر المدقع أمراً مفزعاً تحدثت عنه كثيراً الصحافة العالمية ، هذا علاوة على الرشوة والفساد الذي أصبح سمة الحكم في زائير .

وتحركت جنوب أفريقيا أيضاً عبر الحدود المشتركة مع جنوب غرب أفريقيا (ناميبيا) لتساعد الاتحاد الوطني لاستقلال أنجولا U. N. I. T. A في الجنوب حيث قبائل « الاوفيمبوندو » بزعامة جوناس سافيمبي المدعم من بلجيكا وأمريكا ودول الغرب صاحبة المصالح في المنطقة . وتم التنسيق بين الجبهتين الجنوبية والشمالية بقصد القضاء على الحركة الشعبية لتحرير أنجولا ومنع قيام دولة ماركسية في أنجولا .

وكما قدمت الولايات المتحدة الأسلحة إلى كل من روبرتو هولدن وسافيمبي من خلال زائير وجنوب أفريقيا ، كانت الأسلحة الروسية تتدفق بكميات هائلة على الحركة الشعبية لتحرير أنجولا والتي تسيطر على أغلبية البلاد . ولم تبق الصين هي الأخرى خارج هذه اللعبة فأرسلت بعض الأسلحة إلى الجبهة الشمالية من خلال زائير كما أرسلت إليها بعض مستشاريها العسكريين وبذلك اتسعت دائرة الصراع .

وانتصرت الحركة الشعبية لتحرير أنجولا وبسطت نفوذها على جميع أجزاء أنجولا ، وقامت الدولة الماركسية في لواندا العاصمة ولكن بقي التربص بها في جنوب أفريقيا وفي زائير حيث توجد الاعداد الهائلة من اللاجئين الانجوليين . فلجأت الحكومة الجديدة إلى طلب المساعدة العسكرية من كوبا ، التي أرسلت قوة كوبية ومستشارين عسكريين كوبيين لتدريب الجيش الانجولي ولحماية النظام مما أسماه الانجوليون الغزو الخارجي من زائير وجنوب أفريقيا .

ومن الصراع الموجود بين النظام في زائير والنظام في أنجولا استفاد تنظيم كونغولي معاد لموبوتو وحكومته هو جبهة التحرير الوطنية الكونغولية F . N. L. C. الموجود بين اللاجئين الكونغوليين الذين يعيشون في شمال غرب أنجولا في مواجهة اقليم شابا (وهو ما عرف قديماً بإقليم كاتنجا) وقد نشأ هذا التنظيم في عام ١٩٦٨ وكانت قواته من جندرمة تشومبي الذين هربوا إلى أنجولا بعد تولي موبوتو السلطة في ليوبولدفيل عام ١٩٦٥ .

اتجهت أنظار هذا التنظيم إلى تأييد حكومة أنجولا الجديدة وتحول بولائه إلى حركة المقاومة الشعبية بعد أن كان يتعاون مع البرتغاليين من قبل . ورحب الانجوليون بذلك وإستفادوا بهذا التنظيم لصد رجال

العصابات من الجبهة الوطنية لتحرير أنجولا التي تساعد زائير . وفي المقابل سمحوا لهم بما يشبه الحكم الذاتي داخل إقليمهم في شمال غرب أنجولا . وهم يملكون في هذا الاقليم مزارع واسعة ومناجم للماس وكانت عندهم قوة مسلحة قوامها ٥٠٠٠ رجل مسلح .

وكان هؤلاء هم الذين قاموا عام ١٩٧٨ بمهاجمة مدينة كوليزي Kolwezi في إقليم شابا بغية إسقاط حكم موبوتو وإقامة نظام راديكالي في كينشاسا .

وفي مواجهة هذا الهجوم قام موبوتو بالاستعانة بقوات فرنسية وبلجيكية نقلتها طائرات (سي ١٤١) الأمريكية واشتركت معها بعض الدول الأفريقية المتحالفة مع الغرب وادعى موبوتو عندما طلب هذه القوات انه يتعرض لغزو كوبي دبر لحساب الاتحاد السوفيتي . وأرسلت الصين بعض الأسلحة والمستشارين العسكريين وبعض المساعدات الأخرى لزائير كما وصل وزير خارجيتها في يونيو سنة ١٩٧٨ لكينشاسا لإظهار تضامنها وتأييدها للرئيس موبوتو .

وأمكن لهذه القوات وقف الزحف القادم من أنجولا ولكن بعد أن ترك أفريقيا نهباً لصراع القوى الكبرى . بل ان الصراع بين دول الاستعمار نفسها بدأ واضحاً عندما حدثت أزمة بين بلجيكا وفرنسا بعد أن أسرعت الأخيرة بإرسال قواتها إلى زائير في شهر مايو سنة ١٩٧٨ ، فقد اعتقد البلجيك أن فرنسا تريد زيادة نفوذها الاقتصادي هناك على حساب بلجيكا وحسب قول البلجيك ـ المعلن في ذلك الوقت ـ انه تسربت إليهم معلومات تفيد أن وزارة الخارجية الفرنسية تعمل لإقناع موبوتو لشحن نحاس بلاده إلى دنكرك بدلاً من انتويرب Antwerp في بلجيكا .

وفي واقع الأمر فإن رد فعل هذه الأحداث في أفـريقيا لم يكن في حجم الكـارثة التي تهـدد القارة . فعـودة قوات دول استعمـارية إلى أفريقيا بحجة حماية أنظمة معينة يعني بـالضرورة وقـوع القارة فـريسة لصراع القوى العظمى ويجعلها مسرحاً للحـروب المحلية بـين الدول الأفريقية المتنافرة وهي كثيرة في القارة .

فقد عادت فرنسا بقـواتها إلى أفـريقيا معيـدة إلى الأذهان صـورة كريهة من صـور السيطرة الاستعمـارية . فتـواجدت قـواتها في تشـاد لتحمي نـظاماً هشـاً ضد الثـورة التي تحظى بتـأييد الأغلبيـة العظمى للبلاد ، ثـم أصبح الفرنسيون في تشـاد هم الذين يـديرون النـاحية المالية بجانب تحملهم مسؤولية الدفاع ، ولم تعـد الحكومـة التشاديـة تباشر عملها من الناحية الفعلية ، كما تواجـدت القوات الفـرنسية في جيبـوتي والسنغال وسـاحل العـاج والجـابـون وتـواجـد مستشـاروهـا العسكـريون في بـورندي والكـاميرون والنيجـر وفولتـا العليا وتـوجو وموريتانيا . فقد أصبح هناك ٢٠ دولة أفريقية لها مع فرنسا اتفاقـات خاصة بـالمساعـدات العسكريـة وخمس دول أفريقيـة تربـطها بفـرنسا اتفاقات دفاع مشترك .

وبطبيعة الحال فإن لفـرنسا مصـالح اقتصـادية وثقـافية كثيـرة في أفريقيا وهي تحاول الآن استعادة نفـوذها والمحـافظة عـلى مورد المـواد الأولية ، إلا أنها في تحركها الجديد هذه المرة وعندما أرسلت قواتها إلى زائير كانت تمثل المعسكر الغربي واستراتيجية حلف الأطلنطي بزعامـة الـولايات المتحـدة الأمريكيـة والتي عبر عنهـا مؤتمـر الـدول الخمس (أمريكا ـ وبريطانيا ـ فرنسا ـ ألمانيا الغربية وبلجيكا) الـذي عقد في باريس (يونيو سنة ١٩٧٨) .

وفي مواجهة التواجد العسكري الفرنسي في أفريقيا هناك التواجد

العسكري الكوبي وهو لا يقل عنه عدداً وانتشاراً ، فعلاوة على تواجد القـوات الكوبيـة في أنجولا فهي مـوجودة أيضـاً في أثيوبيـا وموزمبيق والكونغو برازافيل وغينيا الاستوائية وغينيا بيساو وسيراليون وساوتومي وبنين .

ورغم أن هذا التواجد الكوبي يختلف في شكله وأهدافه وأسبـابه كل الاختلاف عن تواجد قوات الدول الاستعمارية إلا أنه في النهايـة جعل من صراع القوى العظمى حقيقة في أفريقيا .

فكاسترو يشعر ان له رسالة في أفـريقيا بـاعتبار كـوبا دولـة أفرو أمريكية ومن أجل ذلك يرى أن عليه مساعدة الأفـارقة . والكـوبيون يشدهـم الحنين للعودة إلى المنابع الأصلية للغالبية العظمى من الشعب الكوبي القادمة أصلاً عبر موجات الهجرة الاجبارية من أفريقيا خلال القرون الماضية . وكذلك فإن كاسترو ما زال يعتبر أمريكا عدوّه الأول وكان يعتقد أن خلق المشـاكل لها في أماكن بعيدة قد يبعدها عن كوبا نفسها . وبالإضافة إلى هذا فإننا لا يمكن أن نستبعد عملاً يتعلّق بفلسفة الثورة الكوبية وهو إيمانهم بفكرة تصدير الثورة إلى الشعوب الأخرى .

ولا شك ان الاتحاد السوفيتي يرتاح ويؤ يد هـذا التواجـد الكوبي الذي يخدم استراتيجيته هو الآخر على الأقل في تهديد طريق امدادات الغرب بالبترول والمعادن سواء عن طريق البحر الأحمر أو رأس الرجاء الصـالح . وهـو الطريق الـذي يعتبر مـدخلاً إلى منـاجم اليورانيـوم والمعـادن ذات الصبغة الاستـراتيجية في أفـريقيا الجنـوبيـة . كـما يهم السوفييت أيضاً مواجهة النفوذ الصيني المتصاعد في هذه القارة والذي أصبح ينمو جنباً إلى جنب مع النفوذ الأمريكي .

لقد كانت مصر بزعامة عبد الناصر هي إحدى القـوى الأساسية

في أفريقيا القادرة على الحركة ، المستعدة دائماً لمواجهة أي تدخل أجنبي تتعرض له القارة . واستطاعت مصر أن ترجح كفة عدم الانحياز في أفريقيا ، ولا شك أن سياسة عدم الانحياز هذه والتي تبنتها منظمة الوحدة الافريقية كان لها الفضل الأول في إنقاذ القارة ولفترة طويلة من أن تكون مسرحاً للحرب الباردة أو أرضاً لصراع القوى العظمى . فكانت الدول الافريقية تحت راية عدم الانحياز هي التي تتصدى للتدخل الأجنبي . رأينا ذلك في أزمة الكونغو كما رأينا كيف أن الأمم المتحدة نفسها عند نظر القضية الكونغولية بعد الغزو البلجيكي الأمريكي أوصت بحل أفريقي للأزمة عندما اكتفت بالأسف للأحداث (إشارة للغزو) وأحالت المشكلة إلى منظمة الوحدة الافريقية لبذل جهودها من أجل تحقيق المصالحة الوطنية .

كانت أفريقيا في ذلك الوقت قادرة على احتواء المشاكل الافريقية وإيجاد الحلول الافريقية لها . وصحيح أن الدول الافريقية الثورية في أفريقيا كانت تستعين بتأييد الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية في المجالات الدولية كما كانت تتلقى منها المساعدة ، ولكن الصراع في أفريقيا بقي في واقعه صراع بين الاستعمار والامبريالية في جانب والقوى الوطنية والثورية الافريقية في الجانب الآخر بعيداً تماماً عن صراع الدول الكبرى . وكان الفضل في ذلك يرجع أساساً لمجموعة الدول والزعامات التي استطاعت ان تحتفظ بتوازنها كاملاً وهي على ذلك الخيط المشدود بين المعاداة الصريحة الواضحة للاستعمار والامبريالية وبين الالتزام الكامل بسياسة عدم الانحياز . وعندما فقدت هذه الدول قدرتها في الالتزام بهذه السياسة أصبحت أفريقيا مسرحاً لهذا الصراع .

وأعتقد أن المرحلة القادمة ستكون مرحلة تتميز بالصراع بين

الأنظمة المختلفة في أفريقيا وذلك كنتيجة مباشرة لانتقال الصراع بين الدول العظمى إلى داخل القارة ، وهذا الانتشار الواسع للقوات الفرنسية التي أصبحت تمثل استراتيجية حلف الأطلنطي والقوات الكوبية المتحالفة مع الدول التقدمية في أفريقيا . وثانياً لظهور دول عديدة ذات نظم ماركسية في أفريقيا يزداد عددها باستمرار ، الأمر الذي لا تطيقه كثير من الأنظمة الافريقية الأخرى المرتبطة بالغرب كما لا تطيقه الدول الأوروبية صاحبة الشركات والمصالح الرأسمالية في مناطق الثروة .

كما اعتقد أن هذا الصراع سيكون في كثير من الأحوال من النوع الساخن وعلى غرار ما حدث في القرن الافريقي في أعقاب القضاء على حكم هيلاسلاسي ، أو ما حدث بين أنجولا وزائير في أعقاب ظهور الحكم الماركسي في أنجولا ، أو الحرب الخاطفة بين مصر وليبيا عام ١٩٧٨ ، والحرب بين تنزانيا وأوغندا عام ٧٩ والتي أسقطت نظام عيدي أمين . فقد أصبحت أفريقيا مثقلة بالسلاح وسهلت لغة الحرب كوسيلة للمواجهة بين الأنظمة المتنافرة .

وعندما اجتمعت الدول الخمسة (أمريكا وبريطانيا وفرنسا وبلجيكا وألمانيا الغربية) في المؤتمر الذي عقد في باريس في شهر يونيو سنة ١٩٧٨ لبحث موضوع زائير بقصد تقديم المقترحات للحكومات المشتركة ، بشأن الكيفية التي تقدم بها المساعدات لتأكيد أمن زائير وإصلاح اقتصادها ، اقترحت فرنسا إنشاء قوة لمساعدة الدول الافريقية . والمقصود بذلك حماية الأنظمة الافريقية المرتبطة بالغرب . ولكن المؤتمر لم يوافق على هذه الفكرة التي لم ترحب بها الولايات المتحدة الأمريكية بحجة أنها تفضل بحث كل حالة على حدة .

ويبدو أن أمريكا لا تريد التورط مباشرة بإرسال قواتها أو حتى

قوات تمثل حلف الأطلنطي إلى أفريقيا ، فما زالت عقدة فيتنام تلاحقها . ولكنها لا تمانع في أفرقة الصراع الدائر لحسابها وخاصة بعد أن وجدت دولاً أفريقية قوية مستندة للقيام بهذا الدور . وأطلقت يد فرنسا في أفريقيا بحجة حماية مصالحها وتحت ستار العلاقة التقليدية وارتباط المصالح بينها وبين كثير من الدول التي كانت تستعمرها .

وأخطر النتائج المترتبة على صراع الأنظمة في أفريقيا هو تمييع المواجهة التي كانت حدودها الفاصلة واضحة بين القوى الوطنية والثورية في جانب والقوى الاستعمارية والاحتكارات الرأسمالية المتحالفة معها في الجانب الآخر . فقد أصبحت هناك جيوش أفريقية تخوض معاركها في هذا الصراع متحالفة مع قوات الاستعمار القديم . فرأينا القوات المغربية وقد ذهبت إلى زائير مع القوات البلجيكية والفرنسية لحماية نظام موبوتو ضد ما سمي بالزحف الماركسي القادم من أنجولا وذلك في عام ١٩٧٨ ، ورأينا القوات الكوبية والاتحاد السوفييتي متورطين في أثيوبيا مع النظام الماركسي ضد حركات التحرير في ارتيريا . ووقفت نظم تقدمية كثيرة في أفريقيا حائرة في نظرتها لهذه المشكلة الارترية . ووقفت نظم تقدمية كثيرة في أفريقيا حائرة في نظرتها لهذه المشكلة الارترية ، فهي حائرة بين اعتبارها مشكلة من مشاكل التحدي الذي يواجهه نظام ثوري تقدمي في أثيوبيا وبين اعتبارها مشكلة من مشاكل القوميات والتي يتحتم علاجها بغير أسلوب العنف الذي اتجهت إليه حكومة منجستو العسكرية ..

ان افريقيا في أشد الحاجة إلى تحرك الحكماء كما سبق أن تحركوا في بداية الستينات عندما احتدم الصدام بين الدول الافريقية الثورية والدول المرتبطة بالغرب وظهرت التكتلات السياسية المتنافرة في القارة فجاءت حركة هؤلاء الحكماء من بعض الرؤساء الأفريقيين لتذيب

هذه التكتلات السياسية ، وتحد من الصراع الدائر بين دولها بالتوصل الى صيغة وإطار جديد للوحدة الافريقية الشاملة وذلك بقيام منظمة الوحدة الافريقية في عام ١٩٦٣ .

وبطبيعة الحال فإن هذا التحرك المطلوب ليس بالأمـر السهل ولا أعرف على وجه التحديد من هم الحكماء القادرون على الحركة في هذا الاتجاه الآن ولكنني أعتقد أن أسس هذه الحركة يجب أن تكون :

أولاً : العمل الافريقي الجماعي لتخليص أفريقيـا من أي قوات عسكرية من خارج القارة والضغط المستمر لتحقيق ذلك .

ثانياً : التقيـد من جديـد بمبادىء التعـايش السلمي بين أنـظمة الدول الافريقية وفقاً لمبادىء منظمة الوحدة الافريقية .

ثالثاً : تدعيم منظمة الوحدة الافريقية بالشكل الذي يجعلها قادرة على المساهمة الايجابيـة في حل المنـازعات الافـريقية واحتـوائها . ولن يكون ذلك ممكناً إلا إذا وقفت وراء المنظمة وآمنت بدورها قوى أفريقية قادرة ومؤثرة ومستعدة لكي تتحمل مسؤوليـة تحقيق ذلك كـما كانت تفعل كل من غانا ومصر في بداية تكوين المنظمة .

رابعاً : تنشيط دعوة عدم الانحياز في القارة وربط حركـة الدول الافريقية بحركة العالم الثالث .

وكــانت هـذه هي نفس الأسس التي قــامت عليهـا سيــاســة عبد الناصر الافريقية والتي استطاع بها ـ مع قادة آخرين ـ أن يبعد عن أفريقيا الحرب الباردة وأن يحتفظ بالقارة خارج نطاق الصراع الساخن بين القوى العظمى . ومع ذلك استمرت الثورة الافريقية في طريقهـا لتحرير الانسان الافريقي من سيطرة أوروبا والرجل الأوروبي .

فهرس

عن المؤلف والكتاب

مؤلف هذا الكتاب من أخلص العناصر الشابة التي دفعت بها ثورة ٢٣ يوليو وقيادة عبد الناصر إلى أهمّ مواقع المسئولية وأوكلت إليها أخطر المهام . فقد كان مستشاراً للزعيم الراحل للشؤون الافريقية ورسوله الكفؤ الأمين إلى قادة ثورات التحرير في أفريقيا ، وعضواً دائماً في وفد مصر إلى كل مؤتمر دولي حضره عبد الناصر ، كما رأس وفد مصر أكثر من مرة إلى مؤتمرات الوحدة الأفريقية ، ثم تولىّ وزارة الأعلام مرتين الأولى عام ١٩٦٨ والثانية عام ١٩٧٠ حيث ظلّ بها إلى أن أُدخل السجن في ١٥ مايو ١٩٧١ ليقضي بين جدرانه عشر سنوات هي مدة الحكم الذي أصدرته بحقه محكمة سياسية استثنائية .

ويروي محمد فايق في هذا الكتاب الذي كتبه في السجن، قصة ثورة ٢٣ يوليو وعبد الناصر مع ثورة التحرر في كل ركن من أركان القارة العملاقة، وهي قصة يعلم كل المطلعين على أسرارها أهمية الدور الذي لعبه محمد فايق في كل ف
من فصولها، رغم حرصه طوال صفحات هذا الكتاب
حجب أهمية دوره الخاص وبإبراز أهمية دور الثورة والق
كل هذا نغمة صدق وبساطة وموضوعية يلمسها القارى
كل سطر من سطور هذا الكتاب الهام الذي يؤرخ لص
من أروع صفحات ثورة ٢٣ يوليو المجيدة.



